كولين مكلو

طيور الشوك

رواية

«في ثلاثة أجزاء»

ترجمتها عن الانكليزيّة

نضال حوّاط

٢

بسم الله الرحمن الرحيم

دمشق : منطقة المزة (3) ـ حي الجلاء (5) شارع كعب بن مالك
(طلعة الإسكان سابقاً) بناء رقم (2) ـ ص.ب : 16035
هاتف: 6618013 - 6618961 تلفاكس: 6618820 ـ برقياً: طلاسدار
E-mail:info@dartlass.com Website:www.dartlass.com

مكتبة دار طلاس ـ برج دمشق ـ مقابل وزارة الداخلية ـ هاتف: 2319558

ريع الدار لهيئة مدارس
أبناء و بنات الشهداء في الجمهورية العربية السورية

طيور الشوك

الآراء الـــواردة في كـتب الـــدار
تعبـــر عـــن فـكـــر مؤلفيهـــا
و لا تعبر بالضرورة عن رأي الـــدار

الطبعـــــــة الرابعـــــة: 2007

رقــم: 2859 ـ تاريـــخ: 1986/4/28

كولين مكلو

طيور الشوك

رواية
«في ثلاثة أجزاء»

الجزء الثاني

ترجمتها عن الانكليزيّة
نضال حوّاط

اسم الكتاب باللغة الانكليزية

THE THORN BIRDS

COLLEEN McCULLOUGH

الكتاب الثالث

بـادي

١٩٢٩ ـ ١٩٣٢

الفصل الثامن

حلّت السنة الجديدة مع احتفال «انغوس ماكوين» السنوي الذي يقيمه في «رودنا هانيش»، ولم يكونوا قد انتهوا بعد من الانتقال إلى المنزل الكبير. لم يكن ذلك سهلاً ولا يمكن أن يتم بين يوم وليلة، فقد كان عليهم أن يحزموا ما تكدس في البيت من أغراض خلال سبعة أعوام، وقد أصرت «في» على الانتهاء من إعداد صالة الاستقبال في المنزل الكبير قبل الانتقال إليه. ولم يكن أحد من أفراد العائلة في عجلة مع أنهم كانوا ينظرون بلهفة إلى ذلك اليوم. ولم يكن المنزل الكبير مختلفاً كثيراً عن منزلهم الحالي من نواح عدة، فلم يكن به تيار كهربائي، كما أنه كان مرتعاً للذباب، ولكنه كان في الصيف أبرد من الخارج بحوالي ست أو سبع درجات مئوية بسبب سماكة جدرانه الحجرية وبسبب ظلال

أشجار الصمغ المترامية على سطحه. ومن جهة ثانية كان الحمّام به فاخراً حقاً، ويصله الماء الساخن في أنابيب تمر وراء الفرن المازوتي الضخم القائم في المطبخ المجاور. وكل نقطة من هذا الماء كانت ماء مطر. وبالرغم من وجود بناء خاص واسع يحتوي على عدة حمّامات معزولة بعضها عن الآخر، إلّا أن المنزل الكبير والمنازل الأخرى الأصغر كانت مجهزة بمراحيض داخلية، وهذه ما كان الحاسدون من أهالي غيللي يسمونه «ترفا» فعدا عن فندق «الامبريال»، والحانتين، وبيت الكاهن الكاثوليكي والدير، لم يكن بيت واحد في غيللي يملك مرحاضاً داخلياً، إلّا منزل دروغيدا الكبير، وذلك بفضل عدد خزاناته المائية الضخم، واتساع سطحه الذي يساعد على تجميع مياه المطر. وكانت القواعد صارمة: لا داعي لهدر الماء الثمين، مع ضرورة استعمال المطهرات بوفرة. ولكن ذلك كان كالجنة بالمقارنة مع الحفرة الخارجية.

كان الأب رالف قد أرسل لبادي شيكاً بمبلغ خسمة آلاف ليرة في مطلع كانون الأول الجاري حتى يواجه المصاريف

الاضطرارية، كما قال في رسالته، وناول بادي الرسالة لـ «في» والذهول يعلو وجهه:

ـ أظن أني لم أكسب مثل هذا المبلغ طوال حياتي التي قضيتها في الكد والجهد.

ـ «ماذا سنفعل بها؟» سألته زوجته وهي تنظر إلى الشيك ثم إليه وعيناها تبرقان. «إنها نقود يا بادي، نقود أخيراً، هل تصدق ذلك؟ آه، لا تهمني الثلاثة عشر مليون ليرة التي تركتها العمة ميري، فهي ليست حقيقة، ولكن هذه النقود حقيقية. ماذا سنفعل بها؟».

ـ «انفقيها» قال بادي ببساطة. «بعض الثياب الجديدة لك وللأولاد؟ وربما كانت هناك أشياء أخرى يجب شراؤها للمنزل الكبير. لا أستطيع أن أفكر بشيء آخر نحتاجه».

ـ ولا أنا. يا للغباء!

وغادرت «في» مائدة الافطار ونادت ميغي بإلحاح:

ـ تعالي يا فتاة، سنذهب لإلقاء نظرة على البيت الكبير.

وعلى الرغم من مرور ثلاثة أسابيع على الأيام المنهكة التي تلت وفاة ميري كارسون، فلم يكن أحد من آل كليري قد اقترب

بعد مجرد اقتراب من المنزل الكبير، لكن «في» بدأت الآن تعوض عما مضى متغلبة على نفورها من زيارة البيت. وكانت تنتقل من غرفة لأخرى برفقة ميغي، تتبعهما السيدة سميث وميني وكات، وقد ذهلت ميغي لحماستها ولم تكن قد رأت أمها هكذا من قبل. وكانت «في» تتكلم مع نفسها بدون انقطاع: «وهذا كان قبيحاً»، «وذلك كان شنيعاً»، و«هل كانت ميري عمياء عن الألوان» و«أليس عندها أي ذوق على الاطلاق؟».

وتوقفت «في» في غرفة الاستقبال مدة أطول وهي تنظر إليها بعينيها الخبيرتين لم يكن هناك أكبر من هذه الغرفة إلّا صالة الاستقبال الكبيرة، فقد كان طولها أثني عشر متراً وعرضها عشرة وارتفاعها أربعة أمتار ونصف. وكانت خليطاً عجيباً من أقبح الأشياء وأجملها، وقد طليت جدرانها باللون القشدي الذي كان قد اصفّر مع الأيام ولم يكن يبرز أيا من نقوش السقف أو الألواح الخشبية المنحوتة على الحيطان. أما النوافذ الهائلة التي كانت ترتفع من الأرض إلى السقف وتمتد على طول الشرفة، فقد كانت مغطاة بستائر مخملية بنية اللون تلقي بظلها السميك على المقاعد البنية، هي أيضاً، وعلى مقعدين رائعين من الملاكيت، وآخرين لا يقلان

عنهما روعة من الرخام الفلورنسي. هذا إلى جانب مدفأة ضخمة قشدية اللون من المرمر ذي العروق الوردية العميقة. أما الأرضية اللامعة، المصنوعة من خشب الساج فكانت مغطاة بثلاث سجادات (أوبيسون) وضعت في أشكال هندسية دقيقة، وثريا من الكريستال الثمين يبلغ ارتفاعها متراً وثمانين سنتمتراً، وقد عُلِّقت في السقف مباشرة ولُفَّت سلاسلها حولها.

ـ من الواجب تهنئتك يا سيدة سميث، إن المكان شنيع ولكنه نظيف جداً. سوف أعطيك أشياء تستحق اهتمامك وعنايتك. يا للعار! هذه المقاعد الحجرية الرائعة مثلاً ، وليس هناك ما يبرز قيمتها. منذ اليوم الأول الذي وقعت به عيناي على هذه الغرفة، تشوقت لأن أصنع منها شيئاً يستقطب إعجاب كل من يدخلها، وفي الوقت نفسه شيئاً مريحاً يجعل من يدخل إليها يتمنى أن يبقى فيها.

أما مكتب ميري كارسون فقد كان هو أيضاً قباحة من الطراز الفيكتوري، وتوجهت «في» نحوه ونحو الهاتف الموضوع فوقه، ونظرت إلى خشبه الباهت باحتقار:

ـ إن مكتبي الجميل سيحل مكان هذا. سوف أبدأ بهذه الغرفة

وعندما تنتهي منها سأنتقل من البيت الآخر ، ولكن ليس قبل ذلك ، وهكذا سيكون عندنا على الأقل مكان واحد نستطيع الجلوس فيه دون أن نشعر بالكآبة .

وجلست وراء المكتب ورفعت سماعة الهاتف .

وبينما كانت ابنتها وخادماتها واقفات ينظرن إليها بذهول ، كانت هي تطلب رقم المحامي « هاري غوف » ليبدأ تحركاته ، فعليه أن يُبلغ « مارك فويز » بإرسال نماذج من أقمشته بالبريد الليلي ، ويطلب من « نوك وكيربي » إرسال عينات من الدهانات التي عندهم ، ومختارات من ورق الجدران من « غريس برازر » ، كما عليه أن يتصل بمخازن أخرى في سيدني لكي يرسلوا لها منجّد أثاث ماهر وفريق من الدهانين القادرين على تنفيذ العمل الدقيق الذي تطلبه « في » . مرحى للسيدة كليري ! إنها ستكنس ميري كارسون وكل ما يذكر بها خارج البيت .

وانتهت المكالمة الهاتفية ، وأمرت « في » النسوة الثلاث بنزع الستائر البنية على الفور ورميها على كومة القمامة لتلحق بالقاذورات ، وأشعلت « في » النار فيا بنفسها .

ــ لسنا بحاجة لهذه الستائر ولن أنكب بها فقراء غيللانبون .

ــ أحسنت يا أماه . قالت ميغي وقد شلّتها الدهشة .

ــ «لن نضع ستائر على الإطلاق» قالت «في» دون أن تشعر بأي حرج في الابتعاد عن الموضة السائدة في تلك الأيام . «إن الشرفة عريضة جداً ولا تسمح للشمس بالوصول إلى هنا مباشرة ، فلم الستائر إذن ؟ أريد أن تظهر الغرفة إلى الخارج» .

ووصلت الأقمشة والدهانون والمنجّد ، وتسلقت ميغي وكات السلالم لغسل وتلميع أعلى النوافذ بينما انشغلت السيدة سميث وميني بتنظيف أسفلها ، في الوقت الذي كانت «في» تدور فيه حولهن وتراقب عملهن بعين كعين النسر .

وفي الأسبوع الثاني من كانون الثاني كان كل شيء قد أصبح جاهزاً ، وانتشرت الأخبار بالطبع عبر خطوط الهاتف أن السيدة كليري قد حولت غرفة الاستقبال في دروغيدا إلى قصر ، و ... أليس من اللائق أن تقوم السيدات «هوبتون» و«كنغ» و«أوبروك» بزيارة آل كليري وتهنئتهم بالبيت الجديد ؟ ولم يفكر أحد أن نتيجة أفكار «في» كانت بهذه الروعة . كانت السجادات (الأوبيسون) بألوانها الفاتحة القشدية ، ورسومها الزهرية والحمراء والخضراء قد ألقيت كيفما اتفق على الأرض اللامعة كالمرآة ،

وطليت الجدران والسقف بلون قشدي فبرزت عليها النقوش واضحة بلونها الذهبي، كما غطيت المساحات البيضاوية الشكل الموجودة في ألواح الجدران الخشبية الكبيرة بقطع من الحرير الأسود تزينه الورود نفسها المرسومة على السجادات، وطلي إطارها باللونين القشدي الذهبي فبدت كلوحات يابانية. أما الثريا الكريستالية فقد علقت من سلاسلها بالسقف، وتدلت على ارتفاع مترين فقط من الأرض وقد التمعت قطعها الكريستالية بالآلاف، تعكس الأنوار كقوس قزح، وتدلت سلاسلها البرونزية بحرية بعد أن كانت ملفوفة حول محورها. وعلى مناضد مدهونة باللونين القشدي والذهبي هي أيضاً، وضعت مصابيح من كريستال الثريا نفسه بقرب منافض سجائر مشابهة ومزهريات ملئت بالورود القشدية والزهرية. أما المقاعد الكبيرة المريحة فقد غطيت جيمعها بحرير مموج قشدي اللون ووضعت في مجموعات يبعث منظرها الدفء في النفس، وأمامها مساند للأقدام تدعو إلى الجلوس والاسترخاء. وفي زاوية مشمسة انتصب البيانو القديم، تعلوه مزهرية فيها ورود قشدية وزهرية اللون. وفوق المدفأة الكبيرة علقت «في» صورة جدتها بثوبها الزهري، ومقابلاً لها من الجهة الأخرى من الغرفة، صورة لميري كارسون في أيام صباها، وشعرها الأحمر يلمع

كالنحاس، وقد ارتدت ثوباً أسود مشدوداً على الصدر، جعل الشبه بينها وبين الملكة فيكتوريا في أول أيام ملكيتها كبيراً.

ـــ «حسناً» قالت «في». يمكننا الآن أن ننتقل من المنزل الآخر، وسوف أهتم بالغرف الأخرى على مهل. آه، أليس رائعاً أن يملك الإنسان مالاً كافياً ومنزلاً جميلاً ينفق عليه هذا المال؟

قبل أن ينتقلوا بحوالي الثلاثة الأيام، وفي ساعة مبكرة جداً من الفجر، ولم تكن الشمس قد أشرقت بعد، أخذت الديكة بالصياح وإلقاء تحية الصباح بمرح.

ـــ «أيها الحقيرون» قالت «في» وهي تغلف بعض الخزفيات بقطع من الورق. «لست أدري ما البطولة التي يظنون أنهم قد قاموا بها حتى يصيحوا بهذا الشكل. ليس هناك بيضة واحدة في القن من أجل الإفطار، والشباب كلهم في البيت حتى ننتهي من الانتقال. ميغي، عليك أن تذهبي عوضاً عني إلى القن، فليس عندي وقت لذلك». وتمعنت في إحدى الصحف ومطت شفتيها وهي تحدق قائلة: «لست أدري لماذا يصر بادي على المجيء بكل هذه الصحف ولا أحد عنده الوقت ليقرأها، فهي تتكوم وتتكوم ولا نستطيع حتى إحراقها دفعة واحدة،

انظروا إلى هذا! إنه أقدم من يوم مجيئنا إلى هنا. على كل حال سنستفيد منها في تغليف الصحون والخزفيات.

وكانت ميغي مسرورة برؤية ابتهاج أمها، وفكرت وهي تهبط الدرج الخلفي بسرعة، متوجهة نحو القن، إنه رغم لهفة الجميع الطبيعية للعيش في المنزل الكبير، فقد كانت أمها أشدهم شوقاً، وكأن ذلك يمكنها من تذكر معنى أن يحيا الإنسان في منزل كهذا. كم كانت ذكية! وكم كان ذوقها رائعاً! وهذه أشياء لم يدركها أحد من قبل لأنهم ما كانوا يملكون لا المال الكافي ولا الوقت الكافي للكشف عن هذه الفضائل. وكانت ميغي تهنيء نفسها بانفعال، فقد ذهب أبوها إلى أحد تجار الحلي في جيللي وابتاع لأمها عقداً من اللؤلؤ، وأقراطاً مماثلة أضيفت إليها بعض الماسات الصغيرة، وقد دفع ثمنها من الخمس الآلاف ليرة التي أرسلها له الكاهن. وكان سيقدمها لها بمناسبة عشائهم الأول في المنزل الكبير. والآن وبعد أن رأت وجه أمها وقد اختفت منه صرامته المعتادة، فقد كانت تتلهف شوقاً لرؤية هيئتها عندما ستتلقى اللآلىء. وكان الأولاد جميعهم من بوب إلى التوأمين، متحرقين لتلك اللحظة لأن والدهم كان قد أراهم العلبة الجلدية، وفتحها لهم ليكشف عن الحبات البراقة الراقدة في سريرها المخملي الأسود. كانت سعادة أمهم

المتفتحة قد أثرت فيهم بعمق، وكانت رؤيتهم لها كرؤية المطر بعد جفاف طويل. وحتى هذه اللحظة لم يكونوا قد فهموا تماماً مدى تعاستها خلال تلك المدة التي عرفوها بها.

كان قن الدجاج ضخماً ويحتوي على أربعة ديكة وأكثر من أربعين دجاجة. وفي الليل، كانت الطيور تلتجىء تحت سقيفة متداعية كُنِست أرضها بعناية فائقة وعلى محيطها أصطفت صناديق البرتقال الفارغة وقد مُلِئت بالقش لوضع البيض، وعلى حائطها الخلفي كان بالإمكان رؤية مجاثم متعددة ومن كل الأحجام والارتفاعات، أما في النهار فكانت الطيور تنتشر في الحوض الخارجي المسيج بأسلاك متشابكة. وعندما فتحت ميغي باب القن وتسللت إلى الداخل، تجمعت الدجاجات حولها بشراهة ظناً منهن أنها قد أتت لإطعامهن. وبما أنها كانت تضع لهن الطعام في المساء، فقد أخذت تضحك من غبائهن المشهور، وهي تتقدم نحو السقيفة.

ــ الحقيقة أنكم عصابة ميؤوس منها.

ثم رمت لهم بعظة صارمة بينما كانت تفتش عن البيض بين القش:

ـــ أربعون واحدة وخمس عشرة بيضة فقط! ليس هناك ما يكفي للإفطار، رغم قالب الحلوى. حسناً، إني أحذركن الآن، إذا لم تسارعن وتعالجن الموقف في أقرب وقت فستنتهين جميعكن في القدر، وأنا أوجه كلامي أيضاً إلى السادة الديوك وإلى زوجاتهم. إذن لا تفردوا ذيولكم ولا تنفخوا أعناقكم وكأن حديثي لا يتوجه إليكم أنتم أيضاً، يا سادة!

ووضعت البيوض بعناية في مريلتها وأسرعت عائدة إلى المطبخ وهي تغني.

كانت «في» تجلس على مقعد بادي محدقة في الجريدة المحلية وقد شحب وجهها وشفتاها ترتجفان. ووصلت إلى سمع ميغي أصوات الشباب في الداخل، وضحكات جيمس وباتسي اللذين كانا قد بلغا السادسة من عمرهما. وكانا لا يزالان في سريرهما، فلم يكن يُسمح لهما بالنهوض قبل أن يخرج الرجال إلى عملهم.

ـــ ما الأمر يا أماه؟ سألت ميغي أمها.

ولم تجب «في»، وإنما جلست تحدق في الفراغ أمامها، وقد أخذت حبات من العرق تلتمع على شفتها العليا وجمدت عيناها في

ألم عميق يائس وكأنها كانت تكبح نفسها بكل ما تمتلكه من قوة حتى لا تصرخ.

ــ أبي، أبي! صاحت ميغي بحدة وهي مذعورة.

وعندما سمع صراخ ميغي، ركض بادي خارجاً من الغرفة وهو لا يزال يغلق أزرار قميصه الداخلي، وتبعه بوب وجاك وهوغي وستوارت. وأشارت ميغي بأصبعها إلى أمها بدون كلمة.

وبدا كما لو أن قلب بادي قد توقف في حنجرته، فانحنى فوق «في» وأمسك بيده يدها المرتخية:

ــ ماذا هنالك يا عزيزتي؟

سألها بصوت حنون لم يسمعه أحد من أولاده من قبل، ولكنهم فهموا أن هذه هي اللهجة التي يخاطبها بها عندما يكونان وحيدين.

وبدت «في» وكأنها تميز هذا الصوت الخاص فبدأت تخرج من هاوية صدمتها، ونظرت العينان الرماديتان إلى وجه بادي اللطيف القلق والذي لم يعد شاباً:

ــ «انظر» قالت وهي تشير إلى خبر صغير منشور في أسفل الصفحة.

كان ستوارت قد ذهب ليقف وراء أمه، ووضع يده برقة على كتفها، وقبل أن يبدأ بقراءة الخبر، نظر بادي إلى وجه ابنه، إلى عينيه اللتين تشبهان عيني «في» وهزّ برأسه موافقاً، فالذي كان قد أثار غيرة فرانك لم يكن ليفعل هذا أبداً عند ستو، وحبهما لـ «في» كان يربطهما برباط وثيق بدل أن يفرق بينهما.

وأخذ بادي يقرأ الخبر بصوت عال ولهجته تتزايد حزناً كلما تقدم في قراءته. كان العنوان الصغير يقول: «ملاكم يحكم عليه بالسجن مدى الحياة».

«أصدرت اليوم محكمة مقاطعة غولبورن حكمها بالسجن مدى الحياة على فرنسيس ارمسترونغ كليري، البالغ من العمر ستة وعشرين عاماً، وهو ملاكم محترف، بتهمة قتل رولاند البرت كامينغ، المزارع البالغ من العمر اثنين وثلاثين عاماً، وذلك في تموز من العام الماضي. وقد وصل المحلفون إلى قرارهم بعد عشرة دقائق فقط من المداولات، وطلبوا إيقاع أشد العقوبات التي يمكن للمحكمة فرضها. ولقد قال القاضي «فيتزهوغ كونيللي» إن القضية واضحة جداً، إذ كان كامينغ وكليري قد تشاجرا شجاراً عنيفاً أمام الحاضرين في حانة فندق «هاربور» في الثالث والعشرين

من تموز. وفيما بعد، وفي الليلة نفسها استُدعي الضابط «توم بيردزمور» من شرطة غولبرن فوصل برفقة شرطيين إلى فندق «هاربور» الذي يملكه السيد «جيمس اوليفي». وفي زقاق ضيق وراء الفندق وجدت الشرطة المدعو كليري وهو يرفس بقدمه رأس كامينغ المغمى عليه، وكانت يداه الملوثتان بالدماء تقبضان على خصل من شعر كامينغ، وعندما أوقف كليري بدا أنه سكران وإنما واع. ولقد اتهم بالضرب مع تعمد الأذى، ولكن التهمة حولت إلى تهمة قتل بعد أن مات كامينغ من نزيف في الدماغ في مستشفى مقاطعة غولبرن، في اليوم التالي.

وقد دافع المحامي آرثر وايت عن كليري ملتمساً عدم اعتباره مذنباً، بسبب الجنون، ولكن الفحص الطبي الذي قام به أربعة أطباء محلفين أثبت بوضوح وتبعاً لقوانين «مناغتن» أن كليري لا يمكن أن يعتبر مجنوناً. وعندما اتجه القاضي بكلامه إلى هيئة المحلفين، أفهمهم بوضوح أن المسألة ليست مسألة ذنب أو براءة، فهو مذنب بلا شك، وإنما طلب منهم أن يأخذوا كل وقتهم ليناقشوا إذا كان سيحكم بشدة أو بتسامح، وكان القاضي سيتبع رأيهم. وعندما أصدر القاضي حكمه سمّى عمل كليري بعمل «وحشي وغير إنساني»، وتأسف لأن الشاب كان بحالة السكر

وذلك يجعل الحكم بالشنق غير وارد، مع أنه كان يعتبر يدي كليري كسلاح مميت مثل أي مسدس أو سكين. وحكم على كليري بالسجن مدى الحياة في سجن غولبرن وهو أحد السجون المخصصة للمساجين ذوي الطبيعة العنيفة. وعندما سئل كليري إذا كان يريد أن يصرح بشيء ما أجاب: فقط، لا تخبروا أمي.

ونظر بادي إلى أعلى الصفحة ليرى التاريخ، وكان ذلك في السادس من كانون الأول عام ١٩٢٥، فقال بيأس:

ــ لقد كان ذلك منذ ثلاث سنوات.

ولم يجبه أحد، ولم يتحرك أحد، فما كانوا يعرفون كيف يتصرفون. ومن الجهة الأمامية للبيت، تناهت إلى أسماعهم ضحكات التوأمين وهما يثرثران بصوت مرتفع.

ــ «فقط، لا تخبروا أمي» تمتمت «في»، «ولم يخبرني أحد، يا إلهي، أيها المسكين يا فرانك!».

ومسح بادي الدموع عن وجهه بظهر يده الطليقة، ثم جلس القرفصاء أمام زوجته وهو يربت على فخذيها بلطف.

ــ هيئي حقيبتك يا عزيزتي، سوف نذهب لرؤيته.

ونهضت نفسها قليلاً ثم عادت وارتمت على مقعدها،

وكانت عيناها ثابتتين تلمعان ببريق الموت في وجهها الشاحب وقد اتسعت حدقتاها وبانت نقاطهما الذهبية بوضوح.

ــ لا يمكنني الذهاب.

قالت وليس في صوتها أثر لليأس ولكن قلقها كان واضحاً للجميع:

ــ سوف يموت إذا رآني. آه يا بادي، سيموت! إني أعرفه جيداً، وأعرف عزة نفسه وطموحه وتصميمه على أن يصبح شخصاً مهماً. دعه يتحمل عاره وحيداً، هذا ما يرغب به. لقد قرأت ما قال: «فقط، لا تخبروا أمي» وعلينا مساعدته وذلك بأن نكتم سره. ما الفائدة في أن نراه أو يرانا؟

كان بادي لا يزال ينتحب، ولكن ليس من أجل فرانك، وإنما للحياة التي انسحبت من وجه «في»، وللموت الذي في عينيها. إن هذا الولد كان دائماً عصفور شؤم لا يحمل إلّا الكوارث، وينتصب دائماً بينه وبين فيونا، وهو السبب في إبعاده عن قلبها وإبعاد جميع أولاده أيضاً. وكلما بدا أن هناك قليلاً من السعادة يلوح في أفق «في»، كان فرانك واقفاً له بالمرصاد ليبعده، ولكن حب بادي لها كان عميقاً وراسخاً رسوخ حبها

لفرانك، ولن يستطيع أن يعنف الولد ثانية، ليس بعد تلك الليلة في منزل الكاهن.

ولهذا فقد قال لفيونا:

ـــ حسناً يا «في»، إذا كنت تظنين أن من الأفضل عدم الاتصال به، فلن نتصل به. ولكن بودي أن أعلم أنه بخير، وأنهم قد عملوا له كل ما يمكن عمله. ما رأيك لو كتبت للأب رالف دو بريكاسار وطلبت منه أن يهتم بفرانك؟

وبقيت عيناها مطفأتين، ولكن شيئاً من اللون عاد إلى وجنتيها:

ـــ نعم يا بادي، افعل ذلك. ولكن عليك أن تلح على الأب حتى لا يدع فرانك يعرف أبداً أننا نعلم ما جرى له. من الممكن أن يشعر فرانك بالراحة لو أدرك أننا لا نعلم شيئاً عن الموضوع.

واستعادت «في» الكثير من نشاطها خلال أيام قليلة، وشغلها اهتمامها بتزيين البيت الكبير عن أفكارها السوداء. ولكن هدوءها تحول ثانية إلى صمت وإنما أقل تجهماً من قبل وانطوت على نفسها في سكون أخرس. وكان يبدو وكأنها تهتم بشكل البيت الكبير أكثر من اهتمامها براحة عائلتها، ربما لاعتقادها أن بإمكانهم

العناية بنفوسهم روحياً، وإن السيدة سميث والخادمتين يعرفن كيف يوفرن لهم حاجاتهم المادية على أتم وجه.

ولكنهم كانوا قد تأثروا جميعهم بعمق عندما عرفوا مصير فرانك التعس. ولقد حزن الشبان الكبار حزناً شديداً من أجل أمهم، وأمضوا ليالي بيضاء وهم يتذكرون شكل وجهها عندما قرأت الخبر البشع في الصحيفة. كانوا يحبونها، وكانت الفرحة التي أظهرتها خلال الأسابيع الماضية قد جعلتهم يرون وجهاً من وجوهها لن ينسوه ما عاشوا، وكانوا يرغبون رغبة شديدة في رؤيتها ثانية كذلك. وإن كان والدهم هو المحور الذي دارت حوله حياتهم حتى الآن، فمنذ هذه اللحظة أخذت «في» مكانها بقربه، فأخذوا يعاملونها بعناية وحنان فائقين لا تضعفهما أية لا مبالاة من قبلها. واتفق كل الذكور في العائلة، من بادي إلى ستو، لكي يؤمنوا لها كل ما تحتاجه، وطلبوا مشاركة الجميع في هذا، ممنوع أن يجرح أحدهم إحساسها بأي شيء أو يصدمها ثانية.

وعندما قدم لها بادي اللآلىء تناولتهم وهي تشكره بكلمة بسيطة لا إحساس فيها، ولا ابتهاج، ولا اهتمام بالهدية. ولكن الجميع كانوا يحاولون أن يتصوروا ردّ فعلها لو لم يكن فرانك قد عكر عليها حياتها.

ولو لم ينتقلوا إلى البيت الكبير لكان على ميغي أن تتحمل أكثر بكثير مما تتحمل. فبدون أن يقبلها أبوها وأخوتها في ناديهم الخاص، للعناية بأمهم (ربما لظنهم أن مشاركتها ستكون ضنينة أكثر من مشاركتهم)، فقد كانوا يتوقعون منها أن تقوم بكل الأعمال التي تنفر منها «في»، ولكن انتقالهم إلى البيت الكبير سمح للسيدة سميث والخادمتين بإزاحة عبء كبير عن أكتاف ميغي. وكانت العناية بالتوأمين الصغيرين هي أكثر ما يثير نفور فيونا، ولكن السيدة سميث أخذت على عاتقها العناية بجيمس وباتسي، وبحماسة سدَّت على ميغي مجال الشفقة عليها. وعوضاً عن ذلك فقد شعرت بالسرور لأن الطفلين أصبحا أخيراً عند مدبرة البيت. وحزنت ميغي من أجلِ أمها ولكن ليس بالدرجة التي حزن بها الرجال، إذ أن إخلاصها كان قد تعرض لتجربة قاسية وقد جُرِح إحساس الأمومة عندها جرحاً عميقاً لرؤيتها عدم اكتراث «في» المتصاعد بجيمس وباتسي. وكانت تفكر في نفسها: «عندما سيصبح لي أولاد، لن أحب أبداً واحداً منهم أكثر من الآخرين».

كانت الحياة في المنزل الكبير مختلفة جداً، وقد جربوا لأول مرة شيئاً غريباً وهو أن يكون لكل منهم غرفة نومه الخاصة، ولم تعد

النساء يقلقن بشأن الأعمال المنزلية داخل البيت أو خارجه، فقد كانت ميني وكات والسيدة سميث يقمن بكل شيء من الغسيل والكي إلى الطبخ والتنظيف، وكن يتضايقن جداً حين يعرض عليهن أحد أي نوع من المساعدة. ومن جهة أخرى، كان هناك موكب لا ينقطع من المتجولين الذين كتبوا أسماءهم في سجلات المزرعة كعمال، وذلك بمقابل طعامهم ومعاش ضئيل جداً، وكانوا يقومون بقطع الحطب لنار البيت الكبير، ويطعمون الدواجن والخنازير، ويحلبون الأبقار، ويساعدون توم العجوز في العناية بحديقته الجميلة، كما كانوا يقومون بكل الأشغال الثقيلة المتعبة.

وتلقى بادي أخباراً من الأب رالف.

«إن دخل أملاك ميري كارسون السنوي يصل إلى أربعة ملايين من الليرات، ويعود الفضل في ذلك إلى شركة ميشار التي هي ملكية خاصة ومصالحها مركزة على الصلب والمراكب والمناجم «كتب الأب رالف». فالذي أعطيتك إياه إذن لا يساوي إلا نقطة في بحر كارسون ولا يشكل حتى عشر دخل دروغيدا في سنة واحدة. ولا تقلقك السنوات الصعبة، فإن حساب دروغيدا في البنك يميل بثقل نحو الأسود، وليس الأحمر، وباستطاعتي أن أدفع

لك حقك إلى **الأبد من فوائد هذه النقود فقط**، إذا لزم الأمر. وهكذا فالنقود التي تستلمها ليست بأكثر مما تستحق، على الإطلاق، وهي لن تفقر شركة ميشار، وفوق ذلك فهذه النقود تأتي من المزرعة وليس من الشركة، وأنا لا أطلب منك أكثر من أن تمسك دفاتر الحسابات عندك بدقة شديدة وبأمانة تامة لتكون جاهزة فيما لو حصل أي تفتيش في المزرعة».

وبعد أن تلقى بادي هذه الرسالة، عقد اجتماعاً في غرفة الاستقبال الجميلة ذات مساء بينما كان الجميع موجودين في المنزل. وجلس في أحد المقاعد الوثيرة، ووضع نظارته ذات الإطار المعدني وقد انزلقت إلى منتصف أنفه الروماني، وأراح قدميه على مسند خاص، ثم وضع غليونه في منفضة الكريستال إلى جانبه:

ــ «رائع! قال وهو ينظر حوله بلذة. «أظن أن علينا أن نقدم التهانىء للوالدة بالإجماع، أليس كذلك يا صبيان؟

وتصاعدت تمتمات الموافقة من «الصبيان»، وأحنت فيونا رأسها من مقعد ميري كارسون المجنح وقد غطي الآن بقماش حريري فاتح اللون. وكورت ميغي قدميها على مسند الأقدام الذي اختارت الجلوس عليه بدلاً من المقعد، وثبتت عينيها بعناد على الجورب الذي كانت ترتقه.

ـ «إن الأب دو بريكاسار قد أوضح الوضع تماماً وكان سخياً جداً» تابع بادي. «ولقد وضع سبعة آلاف ليرة في المصرف، في حساب باسمي، كما فتح حسابات إدخار لكل منكم ووضع في كل منها ألفي ليرة. وسيدفع لي أربعة آلاف ليرة سنوياً من أجل أتعابي كقيّم على المزرعة، كما سيدفع لبوب ثلاثة آلاف ليرة سنوياً كمساعد القيم، أما «الصبية» العاملون أي جاك وهوغي وستو، فلكل منهم ألفا ليرة سنوياً، وللصغيرين ألف كل عام إلى أن يكبرا ويقررا ما سيفعلان». «وعندما يكبر الصغيران، فإن الشركة ستؤمن لكل منهما دخلاً سنوياً يعادل دخل أي شخص يقوم بعمل تام في دروغيدا. وعندما يبلغ جيمس وباتسي الثالثة عشرة من عمرهما، فسوف يرسلان إلى معهد «ريفرفيو» في سيدني كطالبين داخليين ويتلقيان علومهما على نفقة الشركة أيضاً».

«أما الوالدة، فلها ألفا ليرة سنوياً، وكذلك ميغي. وسوف تخصص قيمة خمسة آلاف ليرة لمصاريف المنزل. لماذا يظن الأب رالف أننا بحاجة لكل هذا كي ندير منزلاً؟ لست أدري، وهو يقول أنه أردنا إجراء أية تعديلات لاحقة في البيت فلن تضرنا هذه النقود. ولقد أعطاني تعليماته فيما يتعلق بالسيدة

سميث وبميني وكات وتوم، وكم علي أن أدفع لهم، ولا يسعني القول إلا أنه سخي حقاً، أما بقية الأجور فعلي أن أقررها بنفسي. ولكن قراري الأول كقيم ومدير أعمال هو أن أضيف على الأقل ستة مربي ماشية على ما عندنا حالياً، وهكذا تسير دورغيدا كما يجب، فالعمل فيها كثير جداً بالنسبة لهذا العدد القليل من اليد العاملة».

كان هذا أشد انتقاد صدر عنه في حياته حول إدارة أخته للمزرعة.

ولم يكن أحد منهم قد سمع قبلاً عن إمكانية الحصول على مثل هذا المبلغ من المال، فجلسوا صامتين، يحاولون أن «يهضموا» حسن طالعهم.

وقالت «في»:

ـــ إننا لن ننفق نصف هذا المبلغ يا بادي، فهو لم يترك لنا شيئاً ننفق عليه.

ونظر بادي إليها برقة:

ـــ «إني أعلم ذلك أيتها الوالدة، ولكن من الرائع أن نفكر أننا لن نقلق أبداً بعد اليوم بسبب النقود» وتنحنح ثم تابع: «يبدو لي

أن الوالدة وميغي خاصة سوف تجدان نفسيهما ضائعتين قليلاً. إني لم أفهم الأرقام في حياتي، ولكن الوالدة تعرف جداول الطرح والجمع والقسمة والضرب كأستاذ حساب، وهكذا فهي ستقوم بالمحاسبة هنا بدلاً من الاعتماد على مكتب هاري غوف. لم أكن أعلم ذلك من قبل ولكنه تبين لي أن هاري غوف كان يستخدم موظفاً خاصاً للاهتمام بحسابات دروغيدا، ولم يجد رجلاً لهذا العمل مؤخراً ولن يزعجه أن يترك لنا تدبير الأمر» والواقع أنه هو الذي أوحى إلي أن بإمكان الوالدة أن تكون محاسبة جيدة، وهو سيرسل شخصاً من غيللي حتى يعلّمك ذلك كما يجب، أيتها الوالدة، فالأمر يبدو معقداً في البدء، إذ يجب موازنة الحسابات، وملء الدفاتر والسجلات، وتسجيل كل شيء كتابياً، وغير ذلك... وهذا يكفي لكي يشغلك ولكنه لن يمتص قواك كما يفعل الطبخ والغسل، أليس كذلك؟».

وأوشكت ميغي أن تصيح: «وماذا عني أنا؟ فأنا أطبخ وأغسل مثل أمي بالضبط».

وكانت «في» تبتسم فعلاً لأول مرة منذ قرأت الخبر عن فرانك:

ـــ سوف يمتعني ذلك العمل يا بادي، حقيقة. سيجعلني أشعر وكأني جزء من دروغيدا.

ـــ سوف يعلمك بوب قيادة الرولس الجديدة، لأنه سيكون عليك أنت أن تذهبي إلى غيللي للمعاملات المصرفية ولرؤية هاري، وفضلاً عن ذلك فستشعرين بالسعادة لأن بإمكانك أن تقودي السيارة متى شئت وإلى أي مكان أردت بدلاً من أن تكوني مرتبطة بواحد منا يسمح له وقته بالاهتمام بك. أنت معزولة جداً هنا، ولقد كنت أنوي منذ زمن بعيد أن أعلمكما، أنتما الاثنتين، قيادة السيارات، ولكني لم أكن أملك الوقت لذلك من قبل. اتفقنا يا «في»؟

ـــ «اتفقنا يا بادي» قالت بسعادة.

ـــ والآن يا ميغي، جاء دورك.

ورمت ميغي بالجورب والإبرة من يدها، ونظرت إلى والدها في خليط من الاستفهام والامتعاض. كانت بالتأكيد تعرف ما سيقوله لها: «إن أمها ستكون مشغولة بالحسابات، ولهذا فعليها أن تشرف على البيت وما جاوره».

ـــ «إني أكره أن أراك تتحولين إلى آنسة كسولة متكبرة مثل بعض

بنات الملاكين اللواتي نعرف» قال بادي وعلى وجهه ابتسامة محت كل احتقار من كلماته.

«ولهذا سوف أعطيك عملاً يأخذ وقتك كلـه، يا ميغـي الصغيرة. سوف تهتمين بالمراعي الداخلية عوضاً عنا: رأس البئر، والجدول، وكارسون، ومينبـورا وكـذلك مرعـى نورث تانك، كما ستشرفين على الحوش المركزي. سوف تكونين مسؤولة عن خيول المزرعة في وقت عملها وفي وقت راحتها. وخلال التجمعات الكبيرة، وفي زمن الوضع سنأتي لمساعدتك أما عدا عن ذلك فعليك أن تتدبري أمورك بنفسك، سيعلمك جاك كيف تجعلين الكلاب تطيعك وكيف تستعملين السوط. هل ترين؟ إني اعتبرك صبياً جاء خطأ إلى العالم على شكل فتاة، ولهذا فأنا أظن أن عليك أن تعملي في المراعي وقتاً أطول مما تمضين دائرة في أرجاء البيت وحوله». وأنهى كلامه وهو يبتسم أعرض ابتساماته.

كان امتعاضها واستياؤها قد طارا من النافذة بينما كان يتكلم. لقد عاد من جديد والدها الذي يحبها ويفكر بها. ماذا دهاها لكي تشك به هكذا؟ وكان خجلها من نفسها قوياً بشكل

تمنت معه أن تغرز الإبرة الطويلة في فخذها حتى تعاقب نفسها، ولكنها كانت سعيدة جداً ونسيت أن تفرض على نفسها مثل هذا العقاب، وعلى كل حال لم تكن الفكرة إلّا طريقة متطرفة في التعبير عن عذاب ضميرها.

وشع وجهها وهي تقول:

ـــ آه يا والدي، إني أحبك كثيراً.

وسأله ستوارت:

ـــ وأنا يا أبت؟

ـــ إن النسوة لسن بحاجة لك في المنزل بعد الآن، وهكذا ستعود إلى المراعي يا ستو.

ـــ «حسن يا والدي». قال وهو ينظر إلى «في» نظرة عميقة ولكنه لم يقل شيئاً.

○

وتعلمت «في» وميغي قيادة الرولز رويس الجديدة التي كانت ميري كارسون قد اشترتها قبل وفاتها بأسبوع، كما تعلمت ميغي معاملة الكلاب، و«في» مسك دفاتر الحسابات.

ولولا غياب الأب رالف لشعرت ميغي بسعادة تامة، فقد كان هذا ما رغبت به دائماً: أن تخرج إلى المراعي ممتطية جوادها ومؤدية أعمال الرجال. ولكن الألم الذي تركه فراق الأب رالف كان لا يزال حاداً، وكذلك ذكرى قبلته التي كانت كنزها الثمين، نحلم به، وتحاول ألف مرة في اليوم استعادة الإحساس الذي شعرت به في ذلك الوقت، ولكن الذكرى لم تكن لتعوضها عن الحقيقة. ورغم محاولاتها فلم يكن بوسعها استعادة الإحساس الحقيقي بتلك القبلة وإنما ظلا منه فقط، كغيمة رقيقة حزينة.

وعندما كتب لهم ليخبرهم عن فرانك، حطم تماماً أملها برؤيته، فقد كانت تتوقع أن يستغل الحادثة كعذر للمجيء لزيارتهم. وكان قد اختار كلماته بعناية لكي يصف لهم زيارته لفرانك في السجن، وتجنب تماماً أن يلمح إلى الألم الذي سببته له هذه الزيارة كما أنه لم يذكر أبداً أي شيء عن سوء حالة السجين النفسية. ولقد حاول إحالة فرانك إلى مصح الأمراض العقلية في «موريست» حيث يوضع المساجين الذين لا يملكون كل قواهم العقلية، ولكنه لم يصل إلى نتيجة. ولهذا فقد رسم لهم صورة مثالية لفرانك، يظهر فيها راضياً تماماً بدفع ثمن الأخطاء التي ارتكبها بحق

المجتمع. وفي عبارة رسم تحتها خطاً عريضاً، أخبر الأب بادي أن فرانك لا يعرف مطلقاً أنهم على علم بما حدث، وأما بالنسبة له فقد قال لفرانك أن القصة تناهت إلى سمعه عبر صحف سيدني وأنه سيحاول جهده ألّا تعلم العائلة بها. وعندما أخبره بذلك، هدأ فرانك، وقد تركه الأب على هذه الحالة.

وفكر بادي ببيع فرس الأب رالف الكستنائية، وكانت ميغي تستخدم الجواد الأسود الممشوق الذي اعتادت امتطاءه فيما مضى لمتعتها الخاصة، وكحصان للعمل، فقد كان أقل عناداً وأدمث من بقية الخيول المتقلبة الأطوار، ومن تلك الماكرة الموجودة في الحوش المركزي. فجياد العمل كانت حيوانات ذكية ولكن الهدوء لم يكن الصفة الغالبة عندها، ورغم غياب الفحول من بينها فلم تكن سلسة أبداً.

ـــ «أرجوك يا والدي، بإمكاني أن أمتطي الفرس الكستنائية أيضاً.» توسلت إليه ميغي. «فكر قليلاً كم سيبدو الأمر بشعاً إذا رجع الأب رالف لزيارتنا ووجد أننا قد بعنا فرسه بعد كل اللطف الذي أبداه نحونا!»

ونظر بادي إلى ميغي نظرة عميقة:

ـــ لا أظن أن الأب رالف سيعود إلى هنا يا ميغي .
ـــ ربما ! من يعلم !

وتغلبت عليه عيناها الشبيهتان بعيني «في»، لم يكن بإمكانه أن يجرح مشاعرها أكثر مما هي عليه. يا للصغيرة المسكينة !

ـــ حسناً إذن يا ميغي، سنحتفظ بالفرس، ولكن عليك ركوب الاثنين، الكستنائي والأسود، بشكل منتظم، لأني لا أريد أن أرى حصاناً سميناً في دروغيدا. هل تسمعين ؟

وحتى تلك اللحظة كانت تنفر من استخدام فرس الكاهن، ولكنها منذ ذلك اليوم نظمت نفسها بحيث تعطي كلاً من الجوادين فرصة لتمرين عضلاته، وكسب شعيره بعرق جبينه .

ومن حسن الحظ أن السيدة سميث وميني وكات كنّ قد شغفن بالتوأمين، فبينما كانت ميغي تقضي أوقاتها خارجاً في المراعي، و«في» تجلس ساعات بكاملها أمام مكتبها في غرفة الاستقبال، كان الطفلان يقضيان أوقاتاً ممتعة. وكانا يحشران أنفهما بكل شيء، ولكن مرحهما ومزاجهما الضاحك كانا

يجنبانهما الغضب والركلات. وفي الليل كانت السيدة سميث التي اعتنقت الكاثوليكية منذ زمن بعيد، تركع في منزلها الصغير لتصلي وقلبها يفيض بشكر عميق يكاد يفجره، فهي لم تنجب أولاداً يفرحون قلبها عندما كان « روب » لا يزال حياً، ولسنين طويلة بقي المنزل الكبير بدون أطفال وقد حُرِّم على ساكنيه الاختلاط بالقيمين ومربيي الماشية، هناك عند الجدول. ولكن آل كليري عندما جاءوا، وكانوا أقارب ميري كارسون، أتوا معهم بالأولاد أخيراً. والآن، وإذ يقطن جيمس وباتسي في المنزل الكبير، فقد تحولت دروغيدا إلى جنة حقيقية.

○

كان ذلك الشتاء جافاً، ولم تكن الأمطار الصيفية قد بدأت بالهطول. وبدأت الأعشاب الطويلة المكتظة تنصبغ بالأصفر وتجف تحت أشعة الشمس القاسية حتى يبست كل ورقة منها إلى أعمق أعماقها. ولكي يستطيع الإنسان أن ينظر إلى المراعي البعيدة، كان مجبراً أن يغمض عينيه نصف إغماضة ويخفض طرف القبعة فوق جبينه، فقد كان العشب يعكس الضوء كمرآة فضية وكانت هناك دوامات لولبية صغيرة تجري متسارعة وسط

السراب الأزرق البراق حاملة معها حزماً من أوراق الأعشاب المكسرة وتنقلها من كومة لأخرى .

آه ! كان هذا هو الجفاف ! وحتى الأشجار كانت قد جفت وأخذت قشورها تتساقط تحتها على شكل أشرطة قاسية متكسرة . لم يكن هناك من خطر على الخرفان ، فالأعشاب ستدوم سنة بكاملها على الأقل ، وربما أكثر . ولكن أحداً لم يكن يرغب برؤية كل هذا الجفاف ، وكان هناك احتمال كبير إلّا تتساقط الأمطار في العام القادم أو الذي بعده . وفي السنوات الخصبة كانوا يحصلون على أكثر من أربعين سنتمتراً من الأمطار ، أما في السنين القاحلة فلم يكن يتساقط أكثر من خمس سنتمترات وأحياناً لا شيء على الإطلاق .

وعلى الرغم من الحرَ والذباب فقد كانت ميغي تعشق الحياة خارجاً في المراعي ، وهي تقود الفرس الكستنائية وراء قطيع الأغنام الثاغية بنيما كانت الكلاب تستلقي على الأرض وقد تدلت ألسنتها وتظاهرت بالغفلة ، ولكن ما إن كان أحد الخراف يغادر الحشد المتلاصق حتى يقفز أقرب كلب إليه كالسهم ، وقد كشر عن أنيابه الحادة على استعداد تام لإطباقها على القوائم المسكينة .

ومشت ميغي بفرسها أمام القطيع وشعرت بالارتياح بعد أن كان عليها أن تتنشق الغبار الذي أثارته قوائم الخراف طوال بضعة كيلو مترات. ثم فتحت باب المرعى، ووقفت تنتظر بصبر بينما كانت الكلاب تزمجر وتعض الخراف لإدخالها، وقد بدت سعيدة وهي تحاول أن تبدي براعتها أمام ميغي. كان تجميع الأبقار وقيادتها أصعب من هذا لأنها كانت ترفس وتهاجم الكلاب، وأحياناً كانت تقتل أحد الكلاب الغافلة، وفي مثل تلك اللحظات كان على الشخص الذي يسوق القطيع أن يتدخل ويستعمل سوطه. ولكن الكلاب كانت تحب الخطر الذي تواجهه عند قيادة الأبقار. ولم يكن هذا العمل داخلاً في نطاق عمل ميغي، فقد كان بادي يقوم بهذا العمل بنفسه. ولكن الكلاب بالنسبة لميغي كان لها سحرها الخاص، فقد كان ذكاؤها مذهلاً. وكانت أغلب الكلاب في دورغيدا من كلاب الرعاة الاسترالية، ذات فراء بني وفير، بينما كانت أقدامها وصدرها وأجفانها ملونة باللون القشدي. ولكن كان هناك أيضاً بعض كلاب الكوينزلاند الزرقاء الضخمة ولها فراء رمادي مائل إلى الزرقة مرشوش بالبقع السوداء، ونوع آخر من الكلاب تنتج عن التزاوج بين كلاب الرعاة وكلاب الكوينزلاند. وكانت الإناث المستعدة للتزاوج تلقح بطريقة

علمية وتبقى تحت المراقبة طيلة مدة الحمل وأثناء الوضع. وبعد أن تُفطَم الجراء وتكبر، تساق إلى المراعي لاختبارها، فيُنتقى أجودها للقيام بالعمل في المزرعة أو للبيع، أما السيئة منها فكانت تُقتَل.

وصفرت ميغي منادية كلابها ثم أغلقت البوابة على القطيع وأدارت فرسها باتجاه البيت. وعلى مقربة من المكان الذي كانت تقف به، انتصب دغل كثيف من أشجار الاوكاليبتوس والصمغ والبقس الأسود، وفي أطرافه بعض أشجار الويلغا، فمشت إلى ظله بامتنان، وباستطاعتها الآن أن تنظر حولها على مهل وتتأمل المنظر الممتد أمام عينيها المبتهجتين. كانت أشجار الصمغ تعج بالببغاوات المنهمكات في الثرثرة والصفير وهي تحاول تقليد غناء العصافير، والحساسين تنتقل من غصن إلى آخر، بينما جلس ببغاوان بعرفيهما الأصفرين يراقبان تحركات ميغي بأعين متسائلة وقد أحنيا رأسيهما جانبياً. أما طيور الذعّر، فقد كانت تنبش الأرض باحثة عن النمل ومؤخراتها المضحكة تعلو وتهبط، وكانت الغربان تطلق نعيقها الأبدي المرعب وأصواتها أقبح ما يمكن سماعه في عالم الطيور، خالية من كل فرح ومليئة بيأس يجمد النفوس رعباً ويذكر بالجيف واللحم المتعفن والذباب. ولم يكن من المعقول تخيل

غراب وهو يغني مثل البلبل، فقد كان الصوت مناسباً للوظيفة التي يمارسها تماماً.

وبالطبع كان هناك الذباب، في كل مكان. وكانت ميغي تضع على وجهها خماراً معلقاً في قبعتها، ولكن الذباب كان يغطي ذراعيها بلا انقطاع، بينما الفرس لا تكف لحظة عن تحريك ذيلها وهي ترتجف وترتعش بشكل مستمر.

وكانت ميغي تستغرب كيف يمكن للحيوان أن يشعر بشيء دقيق وخفيف كالذبابة خلال جلده السميك وشعره. كان الذباب يمتص العرق، وهذا ما كان يزعج الخيول والبشر أيضاً، ولكن البشر ما كانوا يسمحون له أن يفعل بهم ما يفعل بالخراف، ولهذا فقد كان الذباب يستخدم الخراف لأغراض أساسية، إذ كان يضع بيوضه في صوف مؤخراتها أو في أي مكان آخر يكون فيه الصوف قذراً ورطباً. وكان الجو مليئاً بازيز النحل ويعج باليعاسيب اللامعة الباحثة عن السواقي ومجاري المياه، وبالفراشات الرائعة الألوان، وبالعث. ورفست فرس ميغي بقدمها جذع شجرة مهترىء فانقلب، ونظرت ميغي إليه فاقشعر بدنها إذ كان يؤوي ديداناً بشعة بيضاء وسمينة ومقرفة، ورخويات صغيرة وقشريات وأمَّ

أربع وأربعين وعناكب ضخمة. وكانت الأرانب تخرج نافرة من أوكارها ثم تفتل في الهواء وتعود إلى الأوكار تاركة وراءها غمامة بيضاء صغيرة من الغبار، وتعود فتستدير لتتفحص ما حولها وخشمها يرتعش. وعلى بضع خطوات قاطع القنفذ ملاحقته للنمل وقد ذعر عند اقتراب ميغي وأخذ يحفر الأرض بسرعة جنونية بقدميه ذات المخالب المعقوفة، وخلال ثوان اختفت الأقدام وتوارى بكامله تحت جذع شجرة ضخم. كانت حركاته مضحكة جداً وهو يحفر وقد استلقت أشواكه الحادة تماماً على ظهره حتى يسهل عليه الانزلاق في التراب المتطاير حوله.

وخرجت ميغي من الدغل إلى الطريق العام المؤدي إلى البيت وقد بدا وكأنه مغطى بوشاح رمادي مرقش بمئات البقع الغامقة التي لم تكن إلا عصافير تبحث عن ديدان أو عن حشرات تأكلها. وما أن سمعت ميغي تقترب حتى ارتفعت في الهواء أمواجاً تشقه بصدورها وأجنحتها فوق رأس ميغي وقد تحول لونها الرمادي بأعجوبة إلى لون وردي غامق. وفكرت ميغي: «لو كان علي أن أغادر دروغيدا غداً، دون أمل في الرجوع، فستبقى دروغيدا في أحلامي دائماً وأبداً مغسولة بأمواج من الأجنحة، وردية... لا بد أن الجفاف شديد في تلك الجهة فالكناغر تقترب وأعدادها تزداد.

كان هناك قطيع من الكنغر يزيد عدده على الألفين يرعى على مقربة، وقد أزعجه طيران العصافير وأجفله فانطلقت الحيوانات تعدو بعيداً بقفزاتها الرشيقة التي تلتهم المسافات أسرع من أي حيوان آخر ما عدا الأمو. ولم يكن باستطاعة حتى الجياد أن تسبقها.

وفي هذه اللحظات التي كانت ميغي تدرس فيها الطبيعة، كانت تفكر برالف، كالعادة. وفي أعماقها لم تكن قد صنفت شعورها نحوه كغرام طالبة صغيرة وإنما سمته ببساطة «حباً»، كما كانت تقرأ في الكتب. فمشاعرها، والعلائم التي كانت تلاحظها لم تكن تختلف أبداً عن عواطف «ايتيل» بطلة كتاب «ديل». وكانت تجد أن من الظلم أن يقف حاجز زائف كالكهنوت بينها وبين ما أرادت الحصول عليه منه، وهو أن يصبح زوجاً لها، أن تعيش معه كما يعيش والداها بانسجام تام، فيحبها كما يحب أبوها أمها. ولم تكن قد لاحظت أبداً أن أمها قد قامت بأي مجهود لتستحق هذا الحب، ومع ذلك فقد كان بادي يعبدها فعلاً. وهكذا سيفهم رالف أن الحياة معها أفضل بكثير من حياة الوحدة لأنه لم يخطر ببالها قط أنه لا يستطيع التخلي عن حياته ككاهن

لأي سبب من الأسباب. كانت تعرف أنه لا يحق لكاهن أن يتزوج أو أن يحب، ولكنها كانت قد اعتادت تناسي هذه العقبة، نازعة عن رالف مهمته الدينية، ولم تكن تربيتها الدينية الكاثوليكية قد تطرقت إلى مواضيع كطبيعة نذور الكاهن مثلاً، وهي شخصياً لم تكن بحاجة إلى الدين ولم تحاول التفكير بعمق في هذا الموضوع، بل كانت تطيع وصايا الكنيسة وقوانينها فقط لأنها كانت تريد أن تتجنب الاحتراق في نار جهنم إلى الأبد.

وفي هذا اليوم كانت كالعادة تحلم مستيقظة وتحاول أن تتخيل سعادة الحياة معه والنوم بقربه كما يفعل أبوها وأمها، ثم أثارتها أفكارها فتململت على ظهر حصانها ولم تجد لاضطرابها تفسيراً، ففكرت أنه لا بد أن يكون بسبب سيل القبلات التي تخيلت أنها تنهمر عليها. ولم يكن عملها في المراعي قد زاد من ثقافتها الجنسية. كانت الحيوانات ما أن تشم رائحة كلب في البعيد حتى تفقد كل رغبة في التزاوج، وكما هي العادة في كل المزارع فقد كان التزاوج العشوائي غير وارد على الإطلاق. وعندما كان الكبش يُرسَل إلى النعاج في أحد المراعي، كانت ميغي تُبعَد إلى مكان آخر، وعند رؤية أي كلب يحوم حول أنثى، كانت ترفع سوطها حالاً لتوقف «لعبهما».

لم يكن بمقدرة كائن بشري واحد أن يحكم أي الأمرين أسوأ: الرغبة الغامضة وما يرافقها من نفاذ صبر وميل إلى حدة الطبع، أم الرغبة الواضحة المحددة والحافز العنيد الذي يدفع الإنسان إلى إشباعها. كانت المسكينة ميغي تتشوق لشيء لا تعرف كنهه، ولكن الدافع الأساسي كان موجوداً عندها وكان يجذبها بعنف باتجاه الأب رالف دو بريكاسار. وهكذا كانت تحلم به وتشتاق له وتريده، وكان حزنها لا يقاس لأنه رغم حبه الذي اعترف به لها فهي لم تكن تعني الكثير له، والبرهان على ذلك هو أنه لم يأت لزيارتها أبداً.

وقطع عليها أفكارها وقع حوافر حصان بادي الذي كان يتوجه نحو البيت على الطريق نفسه، وابتسمت وشدت لجام الجواد حتى يلحق بها أبوها.

ــ «ما هذه المفاجأة الجميلة؟» قال بادي وهو يقود حصانه العجوز إلى جانب الفرس الشابة.

ــ نعم، إنها مفاجأة جميلة. هل يسود الجفاف في البعيد أيضاً يا والدي؟

ــ إنه أسوأ من هذا على ما أظن. ياربي، إني لم أر بحياتي مثل هذا

العدد من الكناغر ، يبدو أنه لم يعد هناك بشيء يؤكل من جهة ميلبارينكا . إن مارتن كنغ ينوي القيام بمطاردتها على نطاق واسع ولكني لا أفهم كيف سنتمكن من تخفيض عدد الكناغر حتى لو استعملنا فرقة من الجيش مسلحة بالرشاشات !

كان بادي لطيفاً جداً ومتفهماً ، متسامحاً ومحباً ، ولم تكن الفرصة تسنح دوماً لميغي أن تجد نفسها وحيدة معه دون أن يكون هناك واحد من الشبان .

وقبل أن تغير ميغي فكرها ، طرحت السؤال المتشكك الذي كان يحرق شفتيها وينهشها من داخلها رغم كل الجهود التي كانت تبذلها لكي تطمئن نفسها .

ــ والدي ! لماذا لا يأتي الأب دو بريكاسار لزيارتنا أبداً .

ــ إنه مشغول يا ميغي . أجاب بادي وقد رن صوته بلهجة متشككة .

ــ ولكن الكهنة أيضاً يأخذون إجازة ، أليس كذلك ؟ لقد كان يحب دروغيدا جداً ، وأنا متأكدة أنه يرغب بقضاء عطلته هنا .

ــ الحقيقة أن الكهنة يأخذون إجازة يا ميغي ، ولكن من جهة أخرى فإنهم لا ينقطعون أبداً عن أداء عملهم . فمثلاً عليهم أن

يقيموا القداس كل يوم من أيام حياتهم حتى لو كانوا بمفردهم. وأنا أعتقد أن الأب دو بريكاسار عاقل وحكيم، ويدرك جيداً أنه ليس من الممكن العودة إلى الوراء لاعتناق طريقة في الحياة قد انتهت وولت. وبالنسبة إليه يا ميغي الصغيرة، فإن دروغيدا جزء من الماضي، فلو رجع إلى هنا فلن يشعر باللذة نفسها التي اعتاد أن يشعر بها فيما مضى.

ـــ هل تعني أنه قد نسينا.

ـــ «كلا، ليس هذا. لو كان قد نسينا لما كتب لنا كل تلك الرسائل، ولما سأل عن أخبار كل منا» واستدار على فرسه، والشفقة واضحة في عينيه. «أظن أن من الأفضل ألّا يعود إطلاقاً إلى هنا، ولهذا فلن أشجعه بدعوة».

ـــ أبي!

ورمى بادي نفسه بتصميم في مياه التفسيرات العكرة:

ـــ اسمعي يا ميغي، إن من الخطأ أن تحلمي بكاهن ولقد حان الوقت لكي تفهمي ذلك. لقد أخفيت سرك بعناية فائقة ولا أظن أن أحداً غيري يعلم بحقيقة شعورك نحوه. ولكنك توجهين اسئلتك إلي أنا أليس كذلك؟ ليس الكثير منها ولكنها كافية.

والآن سأقول لك شيئاً، عليك أن تكفّي عن هذا، أتسمعين؟ لقد نذر الأب دو بريكاسار نذوراً مقدسة وأنا أعلم أنه لا ينوي إطلاقاً إنكارها، ولقد أخطأتِ بتفسير الحب الذي يكنه لك. لقد كان رجلاً عندما رآك للمرة الأولى وكنت أنت طفلة صغيرة، وهو يفكر بك بهذه الطريقة يا ميغي، حتى هذه اللحظة بالذات.

ولم تجب ميغي ولم تتغير تعابير وجهها. نعم إنها ابنة أمها بحق.

وبعد فترة أجابته بصوت متوتر:

ــ ولكن بإمكانه أن يترك الكهنوت. ولكن الفرصة لم تسنح لي لأكلمه بهذا الشأن.

وكانت الصدمة التي بدت على وجه بادي حقيقية ولقد اقنعت ميغي أكثر مما فعلت كلمات بادي العنيفة.

ــ ميغي! آه، أيها الرب العظيم، إن هذا أسوأ شيء حصل لنا حتى الآن في حياتنا المتوحشة. كان عليك أن تكوني في المدرسة يا ابنتي، ولو كانت عمتك قد توفيت قبل الآن لكنت

أرسلتك حالاً إلى سيدني حتى يكون باستطاعتك أن تتذودي ببعض السنوات الدراسية. ولكنك كبيرة الآن، أليس كذلك؟ ولا أريد من أحد أن يسخر منك لو أرسلتك إلى المدرسة بهذا العمر، يا صغيرتي المسكينة.

وتابع بادي بلهجة أرق وهو يلفظ كلماته ببطء مما أضفى عليها حدة وقسوة واضحتين، مع أنه لم يكن ينوي أن يكون قاسياً وإنما أن يبدد أوهامها إلى الأبد:

ـ «إن الأب دو بريكاسار كاهن يا ميغي، ولن يتمكن أبداً أبداً أن يكون غير هذا. افهمي ذلك. والنذور التي أقسمها مقدسة، جليلة لا يمكن نقضها. وفي اللحظة التي يصبح فيها رجل كاهناً، لا يبقى أمامه مجال للعودة إلى الوراء، ولقد تأكد رؤساؤه في المعهد اللاهوتي من أنه يعلم ما يفعل قبل أن ينذر هذه النذور. إن الرجل الذي ينذر هذه النذور يعلم بدون أي ظل للشك أن لا شيء إلا الموت يحرره منها. ولقد نذرها الأب دو بريكاسار ولن ينكرها أبداً».

وتنهد. «والآن يا ميغي أنت تفهمين، أليس كذلك؟ واعتباراً من هذه اللحظة ليس لك أي عذر في أحلام اليقظة هذه عن الأب دو بريكاسار».

وكانا قد وصلا إلى البيت من الجهة الأمامية، قريباً من الأسطبلات والمرابط.

وبدون كلمة توجهت ميغي نحو الأسطبل وتركت والدها يتابع سيره بمفرده. وظل فترة يستدير لينظر إليها، وعندما أختفت وراء سياج الاسطبلات لكز جواده في خاصرته وأنهى سيره خبباً، وقد كره نفسه وكره اضطراره لقول ما قال.

○

كان صوت الأب رالف دو بريكاسار بارداً جداً ولكنه كان أكثر دفئاً من عينيه اللتين لم تتحركا أبداً في وجهه الشاحب بينما كان يتكلم بقسوة ويزن كلماته بعناية:

ــ «إنك لم تتصرف كما يطلب سيدنا يسوع المسيح من كهنته أن يتصرفوا. وأظنك تعلم هذا أكثر مما نعلمه نحن الذين نعاقبك، ومع ذلك فعلي أن أعاقبك عوضاً عن أسقفك الذي هو بالنسبة لك ليس فقط أخ في المسيح وإنما رئيسك أيضاً. فأنت مدين له بالطاعة ولا يحق لك أن تناقش توصياته وقراراته».

«هل تفهم حقاً مدى العار الذي ألحقته بنفسك، وبرعيتك وخاصة بالكنيسة التي تفرض عليك أن تحبها أكثر من

أي كائن بشري آخر؟ إن نذر العفة الذي نذرته جليل وهو يقيدك كنذورك الأخرى، وانتهاكه خطيئة عظمى. إنك لن ترى هذه المرأة ثانية، بالطبع، ولكن علينا أن نساعدك في صراعك لكي تتغلب على التجربة. ولهذا فقد اخترنا التدابير اللازمة لكي ترحل حالاً إلى رعية داروين في المقاطعة الشمالية. وسوف تتجه هذه الليلة إلى بريسبين في القطار السريع، ومن هناك تذهب بالقطار أيضاً إلى لونغريتش. وعندما تصل إليها، تستقل طائرة «كانتا» إلى داروين. إن حقائبك تحزم في هذه اللحظة بالذات وسوف توضع على القطار قبل رحيله، ولهذا فأنت لست بحاجة للعودة إلى رعيتك الحالية».

«اذهب إلى الكنيسة مع الأب جون وصلّ. وستبقى في الكنيسة إلى أن يحين موعد القطار. ومن أجل راحتك وللتخفيف عنك سيسافر معك الأب جون إلى داروين. بإمكانك الانسحاب الآن».

كان الكهنة في الادارة الكنسية حكماء وادعين، وما كانوا ليعطون للخاطىء فرصة الاتصال بالشابة التي كان قد اتخذها عشيقة له. كانت قصته قد أدت إلى فضيحة وأصبح موقفه حرجاً

جداً بين أبناء رعيته. أما بالنسبة للفتاة فما عليها إلا الانتظار والأمل والتساؤل. ومنذ هذه اللحظة وحتى يصل إلى داروين، سيكون الكاهن تحت مراقبة الأب الطيب جون، الذي كان قد تلقى أوامر صارمة. وبعد ذلك فسوف تفتح كل رسالة يرسلها من داروين، كما لن يسمح له بأي اتصال هاتفي بعيد. فالفتاة لن تعرف أبداً بمكانه ولن يتمكن هو من إخبارها، ولن يعطى الفرصة للسقوط مرة أخرى في الخطأ نفسه. كانت داروين مدينة على الحدود والنساء فيها قلة. وأما نذوره فقد كانت أبدية ولن يمكنه نقضها أبداً، وإذا كان أضعف من أن يتقيد بها بنفسه فالكنيسة ستفعل ذلك من أجله.

وبعد أن نظر الأب رالف إلى الكاهن الشاب وحارسه يغادران الغرفة، نهض من وراء مكتبه واتجه صوب غرفة داخلية. كان رئيس الأساقفة «كلوني دارك» يجلس في مقعده المعتاد، وفي الزاوية المقابلة له، كان هناك كاهن آخر يلبس حزاماً أحمر وقلنسوة من اللون نفسه. كان رئيس الأساقفة رجلاً طويل القامة تعلو رأسه كتلة من الشعر الأبيض الرائع، وعيناه الزرقاوان تبرقان بحدة.

وكان يبدو مفعماً بالنشاط والحيوية، ذا مزاج مرح ويقدر

لذات المائدة حق قدرها. أما زائره فكان عكسه تماماً، صغيراً، نحيلاً، تحيط برأسه بضع شعرات سوداء فوق وجه بارز العظام، متنسك، وبشرة شاحبة تحيط بها لحية كثة وتلمع فيها عينان سوداوان واسعتان. أما عمره فيمكن تقديره بأي شيء بين الثلاثين والخمسين، ولكنه في الواقع كان في التاسعة والثلاثين، أكبر بثلاث سنوات من الأب رالف دو بريكاسار.

ـ «اجلس يا أبت، وتناول معنا فنجان من الشاي» قال رئيس الأساقفة بحماسة. «كنت أنوي طلب إبريق آخر على التو. هل أرسلت الكاهن الشاب بعد أن وجهت له عظة قاسية لكي يحسن سلوكه؟».

ـ «نعم يا سيدنا» قال الأب رالف باقتضاب ثم جلس في المقعد الثالث حول مائدة الشاي المثقلة بشطائر الخيار وقطع الحلوى المغطاة بالكريمة البيضاء والوردية، والكعك الساخن بالزبدة، وصحون من الكريستال تحتوي على المربى والقشطة المخفوقة، وصينية فضية للشاي عليها فناجين خزفية موشاة بأوراق ذهبية دقيقة.

وقال الضيف:

ـــ «إن حوادث من هذا النوع لمؤسفة يا سيدنا العزيز، ولكننا، ورغم كوننا كهنة، فنحن أنفسنا لسنا إلا مخلوقات بشرية ضعيفة، وأنا أشفق من كل قلبي عليه، وسوف أصلي الليلة لكي يبعث له الله بالقوة الضرورية حتى لا يزلّ ثانية».

كانت لهجته أجنبية، وصوته ناعماً، وكان إيطالي الجنسية ويشغل منصب المبعوث البابوي إلى الكنيسة الكاثوليكية الاسترالية، أما اسمه فكان «فيتوريو سكاربانزا دي كونتيني فيركيزي». كان دوره حساساً جداً إذ كان عليه أن يكون صلة الوصل بين هيئة الكهنوت الاسترالي والفاتيكان، عصب الكنيسة المركزي، وهذا يعني أنه كان أهم كائن في هذه المنطقة من العالم. وقبل أن يعيّن في هذا المنصب كان يأمل بالذهاب إلى الولايات المتحدة الأميركية، ولكنه بعد تفكير عميق قرر أن استراليا ستكون عظيمة إن لم تكن بسبب مساحتها الصغيرة فبسبب شعبها. كما أنها كانت كاثوليكية أكثر بكثير من الولايات المتحدة. وخلافاً عن المناطق الأخرى من العالم الناطقة باللغة الانجليزية، لم يكن اعتناق الكاثوليكية هناك يعتبر انحطاطاً اجتماعياً، ولا عائقاً أمام سياسيّ طموح أو رجل أعمال أو قاض، وفضلاً عن ذلك

فقد كان بلداً غنياً يساعد الكنيسة بسخاء. ولم يكن يخاف من أن تنساه روما أثناء إقامته في استراليا.

كان المبعوث البابوي رجلاً حاد الذهن، وكانت عيناه مثبتتين من فوق حرف فنجانه الذهبي ليس على رئيس الأساقفة كلوني دارك، وإنما على الأب رالف دو بريكاسار الذي كان سيصبح قريباً أمين سره. ذلك أن رئيس الأساقفة دارك كان يقدر الكاهن بشكل هائل وكان الجميع يعلمون ذلك، ولكن المبعوث البابوي كان يتساءل إلى أي مدى سيكون بإمكانه هو أن يستلطف رجلاً كهذا. كان الاثنان، الأب رالف والأسقف دارك، طويلي القامة، أطول من المبعوث بكثير. وكلاهما ايرلندي استرالي، وقد تعب من اضطراره لإرجاع رأسه إلى الوراء كلما أراد أن ينظر إلى أحدهما. كانت تصرفات الأب رالف دو بريكاسار أمام سيده الحالي لائقة تماماً، وكان يجمع بين الرشاقة وخفة الروح والاحترام دون أي تذلل. كيف سيتأقلم مع سيد جديد مختلف تماماً عن سيده الحالي؟ وكانت العادة تنص على أن يُنتقى أمين سر المبعوث البابوي من صفوف الكهنة الإيطاليين، ولكن الأب دو بريكاسار كان له أهمية عظمى في الفاتيكان، فهو لم يكن فقط غنياً

شخصياً (وعكساً للرأي الشائع فلم يكـن لرؤسائـه الحق في الاستيلاء على ممتلكاته إذا لم يقدمها بنفسه للكنيسة) ولكنه عدا عن ذلك قد استطاع بقوته الشخصية أن يكسب الكنيسة ثروة هائلة. ولهذا السبب قرر الفاتيكان أن يأخذه المبعوث البابوي كأمين سره وطلب منه أن يدرس الكاهن الشاب عن كثب ليعرف مدى مقدرته.

وذات يوم سيكون على الحبر الأعظم أن يكافىء استراليا باختيار كاردينال منها، ولكن هذا لن يحدث غداً. وقد كان المبعوث البابوي ملزماً بأن يدرس الكهنة الذين في سن الأب دوبريكـاسار وقـد كان هو أفضلهـم. ليكـن هذا. دع الأب دو بريكاسار يجرب عزيمته أمام إيطالي، لفترة من الزمن. فقد تكون النتيجة مهمة. ولكن ألم يكن بوسعه أن يكون أقصر من هذا بقليل؟.

كان الأب رالـف يرشف الشاي بامتنـان، بهدوء غير عادي. ولاحظ المبعوث البابوي أنه لم يأكل إلا شطيرة صغيرة مثلثة بينما رفض كل الحلوى الأخرى، ولكنه شرب أربعة فناجين من الشاي بنهم دون أن يضيف إليها سكراً أو حليباً. حسناً، كان

هذا قد كتب في التقرير الشخصي الذي تلقاه المبعوث البابوي عن الأب رالف: كان الكاهن يتسم بالاعتدال الشديد في حياته الخاصة، لا يسرف في الطعام ولا في الشراب، أما ضعفه الوحيد فكان قيادة السيارات، وهو سائق بارع و«سريع جداً».

ـ «إن اسمك فرنسي يا أبت» قال المبعوث البابوي. «ولكنك إيرلندي على ما أعلم، فمن أين هذا الأسم، هل كانت عائلتك فرنسية إذن؟».

وهزّ الأب رالف رأسه مبتسماً:

ـ «إنه اسم نورماندي يا نيافة الأسقف، قديم جداً ومحترم. فأنا انحدر مباشرة من رانولف دو بريكاسار الذي كان باروناً في بلاط «ويليام الفاتح»، وقد أتى في عام ١٠٦٦ لغزو انجلترا مع ويليام، وأخذ أحد أولاده أرضاً انجليزية. وازدهرت العائلة تحت سيطرة ملوك انجلترا، وفيما بعد، عبر بعضهم البحر الايرلندي على زمن هنري الرابع واستقروا في «بيل». وعندما انفصل هنري الثامن عن كنيسة روما الكاثوليكية، بقينا نحن على مذهب ويليام وهذا يعني أن ولاءنا كان لروما أولاً، وليس للندن. ولكننا، وبعد أن أنشأ كروموبل الكومنويلث، فقدنا أراضينا وألقابنا ولم

يعادوا لنا بعد ذلك ، فقد أهدى الملك شارل لمحظياته الانجليزيات أراضي الايرلنديين وألقابهم ، وهكذا ترى أن كره الايرلنديين للانجليز له أسبابه » .

« ومع أننا هوينا إلى حالة من الفقر النسبي ، فقد حافظنا على ولائنا للكنيسة ، ولروما . كان أخي الأكبر يملك مزرعة خيول مشهورة في امارة « ميث » ، وكان يأمل أن ينتج فرساً تربح سباق دربي أو الجائزة الوطنية الكبرى . وأنا الولد الثاني ، وقد كان هناك تقليد متبع في العائلة وهو أن يعتنق الولد الثاني الكهنوت إذا رغب في ذلك . إني فخور باسمي وبنسبي ، فقد عاش آل دو بريكاسار منذ ألف وخمسمئة سنة » .

هذا شيء حسن ! اسم قديم ارستقراطي ، وملف ممتاز ، فقد حافظوا على إيمانهم عبر الهجرات والتعذيب .

ـــ وماذا بشأن « رالف » ؟

ـــ إنه تحوير لاسم « رانولف » ، يا نيافة الأسقف .

ـــ آه ، نعم .

ـــ إني سأفتقدك جداً ، أيها الأب .

قال رئيس الأساقفة كلوني دارك هذا وهو يكوم القشطة والمربى على قطعة من الكعك ويضعها في فمه .

وضحك الأب رالف منه :

ـ إنك تضعني في حيرة يا سيدنا ، ها أنا جالس بين سيدي القديم وسيدي الجديد ، وإذا أجبت إجابة تعجب أحدهما استاء الآخر . هل يمكنني القول بأني سأفتقدك يا سيدنا ، وفي الوقت نفسه أتلهف لخدمتك يا نيافة الأسقف ؟

كان جوابه جيداً جداً ، جواب ديبلوماسي . وبدأ المبعوث البابوي يفكر أنه سيقوم بدوره جيداً كأمين سر ، ولكنه كان وسيماً أكثر مما ينبغي بتقاطيعه الدقيقة ، وبشرته المشرقة ، وقامته الرائعة .

وغرق الأب رالف من جديد في صمته وهو ينظر إلى الطاولة دون أن يراها . كان يرى الكاهن الشاب الذي عاقبه منذ قليل ، والعذاب الذي رآه في عينيه عندما تأكد أنه لن يستطيع أن يودع حبيبته . يا إلهي ، ماذا لو كان هو بنفسه مكان هذا الكاهن ، وكانت الفتاة ميغي ؟ باستطاعة الإنسان أن يخفي سره مدة إذا كان شديد التكتم ، ويستطيع إخفاءه إلى الأبد إذا اقتصرت علاقاته على نساء يقابلهن في عطله التي يقضيها بعيداً عن رعيته . ولكن علاقة جديدة ومتواصلة لا بد أن تنكشف يوماً على أية حال .

كانت تمر عليه أوقات لا يمنعه فيها شيء من ركوب أول قطار إلى جيللي ثم إلى دروغيدا إلا ركوعه ساعات على رخام كنيسة القصر الأسقفي حتى تتصلب أعضاؤه من الألم. وكان يقول لنفسه في تلك اللحظات إن سبب هذه الرغبة هو شعوره بالوحدة وافتقاده للعاطفة الإنسانية التي عرفها في دروغيدا، ويردد لنفسه أن قبلته لميغي لم تغير شيئاً ولم تكن إلا لحظة ضعف عابرة، وإن حبه لها لا يتعدى الخيال ولم يكن قد تجاوزه إلى عالم آخر مذهل ومقلق بكماله وبعيد كل البعد عن أحلامه الأولى. لم يكن باستطاعته الإقرار أن شيئاً قد تغير، وكان يحتفظ في خياله بصورة لميغي كفتاة صغيرة ويطرد بعيداً أي رؤيا بإمكانها أن تناقض تلك الصورة. ولقد كان مخطئاً، فالألم لم يتلاش وإنما كان يبدو كأنه يزداد قسوة وبشاعة، وكانت وحدته فيما مضى شيئاً مجرداً ولم يكن باستطاعته أن يتصور أن وجود انسان واحد في حياته يمكنه أن يقضي على هذه الوحدة، أما الآن فقد أصبح لوحدته اسم: ميغي، ميغي، ميغي، ميغي...

واستفاق من أحلامه ليجد رئيس الأساقفة كونتيني ــ فيركيزي يحدق به وعيناه السوداوان تبدوان أكثر فراسة

بكثير من عيني رئيسه الحالي المشعتين بالحيوية. وإذ كان الأب رالف ذكياً جداً فقد رفض أن يتظاهر أمام المبعوث البابوي بأن لا سبب هناك لمزاجه السوداوي، بل نظر إليه نظرة نفاذة كالتي رماه بها الأسقف ثم ابتسم بضعف وهزّ كتفيه كما لو كان يقول: كل انسان يملك الحزن في داخله، وليس خطيئة أن يتذكر الإنسان أحزانه.

ــ قل لي يا أبت، ألم تؤثر الأزمة الاقتصادية على أعمالك؟

سأله الأسقف الإيطالي بكياسة.

ــ ليس هناك شيء مقلق حتى الآن يا سيدنا، فشركة ميشار لا تتأثر بسهولة بارتفاع وانخفاض الأسواق، وأظن أن الكثير ممن لم يوظفوا أموالهم بعناية كما فعلت السيدة كارسون، هم عرضة للخسارة. وبالطبع فإن مزرعة دورغيدا لن تتحمل الوضع بمثل هذه القوة لأن أسعار الصوف قد هبطت. ومع ذلك فالسيدة كارسون كانت حكيمة جداً ولم تضع ثروتها بكاملها في المشاريع الزراعية، وفضلت عليها صلابة المعادن. وهذا الوقت برأيي مناسب جداً للشراء، وليس فقط لشراء مزراع في الريف وإنما منازل وأبنية أيضاً في المدن الكبرى، فالأسعار منخفضة

بشكل مضحك ولكنها لن تبقى هكذا إلى الأبد. ولست أرى كيف سنخسر في العقارات على مر السنين القادمة إذا اشترينا الآن، لأن الانهيار الاقتصادي سينتهي ذات يوم.

ــ «بالطبع» أجاب المبعوث البابوي. إذن لم يكن الأب دو بريكاسار دبلوماسياً فقط وإنما كان أيضاً رجل أعمال بارع. الحقيقة، من الأفضل لروما أن تراقبه بعناية.

الفصل التاسع

وبمجيء عام ١٩٣٠ عرفت دروغيدا الأزمة الاقتصادية. وتفشت البطالة في استراليا بكاملها. أما من استطاعوا من الرجال، فقد توقفوا عن دفع إيجار بيوتهم وذهبوا يفتشون عن عمل لا وجود له. أما الزوجات والأطفال فكان عليهم إعالة نفوسهم فانتقلوا يعيشون في خيام نصبت على أراضي الدولة، ويقفون في الطابور لتلقي الإعانات الحكومية، فقد كان الأزواج والآباء قد رحلوا للتسول.

كان الرجل يحزم أغراضه البائسة في غطاء ويربط زواياه الأربعة بحزام ثم يرميه فوق ظهره ويسير على الدرب آملاً على الأقل أن يقدم له أحدهم الطعام في إحدى المزارع التي يجتازها، إذا لم

يقدموا له عملاً. وكان الغوص في أعماق داخل البلاد الموحش أفضل من النوم على أرصفة سيدني.

كانت أسعار الطعام منخفضة جداً، فكدس بادي المؤن في كل خزائن دروغيدا ومستودعاتها. وهكذا يستطيع من يصل إلى دروغيدا أن يغادرها وبطنه وجعبته مليئتان. والغريب أن المشردين الذين كانوا يتدفقون على دروغيدا كانو يتجددون باستمرار، وما أن يملأوا بطونهم الخالية بوجبة طعام ساخنة، وأكياسهم بالمؤن حتى يأخذوا الدرب ثانية للبحث عما لا يعلم إلا الله وحده دون أن يحاولوا أبداً البقاء في دروغيدا. ولم يكن هناك أمكنة كثيرة سخية ومضيافة مثل دروغيدا، وذلك ما كان يزيد من الاستغراب لعدم رغبة المتسولين في البقاء هناك. ربما كان ذلك بسبب الإنهاك أو لأن هؤلاء الرجال الذين لا بيت لهم ولا مأوى كانوا بلا هدف، ولهذا فقد كانوا يتابعون سيرهم على غير هدى. وكان بعضهم ينجح في البقاء على قيد الحياة، والبعض الآخر يلاقون حتفهم ويدفنون إذا ما عثر عليهم قبل أن تنهشهم الغربان والخنازير فقد كان الداخل المدهش واسعاً جداً ومنعزلاً.

وفي هذه الظروف عاد ستوارت إلى البيت بشكل مستمر

ولم تكن البندقية تبتعد أبدا عن باب المطبخ. كان مربو المواشي وفرة، وكان عند بادي تسعة من الرجال العازبين يقطنون في الأكواخ الخاصة بالعمال، ولهذا فقد كان من السهل الاستغناء عن ستوارت في المراعي. ولم تعد «في» تترك النقود مبعثرة في كل مكان من المنزل، وصنع لها ستوارت خزانة سرية، وذلك وراء مذبح الكنيسة الصغيرة، لتودع بها النقود. كان القليل من المتسولين أشراراً لأن الأشرار كانوا يفضلون البقاء في المدن والقرى الكبيرة، لأن الحياة على الدروب كانت قاسية وموحشة، ولم يكن أمامهم فرص كبيرة للسرقة والنهب. ومع ذلك فلم يكن أحد يلوم بادي لأخذه كل هذه الاحتياطات فيما يخص النساء، فدروغيدا كان أسماً شهيراً ومن الطبيعي أن تجتذب بعض الأشقياء الذين يعبرون بقربها.

واصطحب الشتاء معه عواصف عنيفة، بعضها جاف، وبعضها ماطر، أما الربيع والصيف اللذان تبعا فقد أتيا بأمطار غزيرة جداً حتى إن العشب غدا أطول وأكثف بكثير مما كان عليه أبداً.

كان جيمس وباتسي ينكبان على دورسهما بالمراسلة

جالسين إلى الطاولة في مطبخ السيدة سميث، ويثرثران محاولين أن يتخيلا ما ستكون عليه الحياة عندما يحين الوقت لذهابهما إلى معهد ريفرفيو المدرسة الداخلية. ولكن السيدة سميث سرعان ما تغضب وتحتد من حديثهما هذا، فتعلما ألّا يتحدثا عن مغادرة دروغيدا عندما تكون السيدة سميث بقربهما.

وعاد الجفاف من جديد، ويبس العشب المرتفع الكثيف تماماً حتى تحول إلى سيقان فضية تتكسر تحت سماء الصيف الجافة. ولكن عشر سنوات قضوها في هذه السهول السوداء متأرجحين ما بين الجفاف والفيضانات كانت قد علمت الرجال إلا يعلقوا أهمية على الطقس، ولهذا فقد هزوا أكتافهم بلا اكتراث هذه المرة أيضاً وتابعوا أعمالهم اليومية كما لو كانت هي الشيء الوحيد الذي يهمهم، وكان هذا هو الواقع، فالمشكلة الأساسية كانت أن يبقى الإنسان حياً في الفترة التي تفصل سنة جيدة عن التي بعدها، مهما كانت هذه.

لم يكن من الممكن لأحد أن يتنبأ عن المطر، وكان في بريسبين رجل يدعى «اينيغو جونس» عرف بمهارته في التنبؤ عن حالة الطقس على مدى بعيد، مستعيناً بمبدأ جديد مبني على البقع

الشمسية، ولكن لم يكن في مناطق الأرض السوداء من يثق كثيراً بما يقوله جونس. دعوه يقرأ الطالع لعرائس سيدني وملبورن، أما رجال السهول السوداء فما كانوا يؤمنون إلا بذلك الإحساس القديم الذي يشعرون به في عظامهم.

وفي شتاء عام ١٩٣٢ عادت العواصف الجافة من جديد ، يرافقها برد قارس ، ولكن العشب الذي كان لا يزال كثيفاً ساعد في رد الغبار ، ولم يكن الذباب كثيراً كعادته . ولكن هذا لم يخفف عن الخراف المجزوزة حديثاً التي كانت ترتجف بتعاسة .

كانت السيدة أوبروك تعيش في منزل مبني من الأخشاب لا يميزه شيء عن غيره، وكانت تحب استقبال الزوار من سيدني ومرافقتهم كدليل سياحي ، وكانت زيارة المنزل الكبير في دروغيدا أهم ما في برنامجها السياحي، وذلك لكي تبرهن لسواحها أن هناك أشخاصاً يعيشون بترف حتى في داخل الأراضي السوداء . وكان الحديث مع الزائرين يدور دوماً حول الخرفان الهزيلة والتي تشبه الجرذان المبللة وقد تركت لتواجه الشتاء دون وقاية جزها السميكة الطويلة التي ستكون قد نبتت من جديد عند قدوم

الصيف. ولكن هذا كان يجعل الصوف أكثر جودة، كما فسر بادي لأحد الزوار. فالشيء المهم هو الصوف وليس الأغنام.

ولم يمض وقت طويل على هذه الزيارة حتى ظهر في صحيفة «سيدني مورنينغ هيرالد» مقال يطلب من النواب تشريعاً عاجلاً لوضع حد لما سماه الكاتب بـ «قسوة مربيي المواشي». ولقد أرتعبت السيدة أوبروك المسكينة ولكن بادي استغرق في الضحك حتى آلمته خاصرته:

ـ «من حسن الحظ أن هذا الغبي لم ير أحد الجزازين يمزق بطن خروف ثم يخيطها بإبرة تستخدم عادة في خياطة بالات الصوف» قال محاولاً التخفيف عن السيدة أوبروك. «لا يستحق ذلك أن تزعجي نفسك يا سيدة دومينيك، فسكان المدن لا يعلمون كيف يعيش النصف الآخر في الأرياف، ولهذا فإن باستطاعتهم أن يسمحوا لأنفسهم بتدليل حيواناتهم كما لو كانت أولادهم. أما هنا فالأمر مختلف، ولن تري أبداً رجلاً أو امرأة أو طفلاً يُهمَل وهو بحاجة إلى المساعدة. أما في المدينة فهؤلاء الأشخاص أنفسهم الذين يدللون قططهم وكلابهم يغلقون آذانهم عن سماع نداء الاستغاثة الذي تطلقه مئات الكائنات البشرية من حولهم».

ورفعت « في » عينيها :

ـــ إنه على حق يا سيدة دومينيك . إننا نحتقر كل ما نجده بوفرة ، والخرفان كثيرة هنا ، أما في المدينة فالبشر كثرة .

○

وفي يوم من أيام آب كان بادي وحده في الخارج عندما بدأت العاصفة . فترجل عن فرسه وربطها إلى جذع شجرة ثم جلس ينتظر مرور العاصفة تحت شجرة ويلغا . وكانت كلابه الخمسة ترتعش خوفاً وقد تكومت بالقرب منه بينما الأغنام التي كان ينوي نقلها إلى مرعى آخر قد تبعثرت في مجموعات صغيرة نافرة وهي تركض على غير هدى في كل الاتجاهات . كانت العاصفة هائلة وقد بلغت أسوأ ثورتها عندما أصبح مركز الدوامة فوق رأس بادي مباشرة ، فوضع يديه على أذنيه وأغمض عينيه وأخذ يصلي .

وغير بعيد عن المكان الذي كان يجلس فيه وقد تدلت حوله أغصان الويلغا وهي تتضارب في الريح المتصاعدة ، كانت هناك كومة من الأحطاب والجذوع الميتة تحيط بها أعشاب طويلة . وفي وسط هذه الكومة البيضاء الكالحة انتصبت شجرة صمغ ضخمة

يابسة، يرتفع جذعها العاري إلى اثنتي عشر متراً نحو الغيوم السوداء كالليل التي كانت تدور حول قمة الشجرة فتشحذها شحذاً وتحولها إلى سنان حاد.

ورغم جفنيه المطبقين أحس بادي بنار زرقاء متوهجة تخز عينيه فقفز على قدميه ولكنه سقط لتوه على الأرض كدمية من القش وقد تلقى ضربة قوية رافقها انفجار ودوي هائلان. ورفع رأسه قليلاً عن التراب وجاذف بإلقاء نظرة حوله فرأى آخر شعاع من أشعة الصاعقة المتوهجة يضيء كهالة ملونة بالأزرق والأحمر حول ما تبقى من جذع شجرة الصمغ المتيبسة. وعندها، وبسرعة هائلة حتى أنه لم يستطع أن يميز ما يحدث اشتعلت النار في كل شيء حوله. كانت آخر قطرة من الماء قد تبخرت منذ زمن بعيد من أنسجة الأحطاب المقطوعة، والأعشاب قد جفت في كل مكان فأصبحت كالورق. وجاء جواب الأرض يتحدى السماء، فقذفت الشجرة العملاقة بعمود من اللهب بعيداً جداً، أبعد من قمتها، وفي اللحظة نفسها ارتفعت الأعشاب والأحطاب الميتة من حولها في دائرة نارية أخذت تتسع وتتسع وهي تسبح في الريح، وتدور، تدور، تدور. ولم يتمكن بادي من الوصول إلى حصانه.

كانت شجرة الويلغا الجافة قد اشتعلت، وأدّى السائل الصمغي في داخل جذعها إلى انفجاره. وارتفعت ألسنة اللهب حول بادي من كل الجهات. كانت الأشجار تشتعل بوحشية والعشب تحت قدميه يحترق مزمجراً، وكان باستطاعته أن يسمع صراخ جواده وقلبه يتقطع من أجله. لم يكن بإمكانه أن يترك الحيوان المسكين يموت وهو مقيد وعاجز. وعوى كلب وانقلب عواؤه إلى صراخ ألم كصراخ الإنسان. وظهر الحيوان المحترق لحظة وكأنه يرقص مثل مشعل حي، ثم سقط في العشب المتأجج. وتعالى العواء أكثر بينما كانت الكلاب الأخرى تهرب محاطة بالنار الجارية تدفعها الريح فتركض أسرع من كل كائن ذي أرجل أو أجنحة. وضرب شعره شهاب مشع عندما وقف على قدميه لأقل من ثانية كي يرى أفضل طريقة للوصول إلى الجواد. وعندما نظر إلى الأرض رأى ببغاء يُشوى عند قدميه.

وفجأة فهم بادي أن هذه كانت نهايته، فلم يكن هناك مجال للخروج من هذا الجحيم، لا له، ولا لجواده. وفي اللحظة التي راودته بها هذه الفكرة انبعث اللهب من شجرة يابسة خلفه وانتشر في كل الاتجاهات، كانت العصارة الصمغية قد انفجرت.

وتغضن الجلد على ذراعي بادي وأسوّد، وقد بدا لون شعره الأحمر باهتاً بقرب كل هذا اللهب. والموت بهذه الطريقة شيء لا يمكن وصفه، فالنار تزحف وتشق طريقها من الخارج نحو الداخل، وآخر الأعضاء التي تصل إليها هي الدماغ والقلب فتلتهمهما وتحولهما إلى عدم. واشتعلت ثيابه، وأخذ بادي يتخبط وهو يصرخ ويصرخ وسط المحرقة. وكل صرخة من صرخاته المرعبة كانت اسم زوجته.

○

كان الرجال الآخرون كلهم قد عادوا إلى المنزل قبل العاصفة، فربطوا خيولهم في الاسطبلات وتوجهوا إمّا إلى البيت الكبير أو إلى أكواخ العمال. وجلس الشباب في غرفة الاستقبال المشعة بالأضواء حول جذع كبير يتأجج في المدفأة الرخامية، يصغون إلى العاصفة دون أن يشعروا بالرغبة في الخروج للتفرج. كانت رائحة الخشب المشتعل الطيبة النفاذة وأكوام الشطائر والحلوى على مائدة الشاي مغرية جداً، ولم يتوقع أحدهم أن ينجح بادي في العودة إلى المنزل.

○

وحوالي الساعة الرابعة، ابتعدت الغيوم نحو الشرق وتنفس الجميع الصعداء، فقد كان من المستحيل الاسترخاء حين تهب عاصفة جافة رغم وجود الحراب الواقية من الصواعق فوق كل أبنية دروغيدا. ونهض جاك وبوب وخرجا ليستنشقا قليلاً من الهواء النقي، على حسب قولهما، ولكنهما كان يريدان في الواقع أن يبددا مخاوفهما.

ــ «انظر» قال بوب وهو يشير إلى الغرب.

وفوق الأشجار التي كانت تحيط بالحوش المركزي كان حجاب قاتم كثيف من الدخان يمتد ويبدو أنه يزداد اتساعاً بين ثانية وثانية، وكانت أطرافه الممزقة تندثر في الهواء كأعلام خفاقة.

ــ «يا يسوع الرب!» صاح جاك وهو يركض داخلاً متجهاً صوب الهاتف.

ــ «النار، النار!» صاح في السماعة بينما استدار الباقون في الغرفة لينظروا إليه وقد فغروا أفواههم، ثم أسرعوا إلى الخارج للتأكد بأنفسهم.

ــ «النار في دروغيدا، وهي ضخمة».

ثم وضع السماعة مكانها. كان هذا كل ما عليه أن يقوله

إلى موظف الهاتف في جيللي ولكل هؤلاء الذين يلتقطون سماعاتهم على طول الخط ما أن يسمعوا رنة من رنين الهاتف . ورغم أن الحرائق لم تندلع في مقاطعة غيللي منذ قدوم آل كليري إلى دروغيدا ، فقد كان كل منهم يعرف ما يجب عمله .

وهرع الشبان إلى جيادهم ، واندفع العمال ومربو الماشية من أكواخهم بينما فتحت السيدة سميث باب أحد مستودعات المؤونة وأخذت توزع عشرات من الأكياس الخيشية . كان الدخان يرتفع من الغرب والريح تهب من تلك الناحية ، وهذا يعني أن النار كانت متجهة صوب البيت الكبير وخلعت « في » تنورتها الطويلة ولبست أحد بنطالات بادي ثم ركضت مع ميغي إلى الاسطبلات ، فقد كانوا بحاجة إلى كل يد يمكنها أن تحمل كيساً .

وفي المطبخ أضرمت السيدة سميث النار في الفرن وبدأت الخادمات بإنزال القدور الكبيرة التي كانت معلقة في السقف .

ــ « من حسن الحظ أننا قد ذبحنا عجلاً أمس » قالت مدبرة البيت . « ميني ، خذي مفتاح خزانة المشروب واذهبي مع كات واحضرا كل البيرة والروم التي بإمكانكما حملها . وبعد ذلك

عليكما البدء بصنع الخبز بينما أطبخ اللحم. هيا بسرعة، بسرعة».

أما الخيول فكانت قلقة بسبب العاصفة، وكانت قد شمت رائحة الدخان وأصبح من الصعب إسراجها. وقادت ميغي و«في» الجوادين الأصيلين إلى الخارج حتى تسهل تهدئتهما، وكانا يمانعان ويقاومان. وبينما كانت ميغي تتخبط مع الفرس الكستنائية، برز على الطريق القادمة من جيللي متشردان يجريان:

ــ النار يا سيدتي، النار. هل عندك زوج من الأحصنة الإضافية؟ وبعض الأكياس.

ــ اذهبا من هذه الجهة، إلى الأسفل قليلاً، إنها في الدار. يا إلهي، أرجو ألّا يكون أحد قد سجن في هذه المحرقة.

قالت ميغي وهي لا تعلم أين كان أبوها.

وقبض الرجلان على أكياس الخيش وعلى قربتين من السيدة سميث. كان بوب والرجال قد ذهبوا منذ خمسة دقائق، وتبعهما المشردان، وكانت «في» وميغي آخر من ذهب، فتوجهتا إلى الجدول وعبرتاه، ثم انطلقتا نحو مصدر الدخان.

ووراءهم كان توم البستاني قد انتهى من ملء خزان الشاحنة بالماء من المضخة، ثم أدار المحرك. ليس لأن أية كمية من الماء كانت كافية لإخماد نار بهذا الانتشار، اللهم إلا سيل من السماء، ولكن ربما احتاج الرجال هناك لتبليل أكياسهم أو لرش من يحمل هذه الأكياس.

وبينما كان يضع السيارة على السرعة الأولى لكي يتسلق ضفة الجدول نظر وراءه لحظة نحو بيت القيّم المهجور والبيتين الفارغين أيضاً وراءه، كان ذلك نقطة الضعف بالنسبة للبيت الكبير، فهو المكان الوحيد المبني بمواد مشتعلة، وقد كان ملاصقاً للأشجار على ضفة الجدول البعيدة، ويمكن لهذه أن تشتعل وتشعله. ونظر العجوز توم إلى جهة الغرب وهزّ برأسه وقد اتخذ قراراً سريعاً واستطاع أن يرجع الشاحنة عبر الجدول ويصعد إلى الضفة الأخرى وهو يقود إلى الوراء. لن يكون باستطاعتهم إخماد النيران في المراعي، وسيعودون. وعند رأس الأخدود، وقرب منزل القيّم تماماً، ربط توم الأنبوب الغليظ إلى خزان الشاحنة وأخذ يرش البيت بالماء حتى أشبعه، ثم تجاوزه إلى المنزلين الصغيرين المجاورين فرشهم بالماء أيضاً. وهذا أفضل ما كان بإمكانه القيام به، تبليل هذه البيوت حتى لا تمتد النار إليها.

وبينما كانت ميغي تسير بمحاذاة «في»، كانت الغيوم المهددة في الغرب تتضخم وتتضخم، ورائحة الحرائق التي يحملها الهواء تتعاظم. كانت الظلمة تزداد وتتكاثف أعداد الحيوانات الهاربة نحو الشرق عبر المراعي. مئات من الكناغر والخنازير البرية، وقطعان الغنم والبقر المذعورة، والأمو والدببة الصغيرة والأرانب باللآلاف؛ وكان بوب قد ترك البوابات مفتوحة وقد لاحظتها الحيوانات ولكن الخراف كانت غبية جداً، فكانت تصل أمام السياج وتتوقف على بعد بضعة أقدام من البوابة دون أن تراها.

كان الحريق قد انتشر على خمسة عشر كيلومتراً عندما بلغه الرجال كما كان يمتد عرضياً على جبهة تزداد اتساعاً في كل ثانية، وكان العشب الجاف والريح القوية ينقلانه من دغل إلى دغل. وأوقف الرجال خيولهم الخائفة المترددة، ونظروا بيأس نحو الغرب. لم يكن هناك من فائدة في محاولة إيقاف النار عند هذا الحد، وكان جيش بكامله يعجز عن هذا. ولم يكن أمامهم سوى العودة نحو البيت الكبير ومحاولة حمايته على قدر استطاعتهم. كانت جبهة النار تمتد على عرض سبعة كيلومترات، وإذا لم يتراجعوا بجيادهم فستلحقهم النار هم أيضاً. ذلك مؤسف بالنسبة للأغنام. ولكن ما العمل!

كان توم العجوز لا يزال يرش البيوت قرب الجدول عندما ظهروا عبر الطبقة المائية الطفيفة التي تغطي المعبر.

ــ «أحسنت يا توم» صاح بوب. «تابع عملك حتى لا يبقى بإمكانك تحمل درجة الحرارة، ولكن اهرب قبل أن يفوت الأوان، هل تسمعني؟ لا أريد بطولات فارغة، فحياتك أهم من بعض قطع من الخشب والزجاج».

كانت أرض البيت الخارجية مليئة بالسيارات، وعلى الطريق المؤدية إلى غيللي كان هناك أضواء سيارات أخرى قادمة تتعثر، وكان هناك عدد ضخم من الرجال بانتظارهم عندما توقف بوب في الدار أمام الاسطبلات.

ــ «ما مدى انتشار النار يا بوب؟» سأله مارتن كنغ.

ــ «إنها أكبر من أن نستطيع مقاومتها، على ما أظن». قال بوب بلهجة يغمرها اليأس. «إني أقدر عرضها بسبعة كيلومترات، وبوجود هذه الرياح فإنها تتقدم بأقصى من سرعة فرس تعدو. لست أدري إن كان بإمكاننا إنقاذ المنزل الكبير، ولكني أعتقد أن هوري قد استعد للدفاع عن بيته، لأني لا أدري كيف سنوقف النار عن التقدم.

ــ حسناً، لقد تأخرنا في المجيء، ومنذ زمن طويل لم يحصل حريق كبير هنا، فآخرها كان في عام ١٩١٩. سوف آخذ فريقاً كبيراً إلى بيل ــ بيل، نحن هنا عديدون وسيأتي آخرون أيضاً، فباستطاعة غيللي أن ترسل ما يقارب الخمسمئة شخص لمقاومة النيران. وسيبقى بعضنا هنا لمد يد المساعدة. إني أشكر الله لأن أرضي في الغرب من دروغيدا، هذا كل ما يمكنني قوله.

وكشر بوب عن أسنانه مبتسماً:

ــ إنك تطمئننا يا مارتن.

ونظر مارتن حوله:

ــ أين والدك يا بوب؟

ــ إلى الغرب من النار، مثل بوغيلا. لقد ذهب إلى ويلغا ليجمع الأغنام التي ستضع، واعتقد أن ويلغا تقع على بعد سبعة كيلو مترات من المكان الذي بدأت فيه النار.

ــ أليس من أحد آخر تقلق عليه؟

ــ كلا، شكراً للسماء.

وفكرت ميغي وهي تدخل البيت أنهم يعيشون في حالة

تشبه حالة الحرب، إذ كان عليهم مراقبة تحركاتهم، وتأمين الطعام والشراب، والاحتفاظ بالشجاعة والقوة، ومن ثم فقد كانوا مهددين بالكارثة في أية لحظة. وتوافد رجال جدد لحقوا بالآخرين في الحوش الأوسط وأخذوا بقطع الأشجار القليلة التي كانت تنمو على ضفة الجدول، وكل الأعشاب الطويلة القريبة. وتذكرت ميغي كيف فكرت يوم وصولهم أن الحوش الأوسط سيكون أجمل بكثير لو كان مشجراً، فقد كان يبدو عارياً وحزيناً. والآن فهمت السبب، فالحوش الأوسط ما كان إلا حلقة ضخمة لقطع الطريق على النار.

كان الجميع يتحدثون عن الحرائق التي عرفتها غيللي خلال وجودها الذي لم يتجاوز السبعين عاماً. والغريب أن النيران لم تكن تشكل خطراً كبيراً أثناء فترات الجفاف الطويلة، حيث تكون المواشي قد أكلت كل الأعشاب، وما تبقى لا يكفي لتأجج النار وامتدادها. أما في أوقات كهذه، بعد سنة أو سنتين من الأمطار الغزيرة، فقد كان العشب يكبر ويتكاثف، وعندها كانت غيللي تعرف الحرائق الكبيرة التي كانت تمتد أحياناً على مئات الكيلومترات، ولم يكن من الممكن السيطرة عليها.

وترأس مارتن كنغ الثلاثمئة الرجل الذين بقوا لحماية

دروغيدا، فقد كان أقدم مربي المواشي في المقاطعة، وقد اعتاد على مقاومة الحرائق خلال أكثر من خمسين عاماً.

وقال مارتن كنغ:

ــ إن عندي ستين ألف هكتار من الأراضي في بوغيلا، وفي عام ١٩٠٥ التهمت النيران كل ما أملكه من قطعان وأشجار، ولقد قضيت خمسة عشر عاماً حتى وقفت من جديد على قدمي، وكنت أظن أني لن أتوصل لذلك أبداً لأن أسعار الصوف لم تكن جيدة في تلك الأيام ولا أسعار الأبقار.

كانت الريح لا تزال تعوي ورائحة الحريق تملأ الجو. كان الظلام قد حل ولكن السماء من الجهة الغربية كانت تشع بضوء جهنمي، وبدأ الدخان المنخفض يسبب لهم السعال. وبعد ذلك بفترة غير طويلة رأوا ألسنة اللهب العريضة وهي تقفز وتتلوى على ثلاثين متراً خلف الستار الدخاني، وارتفعت زمجرة تصم الآذان كصراخ جمهور غفير متحمس في ميدان كرة قدم. واشتعلت الأشجار في الجهة الغربية من الحوش المركزي، وتعالى اللهب الناري كألواح صلبة. وبينما كانت ميغي تنظر مشلولة وهي واقفة على شرفة المنزل، كانت ترى خيالات قزمة ترتسم على الستار الناري وهي تقفز وتضرب الهواء بأيديها.

ــ ميغي، تعالي ورتبي هذه الأطباق في الخزانة يا فتاة، لسنا في نزهة، هل تعلمين هذا؟

كان هذا صوت أمها، واستدارت رغماً عنها.

بعد ذلك بساعتين عاد الفريق الأول من الرجال منهكين، ودخلوا وهم يترنحون لتناول لقمة من الطعام، وارواء ظمأهم، واستجماع أشلاء قوتهم قبل أن يعودوا ثانية إلى القتال. وقد كدحت النساء طوال الوقت لملء هذه المهمة وليتأكدن من أن هناك ما يكفي من اللحم المطبوخ والخبز، ومن الشاي والروم والبيرة لثلاثمئة رجل. فعندما يشب حريق كان على كل منهم أن يفعل أفضل ما يمكنه، وهذا يعني أن على النسوة إعداد الطعام للمحافظة على قوة الرجال الجسدية. وفرغت صناديق تلو صناديق من المشروب، وحلت محلها صناديق جديدة. وكان الرجال سوداً من الهباب ويترنحون إرهاقاً، وقد وقفوا يعبون الشراب ويحشون أفواههم بالخبز واليخنة عندما تبرد هذه، ثم يتجرعون كؤوساً مليئة بالروم، وينطلقون خارجاً من جديد.

وفي رواحها ومجيئها إلى المطبخ، كانت ميغي تراقب النار مذهولة مرتعبة. كان للنار جمال من نوع خاص، جمال يفوق أي

شيء أرضي، لأنها كانت شيئاً من السماوات والشموس البعيدة التي يصل ضوؤها بارداً إلينا، شيء من الله ومن الشيطان. كانت جبهة النار قد تقدمت نحو الشرق فأحاطت بسكان دروغيدا من كل الجهات. وبدأت ميغي تميز تفاصيل لم تكن جبهة النيران المهزوزة تسمح لها برؤيتها من قبل. كان هناك خليط من الألوان، منها الأسود والبرتقالي، ومنها الأحمر والأبيض أو الأصفر، وارتسم خيال شجرة طويلة أسود، تحيط به قشرة برتقالية اللون تغلي وتتوهج، وارتفعت جذوات حمراء تسبح في الفضاء وتدور على نفسها كأشباح تمرح في الجو، وكان قلب الأشجار المحترقة المتعب يلهث فيرسل تنهدات صفراء، ويتساقط رشاش من الشرر القرمزي وهو يلف على نفسه بينما تنفجر شجرة من أشجار الصمغ، وتلحس ألسنة برتقالية وبيضاء شيئاً قاومها حتى ذلك الوقت فلا يلبث أن يلقي بكيانه في اللهب. آه، نعم. كان المنظر رائعاً في الليل، وستبقى ذكراه في مخيلة ميغي مدى حياتها.

وارتفعت سرعة الريح فجأة مما دفع النساء إلى تسلق سطح الشرفة الحديدي مستعينات بأغصان الوستاريا المتلوية لأن الرجال كانوا مشغولين في الحوش، وحملن معهن أكياساً مبللة وقد لذعت

الحرارة ركبهن وأيديهن رغم القماش المبلل، ثم أخذن يطفئن الجمر الذي تساقط على السطح المحمي، وكن يخشين أن يتداعى السقف بفعل الحرارة ويرمي قطعاً ملتهبة على الأعمدة الخشبية التي تحمله. ولكن الجزء الأعظم من الحريق كان على بعد خمسة عشر كيلو متراً إلى الشرق من بيل ــ بيل.

كان المنزل الرئيسي في دروغيدا واقعاً على بعد خمسة كيلومترات من الحدود الشرقية للأرض، وهي أقربها إلى غيللي، وبيل ــ بيل بقربه. ووراء ذلك، وإلى الشرق كان هناك «نارنغانغ»، وعندما ارتفعت سرعة الريح إلى ثمانين كيلومتراً في الساعة، فهمت المقاطعة بأكملها أن لا شيء إلا المطر يستطيع أن يوقف الحريق الذي سيستمر أسابيع بأكملها ويحول مئات من الأمتار المربعة من أجود الأراضي إلى صحراء قاحلة.

وطوال الوقت الذي بلغ في الحريق أعنفه، قاومته المنازل التي بقرب الجدول، وذلك بفضل توم الذي كان كمن مسه الشيطان يملأ خزان الشاحنة ويرشه على المنازل، ثم يعود ليملأه ويرشها ثانية وهكذا. ولكن ما أن تسارعت الريح حتى مست تلك المنازل واضطر توم إلى التراجع في شاحنته وهو ينتحب.

ـــ «من الأفضل أن تخر على ركبتيك وتشكر الله أن الرياح لم تتسارع حين كانت جبهة النيران إلى الغرب منا» قال مارتن كنغ. «ولو حدث هذا، لكان المنزل الكبير قد احترق ونحن معه أيضاً. أيها الرب المسيح، آمل أن يكونوا بخير في بيل ـــ بيل».

ومدت له «في» كأساً كبيرة مترعة بالروم، ولم يكن شاباً، ولكنه قاوم كما يجب، وأدار العمليات بيد معلم.

ـــ «ربما كنت غبية» قالت «في». ولكنه عندما بدا وكأن كل شيء قد ضاع، هاجمتني أسخف الأفكار. لم أفكر بالموت أو بالأولاد، ولا بالبيت الجميل وقد تهدم. والشيء الوحيد الذي كان بإمكاني أن أفكر به هو سلة الخياطة وشغلي الصوفي الذي لم أنهه بعد، وعلبة الأزرار التي كنت أخبئها خلال سنوات، وقالب الحلوى الذي صنعه لي فرانك منذ سنوات طويلة على شكل قلب. كيف كنت سأعيش بدون هذه الأشياء؟ كل هذه الأشياء الصغيرة، كما تعلم، الأشياء التي لا يمكن الاستعاضة عنها بغيرها أو شراءها من مخزن».

ـــ «الواقع أن أغلب النساء يفكرن بهذه الطريقة نفسها. وهذا

مضحك، أليس كذلك؟ إني أتذكر زوجتي وهي تركض عائدة إلى البيت وأنا أجري وراءها صارخاً كالمجنون لأنها أرادت أن تنقذ إطاراً خشبياً وعليه قطعة قماش كانت تطرزها، كان ذلك عام ١٩٠٥». وابتسم. «ولكننا خرجنا قبل فوات الأوان، وتهدم البيت. وعندما بنيت المنزل الجديد، كان أول ما فعلته هو أنها أنهت تطريزها، وهو من تلك الأشغال القديمة الطراز، إنك تعلمين ما أقصد، وقد رسم عليه عبارة «بيتي، يا بيتي الجميل». ووضع كأسه على الطاولة وهو يهزّ رأسه من تصرفات النساء العجيبة. «والآن علي أن أذهب، فإن «غارث ديفيز» سوف يحتاجنا في «نارنغانغ»، وإذا لم أكن مخطئاً في ظني فلن يمر وقت طويل حتى يحتاجنا أنغوس في «رودنا هاينيش» أيضاً».

وشحب وجه «في» وهي تسأله:

ــ آه يا مارتن، هل ستمتد النار إلى هناك؟

ــ لقد سمعت ذلك على التو يا «في»، إن بورو وبورك مهددتان.

وبقيت النار تزحف نحو الشرق ثلاثة أيام بكاملها وجبهتها تزداد اتساعاً، وتبعتها أمطار غزيرة كالشلالات، ظلت تتساقط

أربعة أيام تقريباً فأطفأت آخر جمرة. ولكن الحريق كان قد امتد على مئة وستين كيلو متراً تاركاً وراءه ممراً مكلساً أسود يبلغ عرضه الثلاثين كيلومتراً، ويمتد من منتصف أراضي دروغيدا إلى حدود آخر أرض في جيللانبون نحو الشرق، إلى « رودنا هانييش ».

وإلى أن بدأ المطر بالهطول لم يتوقع أحد منهم خبراً من بادي لأنهم كانوا يعتقدون أنه بأمان في الجهة الأخرى من المنطقة المحروقة وقد منعته حرارة الأرض التي ما زالت أشجارها تدخن من العودة إلى البيت. ولو لم تكن النار قد أحرقت خطوط الهاتف، « فكر بوب »، لكان مارتن كنغ قد اتصل بهم لأنه كان من المنطقي أن يذهب بادي لجهة الغرب ليلتجىء في منزل بوغيلا. ولكن بعد أن سقطت الأمطار ست ساعات متواصلة ولم تصدر عنه أية إشارة، بدأ القلق يساورهم. وظلوا يطمئنون أنفسهم باستمرار خلال أيام أربعة ويقولون أنه ليس هناك ما يدعو للقلق، وأن بادي بلا شك محبوساً في الجهة الأخرى وقد قرر أن ينتظر حتى يستطيع أن يتوجه مباشرة إلى بيته بدلاً من الذهاب إلى بوغيلا.

ــ « لا بد أنه في طريقه الآن » قال بوب وهو يروح ويجيء في غرفة

الاستقبال بينما الآخرون يراقبونه، والمضحك في كل هذا أن المطر كان قد حمل معه البرد القارس، ومن جديد اشتعلت النار وتوهجت في المدفأة الرخامية.

ـ «أظن أن الوقت قد حان للبحث عنه، ربما كان قد أصيب، وربما كان عائداً على قدميه وأمامه طريق طويل قبل أن يصل إلى البيت، ربما ذعر جواده فرماه، ولا يزال ملقى في مكان ما لا يستطيع السير. كان قد حمل معه طعاماً يكفيه لليلة واحدة، ولكنه لا يكفي لأربعة أيام، إنما لن يموت جوعاً ومن الأفضل ألاّ نبالغ في ذلك الآن ولذا فلن أنادي الرجال من نارنغانغ حالياً. ولكن إذا لم نكن قد وجدناه عند حلول الظلام فسأذهب لرؤية دومينيك ومن الغد يقوم كل سكان المقاطعة بالبحث عنه. يا إلهي لو كان بالإمكان إصلاح خطوط الهاتف حالاً!

كانت «في» ترتجف وعيناها تلتهبان بالحمى كحيوان متوحش.

ـ سأرتدي بنطالاً واذهب معك، لن أستطيع تحمل البقاء هنا والانتظار.

ـــ « ابقي في البيت يا أماه » . توسل إليها بوب .

ـــ ربما كان قد أصيب في مكان ما من جسمه يا بوب . ربما تكون إصابته بليغة . لقد أرسلت العمال إلى نارنغانغ وبهذا ليس عندنا عدد كاف من الرجال للبحث عنه ، فلو ذهبت أنا وميغي فبإمكاننا سوية أن نتصرف لمواجهة كافة الاحتمالات ، أما إذا ذهبت ميغي لوحدها ، فستضطر أن ترافق واحداً منكم وهذا ينقص عدد الباحثين الفعليين ، هذا عدا عني أنا » .

وأسلم بوب بالأمر .

ـــ حسناً إذن . خذي جواد ميغي الذي ركبته عند بدء الحريق ، ولتأخذ كلا منكما بندقية وذخيرة كافية .

وقادوا خيولهم عبر الجدول إلى قلب المنطقة المنكوبة . لم يكن قد بقي شيء واحد أخضر أو بنيّ في أي مكان ، لم يكن هناك إلا أرض شاسعة رخوة مليئة بالفحم الأسود الذي كان لا يزال يتبخر بعد ساعات وساعات من المطر ، وهذا صعب التصديق ، فقد تحولت كل شجرة إلى شذرة يابسة متكورة ، وفي المكان الذي كان ينبت به العشب ، كانوا يستطيعون رؤية أكوام

سوداء صغيرة ملقاة هنا وهناك، نعجة لحقتها النيران، أو كومة أكبر لثور أو لخنزير. واختلطت الدموع بالمطر على وجوههم.

وقاد بوب وميغي الحشد الصغير، وفي الوسط مشى جاك وهوغي يتبعهما ستو و«في» في المؤخرة. وكان هذان الأخيران يتقدمان بهدوء وقد استراحا لوجودهما مع بعض، بدون كلام، وشعر كل منهما بالاطمئنان لوجود الآخر بقربه. وأحياناً كانت الخيول تقترب من بعضها البعض أو تقفز متفرقة وقد أذعرتها رؤية إحدى الفظائع، ولكن هذا لم يكن يؤثر على هدوء الراكبين الآخرين. وكان الوحل يعيق تقدم الخيل ويجعله صعباً ولكن الأعشاب المتكتلة المنغرزة في الأرض كانت تشكل نوعاً من السجاد المنسوج بالحبال يسهل حركة الخيول. وكلما تقدموا بضع خطوات كانوا يتوقعون أن يروا بادي يبرز على الأفق ولكن الوقت كان يمر ولم يظهر بادي. وأدركوا وقلوبهم تغوص في أعماقهم أن النار قد بدأت في مكان أبعد مما كانوا يتخيلون، في مرعى الويلغا. ولا شك أن غيوم العاصفة كانت قد حجبت الدخان إلى أن تقدمت النار بعيداً. وكان الخط الفاصل ما بين المنطقتين مدهشاً، فمن جهة من الخط الشديد الوضوح كانت الأرض سوداء تلمع

كالقار الأسود، ومن الجهة الأخرى امتدت الأرض التي عرفوها دائماً، صهباء مزرقة، وحزينة تحت المطر، ولكنها مليئة بالحياة.

وتوقف بوب ليناقش الأمر مع الآخرين:

ـ «حسناً، سوف نبدأ من هنا. سأتوجه إلى الغرب اعتباراً من هذه المنطقة. إنها الجهة التي أتوقع أن أجد بها شيئاً، ثم إني أنا الأقوى. هل حمل كل منكم ما يكفي من الذخيرة؟ حسناً. إذا وجدتم شيئاً فاطلقوا ثلاث طلقات في الهواء، ومن يسمع هذه الطلقات يجيب بطلقة واحدة، ثم انتظروا. ومن أطلق الطلقات الثلاث الأولى، عليه أن ينتظر خمس دقائق ثم يطلق ثلاث طلقات أخرى وينتظر ليعاود الكرة بعد خمس دقائق أخرى. ومن يسمع يطلق جواباً، طلقة واحدة».

«جاك، اذهب إلى الجنوب بمحاذاة خط النار، وسيذهب هوغي إلى الجنوب الغربي. أما أنا فسأذهب نحو الغرب، والوالدة وميغي نحو الشمال الغربي. ستو، اتبع خط النار نحو الشمال. وأرجوكم أن تتقدموا ببطء فالمطر لا يسهل العملية والرؤية صعبة إلى البعيد كما أن هناك الكثير من الأشجار المحروقة الملقاة على الأرض. وليناد كل منكم غالباً، فبالإمكان

أن نسمع بعضنا دون أن نرى بعضنا . ولكن تذكروا ، لاتطلقوا النار إلا إذا وجدتم شيئاً لأن الوالد لم يكن يحمل بندقية ، فلو سمع صوت الطلقة ولم يستطع الإجابة سيكون الأمر قاسياً جداً عليه » .

« حظاً سعيداً وليوفقكم الله » .

وكالحجاج على مفرق طرق تفرقوا كل منهم إلى جهة تحت المطر المتساقط وقد أخذوا يبتعدون شيئاً فشيئاً عن بعضهم ويصغر حجمهم كلما ابتعدوا حتى اختفوا كل على طريقه .

كان ستوارت قد قطع أكثر من كيلو متر عندما لاحظ أن أحد أدغال الأشجار المحترقة كان قريباً جداً من خط النار ، وكان هناك شجرة ويلغا صغيرة وقد اسودت وتجعدت كشعر زنجي صغير ، وبقربها بقايا جذع طويل لا يزال منتصباً غير بعيد عن حدود منطقة الحريق . وكان حصان بادي هو أول ما رآه ، وقد انهار والتحم بجذع شجرة صمغ ضخم ، واثنان من كلاب بادي ، كرات صغيرة سوداء انتصبت قوائمها نحو السماء وتيبست كالعصي . وترجل عن فرسه وقد انغرزت جزمته إلى الكاحل في الوحل ، وتناول بندقيته من جيب السرج . وتحركت شفتاه في

صلاة صامتة بينما كان يشق طريقه عبر الوحل اللزج متوجهاً صوب أكوام الفحم. ولو أنه لم ير الفرس والكلاب لظن أن هذا كان أحد المتسولين أو العابرين وقد أسَرَته النيران وأحرقته. ولكن بادي كان قد خرج راكباً حصانه وكان معه خمسة كلاب، ولم يكن المتسولون يركبون أحصنة ولا يصطحبون أكثر من كلب واحد. وهذه الأرض كانت داخل دروغيدا ولا يمكن أن يفكر الإنسان بقائد ماشية يعبرها أو بمزارع آت من بوغيلا.

وعلى مقربة كان هناك كلاب محترقة، خمسة منها، خمسة كلاب. وعلم أنه لن يجد كلباً سادساً، ولم يجد.

وغير بعيد عن الحصان، وراء جذع شجرة، كانت هناك بقايا إنسان. لم يكن هناك مجال للخطأ. كان الشيء الأسود مستلقياً على قفاه، يلمع ويبرق تحت المطر، وكان ظهره محنياً كقوس صلب مشدود من وسطه نحو الأعلى ولا يلامس الأرض إلاّ بمؤخرته وكتفيه. كانت الذراعان مفتوحتين ومقوستين عند المرفقين وكأنهما تتوسلان إلى السماء، والأصابع، وقد تساقط اللحم حولهما وبانت عظامهما المكلسة، قد تكبلت محاولة أن تقبض على لا شيء. أما الساقان فقد انفرجتا وانطوتا عند الركبة أيضاً، وبقايا الرأس تنظر نحو السماء بلا عينين.

وتوقف نظر ستوارت الصافي النفاذ على والده برهة ورأى، ليس الغلاف المحطم، وإنما الرجل كما كان طوال حياته. وصوب بندقيته نحو السماء وأطلق عياراً، وعبأها، وأطلق ثانية، وعبأها وأطلق الطلقة الثالثة. وسمع في البعيد طلقة خافتة تجيبه، وبعدها ومن مسافة أبعد، جواب آخر، ضعيف جداً هذه المرة. وعندها تذكر أن الطلقة الأولى القريبة، ربما كانت من أمه وأخته، فقد كانتا في الشمال الغربي وهو إلى الشمال. وقبل أن ينتظر الدقائق الخمس المتفق عليها، وضع طلقة أخرى في البندقية وصوّبها نحو الجنوب وأطلقها، ثم توقف قليلاً وأطلق الرصاصة الثانية، وبعدها الثالثة.

وألقى سلاحه على الأرض ووقف ينظر نحو الجنوب وقد أحنى رأسه، يصغي. وفي هذه المرة أتاه الجواب الأول من الغرب، طلقة بوب، والثاني من جاك وهوغي، والثالث من أمه. وتنهد بارتياح، فلم يكن يريد أن تصل النساء قبل الآخرين.

وهكذا لم ير الخنزير البري الضخم يخرج من بين الأشجار في الجهة الشمالية، وشم رائحته. كان بحجم الثور، وكانت جثته الضخمة تترنح وتتدحرج على قوائم جبارة قصيرة بينما كان يتقدم خافض الرأس، باحثاً بخشمه في الأرض السوداء المبللة. كانت

الطلقات النارية قد أزعجته وآلمته، والشعيرات السوداء القليلة على خاصرته قد احترقت وبان الجلد من تحتها أحمر، والرائحة التي شمها ستوارت عندما كان ينظر نحو الجنوب لم تكن إلا رائحة الخنزير الطيبة عندما يخرج من الفرن مشوياً مغلفاً بقشرته المحمصة الشهية.

وأخرجته المفاجأة من الحزن الهادىء الغريب الذي كان يعيش فيه دائماً، ودارت رأسه بينما كانت فكرة غريبة تجتاح ذهنه: لقد جاء إلى هذا المكان من قبل، في زمن آخر، وقد انطبعت صورة هذه الأرض السوداء الموحلة في مكان ما من رأسه في اليوم الذي رأى فيه نور الحياة.

وانحنى ليلتقط بندقيته وهو يتذكر أنها ليست معبأة، وجمد الخنزير في مكانه، وقد اشتعلت عيناه بجنون الألم ورسم ناباه الأصفران الحادان نصف قوس نحو الأعلى. وصهلت فرس ستوارت وقد شمت رائحة الوحش، وأدار الخنزير رأسه الضخم لينظر إليها ثم أخفضه ليهجم. وبينما كان انتباهه مركزاً على الحصان رأى ستوارت فرصته الوحيدة، فانحنى بسرعة على البندقية وفتح المخزن وقد مد يده اليسرى إلى جيبه ليتناول رصاصة. وحوله، كان

المطر يتساقط وقد طغى على بقية الأصوات بوقعه المتواصل . ولكن الخنزير سمع صوت المعدن بينما كان ستوارت يفتح المخزن ، وفي اللحظة الأخيرة ، غيّر اتجاهه من الفرس إلى ستوارت . وكان قد وصل إليه تقريباً عندما استطاع هذا إطلاق رصاصة دخلت مباشرة في صدر الخنزير ولكن دون أن توقفه عن تقدمه . وأدار الوحش نابيه من الأعلى إلى الأسفل ثم جانبياً ، وغرزها ما بين فخذي ستوارت فوقع هذا والدم يتدفق من الجرح كما من صنبور فُتِح على آخره ، مبللاً ملابسه ، منتشراً فوق الأرض .

واستدار الخنزير وقد شعر بألم الرصاصة في صدره ، وحاول معاودة الهجوم ، ولكنه ترنح وتمايل ثم هوى . وسقطت جثة الوحش ووزنها ستمئة كيلو غراماً فوق ضحيتها ، وطمرت وجهها في الوحل الأسود ، وحاولت يداه للحظة أن تقبضا على التراب من جهة وأخرى من جسده في حركات مذعورة ، وهو يجاهد للتحرر بدون جدوى .

كان يعلم هذا دائماً ، ولهذا السبب لم يأمل أبداً ، ولم يحلم ، ولم يخطط ، وإنما جلس سكراناً بالعالم الحي سكراً عميقاً وليس عنده الوقت لكي يبكي على المصير الذي ينتظره . وفكر : أماه ،

أماه! لن أستطيع البقاء بقربك يا أماه! بينما كان قلبه ينفجر في صدره.

ــ «إني أتساءل لماذا لم يطلق ستو النار ثانية!» قالت ميغي لأمها بينما كانتا تتجهان نحو مصدر الطلقات الثلاثية الأولى، وليس بإمكانهما الإسراع أكثر وقد تصاعد قلقهما.

ــ أظن أنه متأكد أننا سمعنا.

قالت «في» ولكنها في أعماقها كانت تتذكر وجه ستوارت في اللحظة التي افترقوا بها وذهب كل منهم إلى جهة للبحث، والطريقة التي مد بها يده ليقبض على يدها، وكيف ابتسم لها:

ــ لم نعد بعيدتين الآن. قالت وهي تلكز جوادها الذي انطلق يعدو متعثراً.

كان جاك قد سبق الجميع إلى هناك، وتبعه بوب. وأدارا النساء بعيداً عن المكان فيما كانتا تجتازان الأمتار الأخيرة من الأرض الحية متجهتين نحو النقطة التي انطلقت منها النيران.

ــ لا تقتربي يا أماه.

قال لها بوب وهي تترجل.

وكان جاك قد اقترب من ميغي وأمسكها من ذراعيها، واستدارت أربعة أعين رمادية وليس بها من الدهشة والخوف أكثر مما بها من المعرفة، وكأنه لم يكن هناك من داع لإخبارهما بأي شيء.

ـ بادي؟

سألت «في» بصوت لا يشبه صوتها على الإطلاق.

ـ نعم، وستو أيضاً.

ولم يستطع أي من أولادها النظر إلى وجهها.

ـ ستو؟ ستو! ماذا تقصد بـ «ستو»؟ آه يا إلهي، ما هذا، ما الذي حدث؟ ليس الاثنان... لا!

ـ لقد لحقت النيران بأبي، وقد مات. ولا بد أن «ستو» قد أزعج أحد الخنازير البرية، فهاجمه هذا، وأطلق عليه ستو النار، ولكن الخنزير سقط فوقه عندما كان يموت، وسحقه سحقاً. لقد مات هو أيضاً يا أماه.

وصرخت ميغي وأخذت تتخبط وهي تحاول التملص من يدي جاك ولكن «في» جمدت بين ذراعي بوب القذرتين الملوثتين بالدماء وكأنما قد تحولت إلى حجر، بينما أصبحت عيناها كرتين صغيرتين من الزجاج.

ــــ « هذا كثير » قالت أخيراً وهي تنظر إلى بوب وقطرات المطر تتساقط على وجهها وفي شعرها وتسيل حول رقبتها سواقي ذهبية صغيرة . « دعني أذهب إليهما يا بوب ، فأنا زوجة أحدهما وأم الآخر ، ولن تستطيع أن تبعدني عنهما ، لا يحق لك أن تبعدني . دعني أذهب إليهما .

كانت ميغي قد هدأت ووقفت بين ذراعي جاك وقد وضعت رأسها على كتفه . وعندما بدأت « في » تسير عبر الأرض الخراب وقد أحاط بوب قامتها بذراعه ، نظرت ميغي إليهما ولكنها لم تؤت بحركة للحاق بهما . وظهر هوغي عبر ستار المطر ، فأشار جاك برأسه نحو « في » وبوب .

ــــ « الحق بهما يا هوغي ، وابق معهما ، فأنا عائد مع ميغي إلى دروغيدا لآتي بعربة » . وأفلت ميغي وساعدها على امتطاء حصانها .

ــــ هيا يا ميغي ، لقد كاد الظلام يحل ولن نستطيع أن نتركهم خارجاً طوال الليل ، ولن يذهبوا قبل أن نعود إليهم .

كان من المستحيل جر العربة أو أي شيء آخر ذي دواليب على الأرض الموحلة ، وفي النهاية ربط توم وجاك لوحة من الحديد

الصدىء خلف حصاني حراثة وتقدمهما توم على حصان آخر بينما سبقه جاك وهو يحمل أكبر مصباح وجده في دروغيدا .

وبقيت ميغي في المنزل ، فجلست في صدر غرفة الاستقبال بينما كانت السيدة سميث تحاول إقناعها بتناول شيء من الطعام ، والدموع تسيل على وجنتيها وهي تنظر إلى الفتاة الشابة المتجمدة ، وقد هزّتها الصدمة بشكل لم تعد معه تقوى حتى على البكاء . وعندما قرع الباب الأمامي ، استدارت وذهبت لتفتح وهي تتساءل عمن استطاع أن يجتاز كل هذه الوحول ليأتي إليهم . وكالعادة غمرتها الدهشة للسرعة التي تنتقل بها الأخبار بين المزارع المتباعدة .

كان الأب رالف واقفاً على الشرفة ، مبلاً موحلاً ، وقد ارتدى معطفاً واقياً من المطر فوق ثياب الركوب .

ـ هل أستطيع الدخول يا سيدة سميث ؟

ـ « آه يا أبت ، يا أبت ! » صاحت وهي ترمي بنفسها بين ذراعيه . « كيف عرفت ؟ » .

ـ « لقد أرسلت لي السيدة كليري برقية ، وهذا لطف شديد من قبل القيم على الأعمال نحو المالك . ولقد أخذت تصريحاً

للمجيء إلى هنا من الأسقف دي كونتيني فيركيزي، إنه اسم معقد. هل تتصورين أن علي أن ألفظه على الأقل مئة مرة كل يوم؟ ولقد أتيت بالطائرة، وعجزت هذه عن التقدم في الوحل عند هبوطها فسقطت على أنفها، وهكذا فقد أخذت فكرة عن حالة الأرض قبل أن تطأها قدماي. آه، غيلي الغالية الجميلة. إني تركت حقيبتي مع الأب واتي في منزله واستعرت حصاناً من فندق الامبريال وقد ظن صاحبه أني مجنون وراهنني على زجاجة ويسكي «جوني ووكر» ذات البطاقة السوداء، إنني لن أستطيع أبداً عبور هذه الأوحال. آه يا سيدة سميث، لا تبكي هكذا يا عزيزتي. إن الحريق لا يعني أن هذه هي نهاية العالم، مهما كان اتساعه وبشاعته!».

قال هذا وهو يبتسم ويربت على كتفها ثم تابع:

ــ ها أنذا، وسأفعل كل ما بوسعي لأخفف المصيبة، ولكنك لا تجيبينني. أرجوك لا تبكي.

ــ «إنك لا تعلم إذن». قالت وهي تجهش بالبكاء.

ــ ماذا؟ أعلم ماذا؟ ما الأمر؟ ما الذي حدث؟

ــ إن السيد كليري وستوارت قد توفيا.

وانسحب الدم من وجهه فدفع السيدة سميث جانباً وهو يصرخ :

ــ أين ميغي ؟

ــ في غرفة الاستقبال . أما السيدة كليري فلا تزال في المرعى مع الجثتين ، ولقد ذهب جاك وتوم لنقلهما إلى هنا . آه يا أبت ، إني أحياناً ، وبالرغم من إيماني ، لا يسعني إلا أن أفكر بأن الله ظالم جداً . لماذا كان عليه أن يأخذ الاثنين ؟

ولكن الأب رالف لم يكن قد بقي ليسمع بقية كلامها ، بل هرع إلى غرفة الاستقبال وهو يخلع معطفه ووراءه خط من الماء الموحل .

ــ ميغي !

قال وهو يمشي صوبها ويركع إلى جانب مقعدها ، وتناول يديها الباردتين يشد عليهما بيديه .

وانزلقت عن مقعدها مرتمية بين ذراعيه ، وأسندت رأسها على قميصه المبلل وهي تغلق عينيها سعيدة رغم ألمها وحزنها حتى أنها تمنت لو أن هذه اللحظة لا تنتهي أبداً . لقد أتى ، وكان هذا دليلاً على مدى تأثيرها عليه ، وهي لم تخطىء في حدسها .

وهمس وقد وضع خده على شعرها :

ــ إنني مبلل يا عزيزتي ميغي وسوف أبللك .

ــ هذا لا يهم . إنك قد جئت .

ــ نعم لقد جئت . كنت أريد التأكد من سلامتكم ، وكنت أشعر أنكم بحاجة إلي ، وأحببت التأكد من ذلك بنفسي . يا إلهي ، يا ميغي ، والدك وستو ! كيف حصل هذا ؟

ــ والدي مات حرقاً بالنيران وقد عثر عليه ستو . وقد سقط خنزير بري فوق ستو فقتله بعد أن كان قد أطلق النار عليه . لقد ذهب جاك وتوم ليأتيا بهما .

ولم يضف كلمة على ذلك ولكنه شدها إليه وهو يهز لها وكأنها طفل حتى جففت حرارة النار المنبعثة من المدفأة قميصه وشعره ، وأحس بظهره يتصلب فابتعد عنها ووضع يده تحت ذقنها وأدار رأسها حتى نظرت إليه وبدون أي تفكير ، قبلها . دفعه إلى ذلك شعور مبهم لا ينبع عن رغبة جسدية ، شيء غريزي شعر أن عليه أن يقدمه عندما رأى ما في العينين الرماديتين . شيء مميز ، شيء مختلف مقدس . وانزلق ذراعاها تحت ذراعيه ، نحو الأعلى ، وتشابكا وراء ظهره ، ولم يستطع أن يمنع نفسه عن الإجفال وكتم صرخة ألم .

وتراجعت وهي تسأله :

ـــ ماذا هنالك؟

ـــ لا بد أن أضلعي قد رُضَّت عند هبوط الطائرة . فلقد انغرزت مقدمتها في أوحال غيللي العزيزة وكان الهبوط قاسياً جداً فارتميت على ظهر المقعد الذي كان أمامي.

ـــ دعني أر قليلاً.

وبدأت تفك أزارا القميص المبلل بأصابع ثابتة ، ثم نزعته عنه وحررته كذلك من بنطاله ، وعلى الجلد الأسمر المبلل كان هناك بقعة قبيحة واسعة تميل إلى الاحمرار وتمتد من جهة إلى أخرى من قفصه الصدري. وأمسكت ميغي أنفاسها .

ـــ آه يا رالف ! لقد أتيت على الحصان من غيللي إلى هنا وأنت مرضوض هكذا ؟ لا بد أنه آلمك جداً ! كيف تشعر بنفسك ؟ هل تشعر بالضعف ؟ ربما قد كسر شيء في الداخل.

ـــ كلا إني بخير ، ولا أشعر به، حقاً. كنت متعجلاً للوصول إلى هنا لأتأكد من أنكم بخير ، وأظن أني نسيت ما حل بي تماماً . ولو كان عندي نزيف داخلي لشعرت به منذ زمن طويل ، على ما أعتقد . بالله يا ميغي، لا تفعلي هذا .

كانت قد انحنت فوقه تلامس صدره المرضوض بشفتيها برقة، وتمرر يديها على صدره وكتفيه بشهوانية متعمدة أذهلت الكاهن. وغمرته الدهشة والرعب وهو يحاول أن يتخلص منها بأية وسيلة، ودفع برأسها بعيداً ولكن ذلك أدّى إلى ارتمائها بين ذراعيه كأفعى التفت حول إرادته، تخنقها. ونسي الألم والكنيسة والله. وعثر على فمها وأرغمها على مباعدة شفتيها بنهم ورغبته تزداد وتزداد وهو يريدها أن تقترب أكثر فأكثر حتى يشبع هذا الإحساس المرعب الذي يتضخم في أعماقه. ومدت له عنقها وعرّت كتفيها حيث كان الجلد غضاً، أنعم وأرق من الحرير. وأحس أنه كالغريق يغوص شيئاً فشيئاً إلى الأعماق وهو يلهث ويكاد يختنق ولا يجد باباً للخلاص. وغمره شعور بالموت عميق، وأحس بثقله يسحق روحه فيحرره من طعم خمر الأحساسيس المر في موجة مفاجئة. ورغب في البكاء، واختفت آخر رغائبه تحت عبء هذا الشعور بالفناء، وجذب ذراعيها من حول جسده الشقي وتراجع وقد تدلى رأسه وكأنه مستغرق في النظر إلى يديه المرتعشتين المستلقيتين على ركبتيه. ماذا فعلت بي يا ميغي، وماذا ستفعلين لو تركتك؟

ـــ ميغي، إني أحبك، وسأحبك دائماً، ولكنني كاهن، ولا أستطيع... إني لا أستطيع!

وانتصبت بسرعة، ورتبت قميصها، ووقفت تنظر إليه مبتسمة ابتسامة متشنجة حولت الألم في عينيها إلى عذاب أعظم.

ـــ لا بأس يا رالف، سأذهب لأرى إذا كان لدى السيدة سميث شيء تأكله، ثم أحضر لك المرهم الذي نستعمله لتضميد جروح الخيل، إنه رائع للكدمات والرضوض ويوقف الألم أسرع بكثير مما تفعله القبلات على ما أعتقد.

وحاول الكلام:

ـــ هل الهاتف صالح للاستعمال؟

ـــ نعم، لقد مدوا خطاً مؤقتاً عبر الأشجار ووصلوا لنا خطنا منذ حوالي الساعتين.

وبعد أن ذهبت بقي دقائق قبل أن يتمكن من السيطرة على نفسه كفاية ويجلس وراء مكتب «في».

ـــ آلو، اعطني عاملة الخطوط الخارجية من فضلك. هنا الأب دو بريكاسار من دروغيدا. آه، مرحبا يا دورين، ألا زلت على الهاتف؟ حسناً، يسرني سماع صوتك ففي سيدني لا يمكنك أن تعرفي من يعمل على الهاتف بل تسمعين صوتاً مملاً، هذا كل شيء. أريد أن أكلم بسرعة نيافة المبعوث البابوي في سيدني

ورقمه هو س. س. ٢٣٢٤ . وبانتظار سيدني، صليني ببوغيلا يا دورين.

واستطاع بالكاد أن يخبر مارتن كنغ بما حدث، فقد جاءه جواب سيدني، ولكن كلمة واحدة لبوغيلا كانت كافية. سيتولى مارتن كنغ الاتصال بغيللي وسيعلم بالخبر كل أصحاب الخطوط الموصولة بخطه وجميع من يرغب في تحدي الوحول للمجيء إلى الجنازة.

ــ نيافة الأسقف؟ هنا الأب دو بريكاسار .... نعم، شكراً، لقد وصلت بخير ولكن الطائرة انغرزت في الوحل من مقدمتها وسوف أعود بالقطار... الوحل يا سيدنا و.. ح.. ل! كلا يا سيدنا، من الصعب العبور هنا عند تساقط الأمطار. لقد اضطررت أن آتي من غيلي إلى دروغيدا على الفرس... وأنا اتصل بك لهذا السبب يا سيدنا. لقد أحسنتُ بالمجيء إلى هنا. لا بد أني قد شعرت بنوع من الحدس... نعم الأمور سيئة جداً جداً. لقد توفي بادرايك كليري وابنه، الأول مات حرقاً بالنار والثاني سحقه خنزير متوحش.. خ.. ن.. ز.. ي.. ر، يا سيدنا، خنزير متوحش.. نعم، إنك على حق، إننا نتكلم انجليزية عجيبة هنا.

وعلى امتداد خط الهاتف كانت تتناهى إلى سمعه شهقات المصغين إلى الحديث، وكشر مبتسماً رغماً منه. ليس باستطاعته أن يصرخ عبر الهاتف إلى الجميع لإخلاء الخط، فقد كان هذا التسلية الوحيدة التي كان بإمكان غيللي أن توفرها لمواطنيها المتعطشين للاتصالات، ولكن آه لو كان باستطاعتهم إخلاء خط نيافته لكي يستطيع أن يسمع بشكل أوضح:

ــ من بعد إذنك يا سيدنا، إنني أرغب في البقاء هنا لأقوم بمراسم الجنازة، وأتأكد من أن الأرملة والأولاد الباقين سيكونون بخير... نعم يا سيدنا، شكراً. سأعود إلى سيدني في أقرب وقت.

كانت عاملة الهاتف تصغي أيضاً، فوضع السماعة ورفعها ثانية حالاً:

ــ دورين، اعطني بوغيلا ثانية من فضلك.

وتحدث بضع دقائق مع مارتن كنغ وقرر أن يرجىء الدفن إلى ما بعد الغد، إذ أنهم كانوا في شهر آب وكان الطقس بارداً. فهناك أناس كثيرون سيرغبون في الحضور رغم الوحل وكانوا بحاجة للاستعداد حتى يأتوا فقد كانت العملية بطيئة مضنية.

وعادت ميغي ومعها المرهم، ولكنها لم تحاول أن تدهنه

بنفسها وإنما ناولته الزجاجة بصمت وأخبرته بجفاف أن السيدة سميث كانت تحضر له مائدة العشاء في غرفة الطعام، وسيكون جاهزاً خلال ساعة تقريباً وبهذا يستطيع أن يستحم مثلاً. وأدرك بضيق أن ميغي تظن أنه قد خدعها نوعاً ما، ولكنه لم يكن يفهم لماذا تفكر بهذه الطريقة، ولا على أي أساس كانت تحكم عليه. لقد كانت تعرف ما هو فلماذا الغضب؟

○

وفي نور الفجر الرمادي بلغت العربة التي تحمل الجثتين ضفة النهر وتوقفت تحيط بها فرقة الفرسان الصغيرة. كان الماء هادئاً ولم يكن قد ارتفع حتى الضفة مع أن الجدول كان قد فاض تماماً وانطلق يجري على عمق أكثر من عشرة أمتار. وقاد الأب رالف حصانه سباحة عبر الماء ليقابلهم وقد وضع بطرشيله حول عنقه وأدوات العبادة في سرج الحصان. وبينما وقفت «في» مع بوب وجاك وهوغي وتوم حوله، أزاح الغطاء عن الجثتين ليمسحهما بالزيت المقدس. لم يعد هناك شيء ينفره بعد ميري كارسون، ولم يكن هناك شيء مقزز في بادي وستو، كان كل منهما أسودا بطريقة مختلفة، بادي من النار، وستو من الاختناق، ولكن الكاهن قبّلهما باحترام وحب.

كان اللوح الحديدي قد انزلق قافزاً مترجرجاً على أكثر من عشرين كيلو متراً فوق الأرض خلف الأحصنة التي كانت تجره، وهو ينثر الوحل حوله من أقنية عميقة، رسمها على طول خط سيره ولن تمّحي خلال سنوات بكاملها حتى عندما تنبت الأعشاب. وكان يبدو أنهم لن يستطيعون التقدم أكثر من ذلك فمياه الجدول التي كانت تلف كالدوامة كانت تمسكهم على الضفة الأخرى ودروغيدا ليست إلا على كيلو مترين من هناك. ووقفوا يحدقون برؤوس أشجار الصمغ التي كانت واضحة حتى تحت ستار المطر الكثيف.

ـ «عندي فكرة» قال بوب وهو يستدير نحو الأب رالف. «يا أبت، إنك الوحيد الذي يمتطي حصاناً منذ وقت قصير، وعليك أن تقوم بما سأقوله. إن خيولنا تستطيع أن تعبر سباحة إلى الجهة الأخرى ولكنه لم يبق بها أية قوة بعد كل هذا الوحل والبرد. ارجع إلى البيت وعد ببعض البراميل الكبيرة الفارغة، واغلقها جيداً حتى لا يمكن أن يتسرب الماء إلى داخلها، عليك بلحامها إذا دعت الضرورة. سنحتاج إلى اثني عشر منها أو عشرة على الأقل. اربطها معاً واحملها إلى هنا عبر الجدول.

سوف نربطها تحت اللوح الحديدي ونجعله يطفو فوق سطح الماء ونسحبه إلى الضفة الأخرى » .

وفعل الأب رالف ما طلبه منه بوب دون نقاش ، فقد كانت الفكرة أفضل مما يستطيع هو أن يقدم لهم . كان دومينيك أوبروك قد وصل من ديبان ـــ ديبان مع اثنين من أولاده ، كان جاراً ، ونسبياً لم يكن مكانه بعيداً جداً عن دروغيدا . وعندما أخبره الأب رالف بما يزمع على صنعه ، باشروا جميعاً بالعمل بسرعة ، يفتشون السقائف بحثاً عن براميل فارغة ، ويفرغون الشعير والحبوب من براميل الكيروسين التي كانت تستعمل للتخزين ويبحثون عن الأغطية ويقومون بلحامها إلى البراميل غير الصدئة التي كان يبدو أن باستطاعتها تحمل الماء . كان المطر لا يزال ينهمر ولن يتوقف قبل يومين آخرين .

ـــ دومينيك ، إني أكره أن أطلب منك ما سأطلبه ، ولكن ، عند رجوع هؤلاء القوم إلى البيت فسيكونون مرهقين أشد الإرهاق . علينا أن نقوم بالدفن غداً ، ولو استطاع الحانوتي أن يصنع النعشين غداً فلن يتمكن من نقلهما عبر الوحل . هل يستطيع أحدكم أن يقوم بصنع النعشين ؟ أنا لست بحاجة إلا لرجل واحد لعبور النهر .

وأحنى ولدا أوبروك برأسيهما موافقين . لم يكونا راغبين برؤية ما فعلته النار ببادي ، وما فعله الخنزير بستوارت .

ــ سنفعل ذلك يا أبت . قال « ليام » .

وربط الأب رالف ودومينيك أوبروك البراميل وراء فرسيهما واتجها صوب الجدول يعبرانه سباحة .

ــ « هناك شيء أريد أن أقوله لك يا أبت » . صاح دومينيك . « لن نحفر قبوراً في هذا الوحل اللعين ! في الماضي كنت أظن أن ميري كارسون تبالغ عندما بنت هذا المدفن الرخامي من أجل مايكل ، ولكن بإمكاني تقبيلها الآن لو أنها ما زالت حية » .

ــ « هذا صحيح » صاح الأب رالف مجيباً .

وثبتوا البراميل تحت اللوح الحديدي ، ستة من كل جهة ، وربطوا الغطاء الخيشي بقوة ودفعوا الخيول المرهقة تسبح وقد شدوا الطوافة إليها بحبل . وصعد دومينيك وتوم على الجوادين الضخمين وعندما وصلا إلى الضفة الأخرى من جهة دورغيدا توقفا ينظران وراءهما بينما رفاقهم الذين بقوا على الضفة الأخرى يشدون الطوافة إلى الضفة ويدفعونها إلى الماء . وبدأت خيول الحراثة تتقدم ، وتوم ودومينيك يحثان الجوادين ويشجعانهما عندما بدأ اللوح يطفو .

كان يتمايل بطريقة خطرة ولكنه بقي عائماً حتى سحبوه خارجاً إلى الأرض الصلبة.

وبدون أن يضيعا وقتاً ويترجلا، همز توم ودومينيك الجوادين وتوجها على الطريق صوب المنزل واللوح الحديدي ينزلق على الأرض فوق البراميل بسهولة تامة.

كان هناك منحدر يؤدي إلى الأبواب الكبيرة في طرف سقيفة الجز، فوضعوا اللوح وحمولته في المبنى الكبير الفارغ وسط رائحة القطران والعرق والشحوم الحيوانية والروث. ووصلت ميني وكات قادمتين من المنزل الكبير، وقد تدثرتا بمعطف واق من المطر، لكي تسهرا على الميتين، وركعتا من جهة وأخرى من النعش الحديدي وسبحتاهما تنزلقان بين أصابعهما وصوتهما يعلو وينخفض برتابة.

كان المنزل قد بدأ يمتلىء، فقد وصل دونكان غوردون وغاريث ديفيز، وهوري هوبتون، وايدن كارمايكل. وكان انغوس ماكوين قد أوقف قطار بضائع وصعد إلى قاطرته ليصل إلى غيللي، ومن هناك اقترض حصاناً من هاري غوف وركبه إلى دورغيدا قاطعاً أكثر من ثلاثمئة كيلو متر في الوحل.

ــ «إنني محطم تماماً يا أبت» قال هوري هوبتون للكاهن فيما بعد حينما دخل الرجال السبعة إلى غرفة الطعام الصغيرة يأكلون فطيرة بالقوانص. «لقد اجتازت النار أرضي من جهة إلى الأخرى ولم تترك خروفاً واحداً حياً ولا شجرة خضراء. وكل ما أستطيع قوله هو أن السنوات الأخيرة كانت جيدة لحسن الحظ. باستطاعتي أن أعيد تشكيل قطعاني وإذا استمرت الأمطار على هذا الشكل فالأعشاب ستنمو بسرعة. ولكن لتكن السماء في عوننا إذا داهمتنا مصيبة أخرى خلال السنوات العشر القادمة، يا أبت، لأنه لن يكون عندنا أية إمكانية لمواجهتها.

وبلذة واضحة، قطع غاريث ديفيز قطعة من الفطيرة المحمصة التي كانت السيدة سميث قد أعدتها. فلم يكن باستطاعة أية كارثة أن تحد من شهية هؤلاء الرجال، مزارعي الأرض السوداء، وكانوا بحاجة للغذاء لمواجهة الكوارث. وقال:

ــ إن أرضك أصغر من أرضي يا هوري، ولقد احترقت نصف أرضي ومات ثلاثة أرباع قطعاني. هذا حظنا السيء. نحن بحاجة إلى صلواتك يا أبت.

ـــ « نعم » أضاف أنغوس العجوز . « لم أخسر مثل هوري وغاريث يا أبت ، ولكن هذا يكفي . لقد فقدت ثمانين ألف هكتار من الأراضي ونصف خرافي . وفي لحظات كهذه يا أبت ، أتمنى لو لم أغادر اسكوتلندا في شبابي .

وابتسم الأب رالف :

ـــ هذه الأمنية عابرة يا أنغوس ، وأنت تعلم ذلك تماماً ، لقد تركتَ « سكاي » للسبب نفسه الذي تركتُ من أجله كلونامارا . لقد كانت صغيرة عليك .

ـــ آه بدون شك . إن شجيرات الخلنج لا تشتعل كما تشتعل أشجار الصمغ ، أليس كذلك يا أبت !

ستكون جنازة غريبة ، فكر الأب رالف وهو ينظر حوله ، لم يكن هناك نساء غير نساء دروغيدا لأن كل المعزين الذين أتوا كانوا رجالاً . كان قد حمل جرعة قوية من المسكنات لـ « في » بعد أن نزعت عنها السيدة سميث ملابسها وجففتها ووضعتها في السرير الكبير الذي كانت تتقاسمه مع بادي . وعندما رفضت شربها وهي تتشنج بعصبية ، أمسك لها أنفها وسكب الجرعة في فمها . عجيب ، لم يكن يظن أن « في » ستنهار . وأعطى الشراب مفعوله

بسرعة لأنها لم تكن قد تناولت أي طعام منذ أربع وعشرين ساعة . وعندما رأى أنها قد أغفت اطمئن قليلاً . كان يراقب ميغي أيضاً ولكنها كانت آنذاك في المطبخ تساعد السيدة سميث على تحضير الطعام . أما الشباب فكانوا قد آووا إلى الفراش وقد غلبهم التعب فاستطاعوا بالكاد أن ينزعوا عنهم ثيابهم المبللة قبل أن يرتموا على أسرَّتهم .

وعندما أنهت ميغي وكات القسم الأول من السهرة التي كان من المفروض إمضاءها قرب الجثث لأنها كانت قد وُضِعت في مكان مهجور غير مقدس ، حلّ محلهما غاريث ديفيز وولده اينوك ، وتقاسم الباقون السهر ما تبقى من الوقت وهم يأكلون ويثرثرون حتى يأتي دورهم .

لم يلحق الشبان بآبائهم في غرفة الطعام وإنما بقوا في المطبخ يتظاهرون بمساعدة السيدة سميث ، ولكنهم في الحقيقة كانوا يلاحقون ميغي بنظراتهم . وعندما لاحظ الأب رالف ذلك أحس بالراحة والضيق معاً . حسناً ، كان عليها أن تختار زوجها من بين أولئك الشبان ، وهذا ما ستفعله حتماً . كان هناك اينوك ديفيز ، شاب وسيم في التاسعة والعشرين ، أشقر ، أزرق العينين مثل أخيه

الأصغر روري البالغ من العمر خمسة وعشرين عاماً. أما كونور كارمايكل فقد كان على النقيض من أخته تماماً، وعمره اثنتان وثلاثون سنة، وكان وسيماً جداً وإنما متعجرفاً قليلاً. ولكن أفضلهم حسب تقدير الأب رالف كان حفيد انغوس، وكان يدعى «الستير»، وهو أقربهم سناً إلى ميغي فلم يكن قد تجاوز الرابعة والعشرين وكان دمثاً جداً وقد ورث عن جده الاسكتلندي عينيه الزرقاوين الجميلتين وشعره الذي بدأ يشيب وهو في هذه السن، وذلك من الخطوط المميزة لعائلتهم. ولعلها تقع في غرام أحدهم وتتزوجه وتنجب الأولاد الذين تتمناهم من أعماق قلبها. يا إلهي، يا إلهي ليتك تفعل هذا من أجلي، وسأتحمل عذاب حبها بفرح، بفرح...

لم تكن هناك زهرة واحدة على النعشين، وبقيت المزهريات في الكنيسة فارغة. فالأزهار التي قاومت حرارة الهواء المشتعل الهائلة منذ ليلتين سقطت تحت المطر وارتمت فوق الوحول كفراشات ميتة. لم يكن هناك غصن بقس ولا وردة سابقة لأوانها وكان الجميع منهكين. فهؤلاء الذين كانوا قد اجتازوا مسافة طويلة في الوحول على ظهور الجياد إكراماً لبادي، كانوا مرهقين، وهؤلاء الذين نقلوا

الجثث إلى البيت كانوا مرهقين، والذين تبرعوا بتهيئة الطعام والتنظيف كانوا مرهقين أيضاً، وكان الأب رالف تعباً بشكل شعر معه كما لو أنه في حلم. كانت عيناه تتجنبان النظر إلى وجه «في» المشدود الغارق في اليأس، ووجه ميغي الذي ارتسم عليه الأسى والغضب، والحزن الجماعي الذي غلف بوب وجاك وهوغي...

لم يكن هناك أي تأبين وإنما ألقى مارتن كنغ ببضع كلمات مؤثرة باسم الحضور وانتقل الكاهن حالاً إلى القداس الجنائزي وكان كعادته قد أتى معه بالكأس والأسرار المقدسة والبطرشيل، فلا كاهن يخرج بدون هذه الأشياء عندما يذهب للتخفيف عن رعاياه ومساعدتهم، ولكنه لم يكن قد أتى بلباس المراسم ولم يكن هناك واحد في المنزل، ولكن انغوس كان قد مر على منزل الكاهن في غيللي وهو في طريقه إلى دروغيدا، وأحضر معه رداء أسود لفّه في مشمع ووضعه على سرجه. وهكذا استطاع الأب أن يقف مرتدياً الثوب الملائم بينما المطر يضرب زجاج النوافذ ويقرع السقوف الحديدية مثل الطبول.

وبعد انتهاء القداس كان عليهم الخروج تحت وابل المطر عبر المرج الذي أحرقه الحر إلى المقبرة الصغيرة المحاطة بسياج أبيض.

وهذه المرة كان المتطوعون كثرة لحمل الصناديق الخشبية العارية وهم ينزلقون ويخبطون في الوحل، ويحاولون أن يروا موضع خطواتهم خلال ستار المطر الكثيف الذي كان يعميهم. وترنحت الأجراس الصغيرة فوق قبر الطاهي الصيني وهي تغني: هي سنغ، هي سنغ، هي سنغ.

وانتهى كل شيء، وتفرق المعزون على ظهور الخيل، وقد أحنوا ظهورهم تحت معاطفهم الواقية من المطر، وبعضهم يتوقع كارثة والبعض الآخر يشكرون الله لنجاتهم من الحريق والموت. وحزم الأب رالف أمتعته وهو يعلم أن عليه الرحيل قبل أن يعجز عنه.

وذهب ليرى «في» حيث كانت تجلس وراء مكتبها وتحدق بصمت في يديها:

ــ «في»، هل ستكونين بخير؟» سألها وهو يجلس بحيث يكون قبالتها.

واستدارت نحوه جامدة كما لو أن شعلة الحياة قد انطفأت في روحها، وذعر الكاهن فأغمض عينيه.

ــ نعم يا أبت، سأكون بخير. هناك دفاتر الحسابات، علي أن

أمسكها وما زال عندي خمسة شبان... ستة إذا أدخلنا فرانك في حسابنا، ولكننا لا نستطيع أن نحسب فرانك، أليس كذلك؟ لن أستطيع أبداً أن أشكرك كما يجب على ما فعلت بهذا الخصوص. وهذه تعزية كبيرة لي أن أعلم أنك وأمثالك تسهرون عليه وتحاولون التخفيف عنه. آه، لو كان باستطاعتي أن أراه مرة واحدة فقط!

كانت كالمنارة، فكر الأب، إنها كمنارة ترسل أشعة حزن كل مرة تبلغ فيها روحها قمة التأثر فلا تستطيع التحكم به. شعاع باهر لا يلبث أن يخمد فترة طويلة، طويلة.

ـــ «في»، هناك شيء أريدك أن تفكري به.

ـــ نعم، ما هو؟

واكفهر وجهها من جديد.

ـــ «هل تصغين إلي؟» سألها بحدة وقد ازداد قلقه وذعره فجأة.

ومرت فترة طويلة ظن خلالها أنها قد انطوت على نفسها فلم يبلغها صوته بكل جفافه ولكن المنارة لمعت بضوء جديد، وانفرجت شفتاها:

ـــ بادي المسكين! وستوارت المسكين! وفرانك المسكين!

قالت ذلك نائحة، ثم تمالكت نفسها من جديد وكأنها قد صممت أن تطيل زمن خمودها وإظلامها فلا يشع الضوء في حياتها مرة ثانية.

وجالت عيناها في الغرفة وكأنها لا تعرفها:

ـــ نعم يا أبت، إني مصغية.

ـــ ابنتك يا «في»، هل تذكرين أن لك ابنة؟

وارتفعت عيناها الرماديتان، واستقرتا على وجهه بثقل، وبنوع من الشفقة:

ـــ وهل هناك امرأة تتذكر ذلك؟ وما الابنة؟ إنها فقط تذكّر بالألم، إنها نسخة شابة من أمها، وستفعل الشيء نفسه الذي فعلته هذه، وتبكي الدموع نفسها. كلا يا أبت. إني أحاول أن أنسى أن لي ابنة، وعندما أفكر بها فكواحد من أولادي الصبيان. فالأم لا تتذكر إلا صبيانها.

ـــ هل تبكين أحياناً يا «في»؟ لم أرك تبكين إلا مرة واحدة.

ـــ «ولن ترى دموعي مرة ثانية، فلقد انتهيت من الدموع وإلى الأبد». وارتعش جسدها بكامله. «هل تعلم يا أبت؟ منذ يومين فقط اكتشفت كم كنت أحب بادي، ولكن هذا

الاكتشاف كان شبيهاً لحياتي، لقد جاء بعد فوات الأوان. فات الأوان بالنسبة له، وفات الأوان بالنسبة لي. لو أنك تعلم كم أردت أن أضمه بين ذراعي وأخبره مقدار حبي له! يا إلهي، أتمنى ألا يشعر مخلوق بألمي».

وأدار الأب وجهه بعيداً عن هذا الوجه الذي هشمه الحزن، ليعطيها الوقت لاستجماع نفسها ويعطي نفسه الوقت حتى يتغلغل إلى أعماق هذا اللغز الذي كانت تمثله له «في»:

ــ لن يستطيع أحد أبداً أن يشعر بألمك.

وارتفعت زاوية فمها في ابتسامة مرغمة:

ــ نعم، وفي هذا بعض العزاء أليس كذلك؟ هذا شيء لا أحسد عليه، ولكن ألمي يخصني وحدي.

ــ هل تعدينني بشيء يا «في»؟

ــ إذا أردتَ ذلك.

ــ اعتني بميغي، ولا تنسيها. ادفعيها للذهاب إلى الحفلات التي تقام في الضواحي، دعيها تقابل بعض الشبان وشجعيها على التفكير في الزواج وفي تأسيس بيت يخصها. لقد رأيت كل الشباب ينظرون إليها اليوم. اعطها فرصة لتقابلهم ثانية في ظروف أفضل من هذه.

ـــ كل ما تريده يا أبت .

وتنهد وتركها غارقة في تأمل يديها الناحلتين .

ورافقته ميغي إلى الاسطبلات حيث كان الجواد الذي استعاره من فندق الامبريال يحشو بطنه بالقش والشعير معتقداً أنه بلا شك قد عاش يومين في فردوس الخيول .

ورمى الأب السرج على ظهر الحصان وانحنى ليربط الحزام تحت بطنه بينما استندت ميغي إلى حزم القش تراقبه .

ـــ « انظر ماذا وجدت يا أبت » قالت له عندما انتهى من عمله ووقف . ومدت يدها وكان بها وردة واحدة زهرية اللون شاحبة تميل إلى الرمادي :

ـــ إنها الوحيدة ، لقد وجدتها في إحدى الدغلات تحت الخزان ، خلف البيت . أظن أن حرارة النار لم تبلغها وكانت محتمية هناك من المطر . ولهذا فقد قطفتها لك ، إنها ستذكرك بي .

وتناول الوردة المغمضة منها ويده ترتعش قليلاً ، ووقف ينظر إليها :

ـــ إني لا أحتاج لشيء يذكرني بك يا ميغي ، لا الآن ولا أبداً . إني

أحملك في أعماقي وأنت تعلمين ذلك. ليس هناك مجال لأخفي الأمر عنك، أليس كذلك؟

ــ «ولكن التذكارات حقيقية» قالت بإلحاح. «تستطيع أن تأخذها وتنظر إليها، وتتذكر عندما تراها كل الأشياء التي ستنساها بدونها. أرجوك أن تأخذها يا أبت.

ــ إن اسمي رالف.

قال هذا بينما كان يفتح حقيبته الصغيرة، وتناول كتاب الصلاة الخاص به وقد غلف بجلد ثمين لؤلؤي اللون. كان والده المتوفي قد أعطاه أيام يوم سيامته، وذلك لثلاث عشرة سنة مضت، وانفتحت صفحات الكتاب عند شريطة بيضاء سميكة وأدار الأب صفحات أخرى ووضع الوردة في الكتاب وأطبقه عليها.

ــ هل تريدين تذكاراً مني يا ميغي؟ أهذا ما في الأمر؟

ــ نعم.

ــ لن أعطيك تذكاراً، إني أريدك أن تنسيني، أريدك أن تنظري من حولك وتجدي شاباً لطيفاً طيباً تتزوجينه وتنجبين الأولاد الذين تتمنين بشدة، فأنت قد ولدت لتكوني أمّاً. يجب عليك ألاّ تتعلقي بي فهذا ليس عدلاً. وأنا لا أستطيع أبداً أن أترك

الكنيسة، وحتى أكون صادقاً تماماً معك ومن أجل مصلحتك أقول لك إني لا أريد أن أترك الكنيسة لأني لا أحبك بالطريقة التي يحب بها زوج امرأته، هل تفهمين ذلك؟ انسيني يا ميغي.

ـ ألن تودعني بقبلة؟

وجواباً على سؤالها امتطى جواده وتوجه نحو الباب قبل أن يضع قبعة لبادية قديمة على رأسه، وبرقت عيناه الزرقاوان برهة ثم خرج الحصان تحت المطر ينزلق مكرهاً على الطريق نحو غيللي. ولم تحاول اللحاق به ولكنها بقيت واقفة في الاسطبل المظلم الرطب، تتنشق رائحة روث الحصان والعلف التي كانت تذكرها بمستودع نيوزيلاندة وبفرانك.

وبعد ذلك بثلاثين ساعة كان الأب رالف يجتاز غرفة المبعوث البابوي ليقبّل خاتمه ويرمي نفسه بإرهاق على أحد المقاعد، ولم يدرك أن مظهره لا بد أن يكون غريباً إلا عندما رأى عيني الأسقف الجميلتين الثابتتين مثبتتين عليه، وفهم لماذا كان كثير من الناس يحدقون به منذ اللحظة التي غادر بها القطار في المحطة المركزية. لقد نسي الحقيبة التي تركها برعاية الأب «واتي» إذ لم تكن أمامه سوى دقيقتين ليلحق بقطار الليل الذي كان سيقله على

مسافة ألف كيلو متر والذي كان بارداً كالجليد، وكان لا يزال مرتدياً قميصاً وبنطال الركوب وجزمة، وقد ابتلت جواربه ولم ينتبه حتى للصقيع. ولهذا فقد نظر لنفسه وابتسم بحزن ثم نظر إلى الأسقف.

ـ إني آسف يا سيدنا. لقد حدثت أشياء كثيرة حتى نسيت نفسي وغرابة مظهري.

ـ «لا تعتذر يا رالف» وخلافاً عن سلفه كان هذا يفضل أن ينادي سكريتيره باسمه. «أظن أنك تبدو رومنطقياً وأنيقاً جداً، إنما ليس ككاهن بالضبط. ألا تتفق معي بهذا الرأي؟

ـ بالنسبة للنقطة الأخيرة أنت على حق تماماً، أما بالنسبة للرومنطقية والأناقة فكل ما في الأمر هو أنك لم تألف رؤية اللباس المعتاد في غيللانبون يا سيدنا.

ـ يا عزيزي رالف، أنك ستبدو رومنطقياً وأنيقاً حتى لو ارتديت الرماد والخيش، وثياب الركوب تناسبك تماماً، فعلاً. مثل رداء الكهنوت. ولا تحاول أن تضيع وقتك وتخبرني أنك لا تعلم أن ثوب الركوب يلائمك أكثر من ثوب الكاهن الأسود. أنت تسير بطريقة غريبة وجذابة جداً، ولا زلت محافظاً على وسامتك وستبقى دائماً هكذا على ما اعتقد، وأظن أني سآخذك معي

عندما تناديني روما. سوف اتسلى كثيراً بتأمل انطباعات الكهنة الإيطاليين البدينين القصار عندما يرونك. المهر الجميل الرشيق بين الحمام السمين المذهول.

روما! واستوى الأب رالف جالساً على مقعده.

ــ هل كانت الأمور سيئة جداً يا رالف؟

تابع الأسقف كلامه وهو يمسد بيده البيضاء ظهر هرته الحبشية الحريرية التي كانت تخرخر مسرورة.

ــ فظيعة يا سيدنا.

ــ لا شك أنك تحب هؤلاء الناس جداً.

ــ نعم.

ــ وأنت تحبهم كلهم بالطريقة نفسها، أم أنك تفضل أحدهم بشكل خاص على الآخرين؟

ولكن الأب رالف كان ماكراً مثل سيده، وكا قد عاشره فترة طويلة ويعلم طريقة تفكيره، ولهذا فقد تجنب الشرك بأن أجاب الأسقف بصراحة خداعة، وهي طريقة اكتشفها كانت تقضي حالاً على شكوك الأسقف. ولم يكن ليخطر ببال الأسقف

الحاذق الماكر أن عرضاً صريحاً بهذا الشكل يخدع أكثر بكثير من الطرق الملتوية.

ـ إني أحبهم جميعهم، ولكن كما قلت، بعضهم أكثر من الآخرين. إني أحب ميغي أكثر منهم جميعاً. وقد كنت أشعر دائماً بأنها مسؤوليتي الخاصة لأن العائلة مشغولة جداً بالصبيان حتى أنها نسيت وجود الفتاة.

ـ كم عمر ميغي؟

ـ لست أدري بالضبط. أظن أنها قاربت العشرين. ولكنني جعلت أمها تعدني بأن ترفع رأسها قليلاً عن حساباتها وتتأكد من ذهاب ابنتها إلى بعض الحفلات الراقصة، حيث يمكنها أن تقابل بعض الشبان. إنها ستضيع حياتها ببقائها سجينة هكذا في دروغيدا. وهذا مخجل حقاً.

ولم يكن يقول شيئاً إلا الحقيقة البحتة، وقد اشتم الأسقف هذه الحقيقة بأنفه الحساس حالاً، ورغم أنه لم يكن يكبر رالف إلا بثلاث سنوات فحياته في الكنيسة لم تكن قد تعرضت للمراقبة التي عرفها رالف، وكان يشعر من نواح عدة أنه أكبر سناً من رالف. فالفاتيكان كان يمتص كل حيوية الإنسان الذي يتعرض له، وكان الأب رالف مفعماً بهذه الحيوية.

وخف حذر الأسقف قليلاً بينما ظل يراقب سكريتيره ويتابع لعبته لكي يعرف سبب اهتمام الأب رالف الحقيقي، وقد كان متأكداً في أول الأمر من ضعف جسدي عنده، بطريقة أو أخرى. فلا بد أن هذه الوسامة المدهشة وهذا الجسد الجميل قد جعلاه هدفاً لرغبات متعددة تجعل من غير المعقول أن يحافظ على براءته وجهله. وبمرور الوقت تبين له أنه كان تقريباً على حق، فلم يكن الأب رالف يجهل جاذبيته ولكن الأسقف تأكد من براءته. وهكذا فمهما كانت النار الداخلية التي تلتهم أحشاء الأب رالف، فهي لم تكن نار الرغبة الجسدية. وكان الأسقف قد رمى الأب رالف بصحبة جماعة من الشبان الشاذين جنسياً، بدون نتيجة، وراقبه مع أجمل النساء في المنطقة، بدون نتيجة أيضاً، ولم يبد عليه أي اهتمام على الإطلاق أو أية رغبة حتى حينما لم يكن يشعر أبداً بأنه تحت المراقبة. لأن الأسقف لم يكن يقوم بالمراقبة بنفسه بل كان يوكل ذلك إلى بعض الموظفين الصغار دون علم أمانة سره.

وبدأ يظن أن ضعف الأب رالف يكمن في اعتزازه بكونه كاهناً، وطموحاً، ولكن هذا كان وجهاً من شخصيته يفهمه الأسقف تماماً، لأنه كان يشعر بالشيء نفسه. فقد كانت هناك

أماكن للطموحين في الكنيسة، كما في جميع المؤسسات العظيمة الدائمة. وكانت الشائعات تقول أن الأب رالف قد خدع عائلة كليري هذه التي كان يدعى حبها بهذا الشكل، وسرق منها ميراثها الشرعي، ولو كان قد فعل هذا حقاً لاستحق عليه الشنق، كم التمعت هاتان العينان الزرقاوان الرائعتان عندما ذكر الأسقف أمامه اسم روما! ربما حان الوقت ليجرب معه لعبة أخرى. وتقدم خطوة أخرى في حديثه، بشيء من اللامبالاة، وعيناه تراقبان الكاهن عن كثب تحت أجفانهما المسدلة.

ــ «لقد وصلتني أخبار من الفاتيكان بينما كنت أنت مسافراً يا رالف» قال هذا وهو يزيح الهرة بلطف. «يا عزيزتي شابا، أنت أنانية، فلقد خدرت ساقي».

ــ آه؟ قال الأب رالف وهو يغرز نفسه بعمق في مقعده ويكاد لا يقوى على فتح عينيه من النعاس.

ــ نعم، يجب أن تذهب إلى فراشك ولكن ليس قبل أن تسمع ما عندي من أخبار. منذ فترة أرسلت كتاباً خاصاً وشخصياً إلى قداسة البابا وجاءني الجواب اليوم من صديقي الكاردينال مونتيفيردي، لست أدري إذا كان ينحدر من الموسيقي مونتيفيردي! لماذا لا أتذكر أبداً أن أطرح عليه هذا السؤال

عندما أقابله؟ آه يا شابا، لماذا تصرين على الحفر بمخالبك عندما تكونين سعيدة؟

ـ «إنني مصغ يا سيدنا، لم أغفُ بعد» قال الأب رالف وهو يبتسم. «لا عجب أنك تحب القطط بهذا الشكل فأنت نفسك هر تلعب بفريستك لكي تنسى» وطقطق بأصابعه وهو ينادي الهرة «دعيه يا شابا وتعالي إلي، إنه ليس لطيفاً».

وقفزت القطة حالاً من حضن الأسقف القرمزي واجتازت السجادة ثم نطت برقة على ركبتي الكاهن ووقفت تهز بذيلها وتشم رائحة الخيل والوحل الغريبة، مسحورة. وابتسمت عينا الأب رالف الزرقاوان في عيني الأسقف البنيتين المتيقظتين المغمضتين نصف إغماضة:

ـ «كيف استطعت أن تفعل هذا؟» سأل الأسقف. «إن القطط لا تذهب عادة لأي شخص آخر غير معلمها، أما شاباً فقد ذهبت إليك كما لو كنت تطعمها الكافيار والناردين. أيها الحيوان العاق!».

ـ إنني أنتظر يا سيدنا.

ـ وأنت تعاقبني على هذا بأن تأخذ هرتي مني. حسناً لقد

ربحت . إني أنحني . هل خسرت ذات يوم؟ سؤال مهم . علي أن أهنئك يا عزيزي رالف ، فذات يوم ستلبس تاج الأساقفة ورداءهم ، وسيوجهون لك الكلام بقولهم : يا سيدنا الأسقف دو بريكاسار .

وفتح الأب رالف عينيه على سعتهما ، وابتهج الأسقف في أعماقه ، فللمرة الأولى لم يحاول الكاهن أن يخفي أو يكتم مشاعره الحقيقية . كاد يطير فرحاً .

الكتاب الرابع

لـوك

١٩٣٣ ــ ١٩٣٨

الفصل العاشر

شفيت الأرض بسرعة غريبة، وخلال أسبوع واحد مدت الأعشاب الصغيرة الخضراء برؤوسها من المستنقعات اللزجة ولم يمض شهران حتى بدأت الأشجار المحروقة تكتسي بالأوراق. وإن كان الناس صبورين متجلدين فذلك أن الأرض لم تعطهم الفرصة ليكونوا شيئاً آخر، أما ضعفاء القلوب ومن تنقصهم القدرة العنيدة على التجلد، فكانوا لا يطيقون البقاء طويلاً في الشمال الغربي العظيم. ولكن سنوات طويلة ستمر قبل أن تمّحي جروح الأرض تماماً، وستنمو طبقات عديدة من قشور الأشجار وتسقط شرائط ممزقة، قبل أن تعود الجذوع ثانية بيضاء أو حمراء أو رمادية، وعدد كبير من الأشجار لن يستعيد الحياة أبداً وسيبقى أسود ميتاً، وستبقى السهول مزروعة بالهياكل المتفسخة أعواماً طويلة

وسيشحذها الزمن شيئاً فشيئاً ويغطيها الغبار الذي تثيره حوافر القطعان . وعبر أراضي دروغيدا سيظل في الأرض أخدودان عميقان يجريان نحو الغرب ، تركتهما حافتا النقالة في الوحل ، وكان العابرون الذين يعرفون القصة يشرحون مصدرهما لهؤلاء الذين لا يدرون حتى أصبحت الحكاية جزءاً من تراث الأراضي السوداء الشعبي . كانت دروغيدا قد فقدت حوالي خمس أراضيها في الحريق وخمسة وعشرين ألف رأس من الغنم ، وهذا شيء تافه بالنسبة لمزرعة مثل دروغيدا التي كان عدد قطعانها يصل في السنوات الجيدة إلى ما يقارب المئة وخمسة وعشرين ألف رأس . ولم يكن هناك من داع للشكوى من خبث القدر أو من غضب الله مهما كانت الطريقة التي ينظر بها المنكوبون إلى بلادهم . ولم يكن أمامهم إلا وسيلة وحيدة وهي أن ينسوا الخسارة ويبدأوا من جديد ، فلم تكن هذه الكارثة الأولى ولا أحد يضمن أن تكون الأخيرة .

ولكن رؤية حدائق دروغيدا عارية مكفهرة في الربيع كان شيئاً أليماً جداً . كان باستطاعتهم البقاء رغم الجفاف وذلك بفضل خزانات مايكل كارسون ، أما الحرائق فلا تترك شيئاً حياً . حتى الوستاريا عجزت عن التزهير ، فعندما بلغتها النيران كانت

عناقيدها الغضة قد تكونت بالكاد، وقد تدلت الآن جافة ممزقة. أما الورود فقد كانت متجعدة، والبنفسج ميتاً، والشجيرات تبدو وكأنها قد تحولت إلى قش أسمر. وأحنت الفوشيا رأسها ببؤس في الزوايا الظليلة، ولا أمل لها في تجديد شبابها، وذبلت نباتات الجصية ويبست البسلة الحلوة تماماً ولم يعد لها أية رائحة. وقد عوضت الأمطار الغزيرة التي تلت الكارثة الماء الذي فرغ من الخزانات وقت الحريق وهكذا فقد كان كل من سكان دروغيدا يضحي بدقائق من وقت فراغه النادر ليساعد العجوز توم حتى يعيد الحديقة إلى ما كانت عليه.

وقرر بوب أن يتبع سياسة بادي نفسها باستخدام يد عاملة متعددة في دروغيدا، وأضاف ثلاثة مربيي مواشي إلى ما عنده، وكانت ميري كارسون تصر على عدم إبقاء أية يد عاملة غريبة بشكل مستمر في دروغيدا، وتفضل استئجار بعض العمال الإضافيين أثناء التجمعات الكبيرة في زمن الوضع والجز، ولكن بادي شعر بأن الرجال يشتغلون بطريقة أفضل عندما يعلمون أن عملهم دائم. والحقيقة أن الفرق لم يكن كبيراً في الحالتين إلا أن معظم العمال المربين كانوا مصابين بمرض التنقل وما كانوا يبقون طويلاً في مكان واحد.

كانت المنازل الجديدة التي بنيت بعيداً عن الجدول تؤوي الرجال المتزوجين، وكان العجوز توم يسكن في منزل جديد مؤلف من ثلاث غرف تحت شجرة فلفل خلف مرابط الخيول، وكان يطير فرحاً كلما دخله وفكر بأنه ملكه. أما ميغي فقد تابعت عملها في المراعي الداخلية، وتابعت «في» الاهتمام بحساباتها. ومثل بادي من قبل، ظلت «في» على اتصال بالأب رالف، وبما أنها كانت مخلصة لنفسها فقد كانت تعجز عن الادلاء لمن حولها بمحتوى الرسائل المتبادلة بينهما إلا ما يتعلق منها بإدارة المزرعة؛ وكانت ميغي تتلهف لاستراق هذه الرسائل وقراءتها بنهم، ولكن «في» لم تعطها الفرصة لذلك فقد كانت تضعها في صندوق حديدي وتقفل عليها في اللحظة التي تنتهي فيها من قراءتها وتفهم فحواها. وبعد وفاة بادي وستو لم يبق هناك مجال لبلوغ «في». أما بالنسبة لميغي ففي اللحظة التي أدار فيها الأب رالف ظهره نسيت «في» كل ما وعدته به. وكانت ميغي ترد على الدعوات إلى الحفلات الراقصة برفض مهذب، وأدركت أمها هذا ولكنها لم تناقش الأمر معها أبداً ولم تخبرها أن عليها الذهاب إلى هذه الحفلات. كان «ليام أوبروك» يغتنم كل فرصة ليمر بالسيارة إلى دروغيدا، و«اينوك ديفيز» يتصل هاتفياً باستمرار وكذلك «كونور

كارمايكل » و« الستير ماكوين » . ولكن ميغي كانت بعيدة جداً وباردة مع الجميع إلى أن يئسوا من اجتذاب اهتمامها .

كان الصيف رطباً جداً دون تلك الفيضانات الطويلة التي تؤدي إلى طوفان ، بل ما يكفي لكي تبقى الأرض موحلة باستمرار ولكي يجري نهر « البارون ــــ دارلينغ » البالغ ألفين وأربعمئة وخمسين كيلو متراً عميقاً ، عريضاً ، قوياً . وعندما أتى الشتاء ظلت الأمطار تهبط متقطعة ، وكانت الستائر البنية المتطايرة مكونة من المطر وليس من الغبار . أما الأزمة الاقتصادية التي دفعت مئات الرجال على الطرقات فقد خفّت حدتها وأصبح السير على طرقات السهول السوداء في موسم المطر شيئاً جهنمياً . وإضافة إلى المطر كان هناك البرد القارس مما كان يؤدي إلى انتشار النزلات الصدرية بين المشردين الذين لا يجدون سقفاً دافئاً يؤويهم .

كان بوب قلقاً وبدأ يخشى تعفن حوافر القطعان إذا ما استمر الطقس على تلك الحال . فخرفان الميرينوس لم تكن تتحمل رطوبة الأرض دون الإصابة بداء ما في حوافرها . وكان الجز شبه مستحيل لأن الجزازين رفضوا لمس الصوف الرطب . وإن لم

يجف الوحل قبل موسم الوضع فسينفق الكثير من النعاج والحملان في الأرض الرطبة المستنقعية.

○

رنّ جرس الهاتف وكان الرنين لدروغيدا، صوتان طويلان عقبهما صوت قصير، وأجابت عليه «في».

ــ بوب، إنه لك.

ــ هالو جيمي، هذا بوب يتكلم... نعم، جيد.... آه هذا حسن، عنده شهادات طيبة؟... حسناً، أرسله إلى هنا لمقابلتي... إذا كان جيداً بهذا الشكل فيمكنك أن تخبره بأنه قد حصل على العمل، ولكني أريد أن أراه بنفسي، أنا لا أشتري السمك في الماء ولا أثق بالشهادات... حسناً، شكراً.

وجلس بوب ثانية:

ــ هناك مربي ماشية جديد في طريقه إلينا، وهو رجل جيد حسب قول جيمي. كان يعمل في سهول كوينزلاند الغربية قرب لونغريتش وشارلفيل، وكان قائد قطعان أيضاً. إن بحوذته شهادات تثبت كفاءته في عمله كما أن بمقدوره أن يمتطي كل ما يمشي على أربعة قوائم، وهو مروض خيول بارع وقد عمل جزازاً

في الماضي ويبدو أنه بارع فقد كان ينهي مئتين وخمسين خروفاً يومياً، على حد قول جيمي، وذلك يدهشني قليلاً، فما الذي يدفع جزازاً ماهراً مثله لأن يقبل بأجر مربي ماشية بسيط؟ ومن النادر جداً أن يستبدل جزاز مقصه بسرج حصان. على كل يمكن الاستفادة من هذا الشاب في المراعي.

كانت لهجة بوب على مر السنين قد أصبحت استرالية بحتة ومتباطئة، ولكن عباراته بقيت قصيرة بالمقابل، وكان يقترب من الثلاثين وقد خاب أمل ميغي برؤيته مفتوناً بإحدى الفتيات اللواتي يقابلهن في الاحتفالات التي كان الأدب يجبره على حضورها، ولذلك سببان، الأول خجله الشديد، والثاني أنه كان يبدو مستغرقاً بكامله في الأرض ولا يريد أن يقاسمه حبها أحد. وكان الشبه بينه وبين هوغي وجاك يزداد كلما كبر هذان الآخران، والواقع أنهم كانو يبدون كتوائم ثلاثة عندما يجلسون سوية على أحد المقاعد الرخامية الصلبة وذلك هو التنازل الوحيد الذي كانوا يقومون به للاستفادة من وسائل الراحة في البيت. وكان يبدو عليهم أنهم يفضلون الإقامة تحت الخيام في المراعي وعندما كان عليهم أن يناموا في المنزل فقد كانوا يتمددون على أرض غرفتهم خوفاً

من أن يرخي السرير عزائمهم. كانت الشمس والريح والجفاف قد صبغوا بشراتهم الشقراء المنمشة فتحول لونها إلى ما يشبه الاكاجو المرقش اضاءته عيونهم الزرقاء الهادئة وقد أحاطت بها أخاديد عميقة تنبىء عن سنوات طويلة قضوها في النظر إلى البعيد عبر الأعشاب الفضية. ومن المستحيل تقريباً أن تحزر أعمارهم أو تميز كبيرهم من صغيرهم فقد ورث الثلاثة أنف بادي الروماني ووجهه اللطيف ولكن أجسادهم كانت أفضل من جسم بادي الذي كان قد توقف عن النمو واستطالت ذراعاه بسبب السنوات الطويلة التي أمضاها في جز الأغنام. وعوضاً عن هذا فقد اكتسبوا جمال الفرسان الرشيق النادر، ولم تكن النساء ولا الرخاء أو المتعة تجتذبهم أبداً.

ــ «هل الرجل الذي وصل أخيراً متزوج؟» سألت «في» وهي ترسم خطوطاً مستقيمة بمسطرتها.

ــ لست أدري، لم أسأل، سأعلم ذلك عندما يأتي غداً.

ــ كيف سيصل إلى هنا؟

ــ سوف يقوده جيمي، فهو يريد أن يرى الخرفان المسنة في تانكستاند.

ـ حسناً، آمل أن يبقى طويلاً. إن لم يكن متزوجاً فهو ولا شك سيرحل بعد بضعة أسابيع. فهؤلاء المربون ملاعين لا يستطيعون البقاء في مكان واحد.

كان جيم وباتسي قد ذهبا إلى معهد ريفرفيو كطالبين داخليين وهما يقسمان أنهما لن يبقيا في المدرسة يوماً واحداً بعد بلوغهما الرابعة عشرة، وهي السن القانونية، وكانا يتحرقان شوقاً لليوم الذي يكون فيه بإمكانهما أن يعملا في المراعي مع بوب وجاك وهوغي، وعندها تصبح دروغيدا ثانية في يد العائلة ويستطيع الغرباء أن يأتوا ويرحلوا كما يشاؤون. وإذ كانا مولعين بالقراءة مثل كل أفراد العائلة، فلم يعزز هذا محبتهما لريفوفيو. فالكتاب يمكن وضعه في خرج الحصان أو في جيب السترة وقاعة المطالعة في المدرسة اليسوعية لا تعطيك اللذة العظيمة التي تشعر بها عندما تستلقي عند الظهيرة في ظل شجرة ويلغا وأنت تقرأ كتاباً. كان التغيير قاسياً جداً عليهما، فالمدرسة الداخلية، وقاعات الدرس ذات النوافذ الزجاجية الكبيرة، وساحات اللعب المعشوشبة الفسيحة، والحدائق الغنية، ووسائل الراحة لم تكن كلها تعني شيئاً بالنسبة لهما ولا سيدني بكل متاحفها، وقاعاتها الموسيقية

ومعارضها الفنية. وعقدا صداقات مع أولاد المزارعين الآخرين وكانا يمضيان أوقات فراغهما في الحنين إلى المنزل أو في التغني بمساحة وروعة دروغيدا أمام رفاقهم وقد مد هؤلاء أعناقهم وكلهم آذان صاغية، ولم يكن أحد شرقي «بارن جنكشن» يجهل عظمة دروغيدا.

مرت أسابيع قبل أن ترى ميغي مربي الماشية الجديد. وكان اسمه قد دخل سجلات المزرعة بشكل نظامي وقد بدأ الجميع يتحدثون عنه في المنزل الكبير أكثر مما يفعلون عادة. والسبب في ذلك هو أنه رفض أن يعيش في السقيفة مع العمال الآخرين العازبين واختار المسكن الوحيد الذي ما زال فارغاً في أعلى الجدول. وكان هناك سبب آخر أيضاً، فقد قدم نفسه للسيدة سميث ونال رضاها مع أنها عادة لا تأبه بمربيي المواشي وأثار فضول ميغي قبل أن تقابله بمدة طويلة.

وبما أنها كانت تحتفظ بفرسها الكستنائية وبالجواد الأسود في الاسطبلات وليس في المرابط الخارجية، وكانت تبدأ عملها في الصباح في وقت متأخر أكثر من الرجال فقد كانت تمر أوقات طويلة لا تقابل فيها أحداً من المأجورين. ولكنها أخيراً التقت

بـ «لوك أونيل» في وقت متأخر من بعد ظهر أحد الأيام، وكانت أشعة شمس الصيف تتساقط حمراء على الأشجار، والظلال قد تطاولت واقترب النهار بلطف من نهايته. كانت في طريق عودتها من مرعى «رأس البئر» وقد اقتربت من المعبر فوق الجدول، وكان هو يتقدم من بعيد، من الجنوب الشرقي ويتوجه أيضاً إلى المعبر.

كانت الشمس في عينيه ولهذا فقد رأته قبل أن يراها هو، وكان يمتطي جواداً ضخماً خبيثاً، كستنائي اللون بينما كان الشعر أسود على عنقه وذيله وأطرافه. كانت تعرف الحيوان جيداً لأنها هي التي تقوم بإرسال الجياد إلى العمل، كلاً بدوره، وقد مضت مدة لم تر فيها هذا الحيوان. لم يكن أحد من الرجال يرغب به وكانوا يتجنبون ركوبه ما استطاعوا، وكما يبدو فلم يكن العامل الجديد متكدراً من هذا مما يدل على أنه فارس ماهر، فهذا الحيوان مشهور بشراسته وقد اعتاد أن يعضّ رأس راكبه في اللحظة التي يترجل فيها هذا عن ظهره. من الصعب أن تحدد قامة شخص ما بينما هو جالس على ظهر فرس فقد كان مربو الماشية الاستراليون يستخدمون سروجاً انجليزية صغيرة منخفضة خلافاً للسروج الأميريكية، كما أنهم يطوون ركبهم عند الركوب ويجلسون وظهورهم

مستقيمة. كان الرجل الجديد يبدو طويل القامة، ولكن الطول يكون أحياناً في الجذع، بينما تبقى الساقان قصيرتين بدون أي تناسق مع البقية ولهذا فقد احتفظت ميغي بحكمها على الرجل. ومع ذلك، وخلافاً لبقية العمال فقد كان يرتدي قميصاً أبيض وبنطالاً من المخمل الأبيض المضلع. ما هذه الأناقة كلها! فكرت ميغي باستغراب، أتمنى له حظاً سعيداً، يبدو أن الغسل والكي لا يزعجانه كثيراً.

ـــ «نهارك سعيد يا سيدتي» قال بينما كانا يتجهان نحو المعبر، كل من جهة، ورفع قبعته القديمة المصنوعة من اللباد الرمادي ثم أعادها إلى رأسه ودفعها إلى الوراء بغرور.

ونظر إلى ميغي بعينين زرقاوين ضاحكتين دون أن يحاول إخفاء إعجابه واقترب منها:

ـــ «حسناً إنك لست السيدة بالتأكيد، إذن لا بد أن تكوني الابنة، أنا لوك أونيل».

وتمتمت ميغي بكلمات غير مفهومة ولكنها لم تنظر إليه، فقد كانت مضطربة وغاضبة، ولم يسعها أن تجد موضوعاً خفيفاً مناسباً للحديث. آه، إن ذلك ظلم! كيف يجرؤ أحد أن يملك

عيني ووجه الأب رالف! لا، إنها ليست طريقته في النظر إليها، ومرحه كان شيئاً من طبيعته، ولم يكن حبها متوقداً في عينيه، فمنذ اللحظة الأولى التي رأت فيها الأب رالف راكعاً في الغبار في محطة غيللي، رأت ميغي الحب في عينيه. ولكن، وأن تنظر في عيني هذا الشاب الواقف أمامها ولا تراه «هو»، فتلك كانت مزحة قاسية لا بل عقاباً.

ودون أن يفطن إلى الأفكار التي كانت تدور في رأس رفيقته، ظل لوك أونيل يسير بجواده الشرير بمحاذاة فرس ميغي الوديعة بينما كانا يشقان طريقهما عبر ماء الجدول الذي تناثر حول حوافر الجوادين، فقد كان الجدول يجري قوياً بفعل الأمطار الغزيرة. إنها رائعة الجمال، نعم! وهذا الشعر الذي كان يبدو بلون الجزر على رؤوس شباب كليري كان شيئاً مغايراً تماماً على رأس هذه الشابة. آه، لو أنها ترفع عينيها فقط وتعطيه فرصة ليرى وجهها بوضوح! وعندما بلغ هذه النقطة من أفكاره، رفعت رأسها وعلى وجهها تعبير جعله يقطب حاجبيه بحيرة؛ لم يكن تعبير كره تماماً وإنما بدت له كأنها تحاول أن ترى شيئاً ولا تستطيع! أو كأنها رأت شيئاً وتمنت لو لم تكن قد رأته. لا يهم. ولكن هذا الشيء أقلقها على كل حال. ولم يكن لوك معتاداً أن تزنه

امرأة في ميزانها وتجده ناقصاً. وتزايد اهتمامه بما بدا عليها من استياء وخيبة أمل وقد تعلقت عيناه بشعرها الذهبي كالغسق وعينيها الوادعتين. وكانت لا تزال تنظر إليه وقد انفرج فمها الوردي قليلاً وتندت شفتها العليا وجبينها بغشاوة حريرية من العرق، فالحر كان شديداً. وتقوس حاجباها الذهبيان بعجب وتساؤل. وابتسم لوك ابتسامة عريضة كاشفاً عن أسنان الأب رالف الكبيرة البيضاء، ولكن الابتسامة لم تكن ابتسامة الأب رالف:

ــ هل تعلمين أنك تبدين كالأطفال تماماً، وكل وجهك ينطق بالدهشة والتساؤل؟

وأشاحت بنظرها وهي تقول:

ــ إني آسفة، لم أقصد أن أحدق بك هكذا ولكنك تذكرني بشخص آخر، هذا كل ما في الأمر.

ــ حدقي ما شئت. ذلك أفضل من النظر إلى قمة رأسك، رغم جمال هذا الرأس. وبمن أذكرك؟

ــ لا أهمية لذلك. ولكن من الغريب أن ترى وجهاً مألوفاً جداً وفي الوقت نفسه غريباً تماماً.

ــ ما اسمك يا آنستي الصغيرة؟

ـــ ميغي .

ـــ ميغي .. إن هذا الأسم لا يناسبك مطلقاً وليس به أي نوع من الوقار . كنت أفضل أن يكون اسمك بيليندا أو مادلين ، ولكن إذا كان « ميغي » أفضل ما عندك فسأعتاد عليه . أهو تصغير لاسم مارغريت ؟

ـــ كلا ، ميغان .

ـــ آه ، حسناً ، هذا أفضل . سأناديك ميغان .

ـــ « آه ، كلا ، لن تفعل » أجابت بحدة . « إني أكرهه » .

ولكنه اكتفى بالضحك :

ـــ إنك استقلالية جداً يا آنستي الصغيرة ميغي . ولو رغبت في أن أناديك بـ « استاشيا سوفرونيكا أوغستا » لفعلت .

كانا قد بلغا مرابط الخيول ، وترجل عن حصانه وهو يوجه لكمة لرأسه النزق فيخفضه ، ووقف ينتظر أن تمد له يدها لكي يساعدها في الترجل ، ولكنها همزت جوادها بقدميها وانطلقت تصعد الدرب نحو الاسطبلات .

ـــ « إنك حتماً لا تضعين السيدة الوقور مع أحصنة العمال المساكين ؟ » قال وهو يناديها بصوت مرتفع .

ــ « حتماً لا » أجابت بدون أن تستدير .

آه كلا ، لم يكن هذا عدلاً . كان يشبه الأب رالف حتى عندما ترجل ووقف على قدميه ، بقامته الفارهة وكتفيه العريضتين ، وردفيه النحيلين ، بالرشاقة نفسها وإنما من نوع مختلف . فالأب رالف كان يتحرك كراقص ، أما لوك أونيل فيتحرك مثل رياضي . وكان شعره أسود كثيفاً مجعداً ، وعيناه زرقاوين ، وأنفه دقيقاً مستقيماً ، وفمه مرسوماً بعناية ، تماماً كالأب رالف . ومع ذلك فالشبه بينهما لم يكن أقوى من الشبه بين شجرة صمغ رمادية طويلة رائعة وشجرة صمغ زرقاء طويلة ، شاحبة ورائعة هي الأخرى .

وبعد ذلك اللقاء التصادفي أخذت ميغي تصغي بانتباه إلى الآراء والأقاويل المتعلقة بلوك أونيل . كان بوب وأخوته مسرورين من عمله ويبدون على وئام معه ، والظاهر أنه لم يكن كسولاً ، على حد قول بوب . وقد تكلمت عنه « في » نفسها ذات مساء فقالت أنه شاب وسيم جداً .

ــ هل يذكرك بأحد؟ سألت ميغي بشيء من اللامبالاة ، وهي مستلقية على بطنها فوق السجادة تقرأ كتاباً .

وفكرت « في » في السؤال قليلاً :

ـــ حسناً ، أظن أنه يشبه الأب دو بريكاسار نوعاً ما . البنية نفسها واللون نفسه . ولكن الشبه غير لافت للنظر ، فهما نوعان مختلفان تماماً . ميغي ، كم أودّ لو أنك تجلسين في مقعد كسيدة حقيقية وتقرئين . يجب عليك ألا تنسي الحشمة تماماً لأنك ترتدين بنطال ركوب .

ـــ « أوف ! » قالت ميغي . « وهل ينتبه أحد لهذا ! » .

كان الأمر إذن هكذا ، كان هناك شبه بينهما ، ولكن الرجلين كانا مختلفين تماماً وراء مظهرهما الخارجي ، ولم يخدع أحد إلا ميغي بهذا لأنها كانت مغرمة بأحدهما ، ومستاءة لأنها وجدت الثاني جذاباً . واكتشفت أنه كان الأثير المفضل في المطبخ ، كما فهمت لماذا كان يسمح لنفسه بارتداء ملابس بيضاء في المراعي ، فقد كانت السيدة سميث نفسها تغسلها وتكويها له وقد غلبها سحره المضلل .

ـــ « آه ، يا له من إيرلندي رائع ! » تنهدت ميني بنشوة .

ـــ « إنه استرالي » أجابت ميغي بتحدٍ .

ـــ ربما قد ولد هنا يا آنستي العزيزة ، ولكن الأسم الذي يحمله

«أونيل» إيرلندي أكثر بكثير من خنازير بادي، ولا أقصد بذلك التقليل من احترامي للمرحوم والدك يا ميغي، أسكنه الله جناته، وجعله يغني مع الملائكة. السيد لوك ليس بإيرلندي! وما هذا الشعر الأسود إذن وهاتان العينان الزرقاوان؟ لقد كان آل أونيل ملوك إيرلندا في سابق الزمان.

ـــ كنت أظن أن الملوك من سلالة أوكونور. قالت ميغي بخبث.

وومضت عينا ميني المستديرتان الصغيرتان وهي تجيب:

ـــ حسناً يا آنسة ميغي، ولكن البلد كان كبيراً.

ـــ هيا يا ميني، إنه ليس بأكبر من دروغيدا. وعلى كل حال فإن اسم أونيل هو من مقاطعة أورانج. ليس باستطاعتك أن تخدعيني في هذا المجال.

ـــ هذا صحيح، ولكنه اسم إيرلندي عظيم وقد كان موجوداً قبل أن يفكر الاورانجيون به. وأصل الاسم من «اولستر» ولهذا فمن المنطقي أن يكون قد انتقل إلى أورانج، أليس كذلك؟ ولكن هناك أونيل آخرون في كلاندبوي، وغيرهم في مور يا عزيزتي ميغي.

وأوقفت ميغي النزاع فميني كانت قد فقدت منذ زمن بعيد

النزعة النضالية التي كانت عندها يوماً، وأصبح باستطاعتها أن تلفظ اسم «اورانج» دون أن تصاب بسكتة قلبية.

بعد هذا بأسبوع، التقت ميغي بلوك أونيل ثانية قرب الجدول، وشكّت أنه كان قد توقف عمداً هناك بانتظارها، ولكنها لم تكن تعلم ما ستفعله إذا كان الأمر صحيحاً.

ــ «نهارك سعيد» قالت وهي تنظر أمامها بين أذني الفرس الكستنائية.

ــ هناك حفلة راقصة بمناسبة موسم الجز في بريشي بول، مساء السبت المقبل. أتأتين معي؟

ــ أشكرك لدعوتي ولكنني لا أعرف أن أرقص. لا داعي إذن لذهابي.

ــ سأعلمك كيف ترقصين، بلمح البصر، ليست هذه بالمشكلة. وبما أني سأصطحب أخت سيد الدار فهل تظنين أن بوب يسمح لي باقتراض الرولز القديمة، إذا لم يسمح لي بالجديدة؟

ــ لقد قلت لك أنني لن أذهب. قالت وهي تشد على أسنانها.

ــ لقد قلت أنك لا ترقصين، وقد أجبتك أني سأعلمك. ولم

تقولي مطلقاً أنك لن تذهبي معي لو كنت ترقصين ، ولهذا فقد فهمت أنك تعترضين على الرقص وليس على رفقتـي . هل تراجعت في كلامك أم ماذا؟

ورشقته بنظرات نارية ، مستاءة جداً ، ولكنه ضحك منها :

ــ لقد أفسدك التدليل يا صغيرتي ميغان ، ولقد حان الوقت لكي تقرري كل شيء بنفسك .

ــ إنني لست مدللة .

ــ هيا ، قولي هذا الكلام لشخص آخر ! ابنة وحيدة ، وكل هؤلاء الأخوة الذين يركضون من أجلك ، ولك تلك الأرض ، والنقود ، والمنزل الأنيق والخدم؟ إني أعلم أنها ملك الكنيسة الكاثوليكية ولكن آل كليري ليسوا بالمعدمين .

« هذا هو الفرق الشاسع بينهما » فكرت بانتصار ؛ ولقد فاتها هذا حين قابلته فالأب رالف ما كان ليقع أمام الزخارف الخارجية ، أما هذا الرجل فهو بدون إحساس ولا يملك أعضاء استشعار تخبره عما يجري تحت المظهر الخارجي ، وهو يجتاز الحياة جرياً وليس في رأسه أية فكرة عن تعقيداتها وآلامها .

○

كان بوب يبدو كالمصعوق وهو يناول لوك مفاتيح الرولز الجديدة بدون كلمة، وكان قد نظر إليه لفترة بصمت ثم ابتسم:

ـــ لم أكن أعتقد أن ميغي تذهب للرقص، ولكن خذها يا لوك، وأهلاً وسهلاً! أظن أنها ستحب ذلك، المسكينة. إنها لاتخرج كثيراً وكان علينا أن نفكر بإخراجها ولكننا لسبب من الأسباب لم نفعل ذلك أبداً.

ـــ «ما هذا، ألن تأتوا، أنت وجاك وهوغي؟» سأل لوك دون أن يبدو عليه النفور من مرافقتهم.

وهز بوب برأسه برعب:

ـــ كلا، شكراً. نحن لسنا بميالين جداً للرقص.

وارتدت ميغي فستانها الزهري، بلون رماد الورود، ولم يكن عندها غيره، إذ لم يخطر ببالها أن تصرف بعض النقود الذي كان الأب رالف يكدسها في المصرف باسمها لتشتري ثياباً للحفلات والسهرات. وحتى ذلك الحين كانت قد استطاعت أن ترفض كل الدعوات التي وجهها إليها شبان مثل «اينوك ديفيز» و«الستير ماكوين»، وكان من السهولة بمكان صدهم بكلمة واحدة: لا، فلم يكن لديهم جرأة لوك أونيل.

ولكنها عندما نظرت إلى نفسها في المرآة فكرت أنها ستذهب إلى جيللي في الأسبوع المقبل عندما تقوم أمها برحلتها المعتادة إلى هناك، وتزور «غيرث» العجوز لكي تصنع لها بعض الملابس الجديدة.

ذلك أنها كانت تكره ذلك الفستان، ولو كان عندها واحد غيره مناسب ولو قليلاً، لخلعت هذا على الفور. كان يحمل ذكريات أيام مضت، ورجل أسود الشعر، ذكريات مليئة بالحب والأحلام، بالدموع والوحدة، فكيف ستدنسه بارتدائه لرجل مثل لوك أونيل! وكانت ميغي قد اعتادت على إخفاء مشاعرها، وعلى الظهور دوماً بمظهر الهدوء والسعادة. وكان ضبط النفس من حولها يزداد ويصبح أكثر سماكة من لحاء الشجر، وأحياناً، كانت تفكر بأمها أثناء الليل، وترتعش. هل ستكون نهايتها مثل أمها، بعيدة عن كل إحساس؟ وهل بدأت الأمور هكذا بالنسبة لأمها، في تلك الأيام، عندما عرفت والد فرانك؟ وماذا ستفعل أمها بحق السماء، ماذا ستقول لو علمت أن ميغي تعلم الحقيقة عن فرانك؟ آه، ذلك المشهد في منزل الكاهن في غيللي! وكأنه حدث ليلة أمس، وقد وقف الوالد وفرانك وجهاً لوجه، ورالف

يشدها بعنف حتى آلمها، بينما الآخران يلقيان لبعضهما بتلك الكلمات البشعة. وسقط كل شيء في مكانه وفكرت ميغي عندما علمت الحقيقة أنها كان تعرفها دائماً. وكانت قد كبرت وبدأت تدرك أن الأطفال لا يأتون كما كانت تظن، بل نتيجة اتصال جسدي محرّم تماماً إلا على المتزوجين. وكم من الخجل والذل تحملت أمها بسبب فرانك! لا عجب إذا كانت كما هي، فلو حصل هذا لها هي، فكرت ميغي، فستتمنى الموت بدون شك. إن الفتيات الرخيصات والحقيرات فقط ينجبن أطفالاً دون زواج، هكذا قرأت في الروايات؛ ولكن أمها ليست رخيصة ولم تكن أبداً هكذا. وتمنت من أعماقها لو أن أمها تفتح لها قلبها، أو لو كان باستطاعتها أن تناقش الموضوع معها. ربما تمكنت من مساعدتها ولو قليلاً. لكن أمها كانت شخصاً يصعب الاقتراب منه، ولم تكن تتقرب من أحد. وتنهدت ميغي لنفسها أمام المرآة وتمنت ألا يحصل لها أبداً شيء مثل هذا.

ومع أنها ما زالت صغيرة، ففي أوقات كهذه، وعندما كانت تنظر إلى نفسها بفستانها الذي بلون رماد الورود، كانت تشعر برغبة في أن تجتاحها الأحاسيس، وأن تتفجر العواطف

حولها كالريح العاصفة الحارة. لم تكن ترغب في أن تكدح طوال حياتها كآلة صغيرة لا تشعر ؛ كانت تنشد التغيير والحيوية اللذين يأتيان مع الحب. الحب، وزوج وأطفال. ما الفائدة من التوق إلى رجل لن تحصل عليه أبداً؟ إنه لا يريدها، ولن يريدها أبداً. لقد قال أنه يحبها، وإنما ليس كزوج، لأنه كان متزوجاً من الكنيسة. هل يفعل كل الرجال ذلك؟ كيف يمكنهم أن يحبوا شيئاً لا حياة فيه أكثر مما يحبون امرأة؟ كلا، ليس كل الرجال بالتأكيد. ربما من كان منهم صعباً فقط، المعقدون الغارقون في محيطات الشك والرفض والمنطق. ولكن لا بد أن يكون هناك رجال أقل تعقيداً، باستطاعتهم أن يحبوا امرأة أكثر من أي شيء آخر. رجال مثل لوك أونيل مثلاً.

ـــ «أظن أنك أجمل فتاة رأيتها في حياتي» قال لوك وهو يدير محرك الرولز.

ولم تكن ميغي معتادة على الإطراء ولهذا فقد نظرت إليه نظرة جانبية مليئة بالدهشة ولم تجب.

ـــ «أليس هذا رائعاً» سأل لوك ولم يبد عليه أنه قد انزعج على الإطلاق من فتورها. «يكفي أن تديري مفتاحاً وتضغطي على

زر في اللوحة أمامك، وها هي السيارة تتحرك، دون إدارة أية ذراع ودون أن تقعي أرضاً قبل أن يدور المحرك. هذه حياة يا ميغان، بدون أي شك».

ــ إنك لن تتركني لوحدي، أليس كذلك؟

ــ أيها الرب العظيم، كلا! إنك ترافقينني أليس كذلك؟ وهذا يعني أنك لي طيلة السهرة ولا أنوي السماح لأي مخلوق بأن يأخذك مني.

ــ كم عمرك يا لوك؟

ــ ثلاثون عاماً. وأنت؟

ــ ثلاثة وعشرون تقريباً.

ــ كل هذا! إنك تبدين كالطفلة.

ــ إنني لست طفلة.

ــ آه. هل وقعت في الحب يوماً؟

ــ مرة.

ــ أهذا كل شيء؟ في الثالثة والعشرين؟ يا إلهي. لقد وقعت في الحب أكثر من عشر مرات عندما كنت في سنك.

ــ أعتقد أنه كان علي أن أفعل الشيء نفسه، ولكني لا أقابل شباناً كثيرين في دروغيدا كي أقع في غرامهم. وأنت على ما أذكر

أول من قال لي أكثر من «مرحبـا» بين كل مربي المواشي الذين عملوا هنا.

ــ «حسناً. إذا كنت ترفضين الذهاب إلى الحفلات الراقصة لأنك لا تعرفين الرقص فستبقين وحيدة مدى الحياة، أليس كذلك؟ لا تهتمي، سوف نعالج الأمر في دقائق وعند نهاية السهرة تكونين قد تعلمت الرقص، وخلال أسابيع ستصبحين بطلة في الرقص». وألقى إليها بنظرة جانبية. «ولكن لا تقولي لي أن أحد الملاكين من جيرانكم لم يحاول أن يدعوك إلى حفلة ما. بإمكاني أن أفهم مربيي المواشي، فأنت أرفع من مستواهم بكثير، ولكن لا بد أن بعض ملوك الخراف قد حاول التقرب منك».

ــ إن كان مستواي أرفع من مستوى مربيـي المواشي فلمـاذا دعوتني؟

ــ «آه، إنني أوقح انسان على وجه الأرض» قال هذا وابتسم. «هيا، لا تغيري الحديث، لا بد أن شباناً كثيرين من غيللي قد دعونك».

ــ «نعم، بعضهم. ولكني كنت دوماً أرفض دعواتهم؛ وأنت أرغمتني على القبول».

ـ إذن لا شك أنهم أكثر غباء من أفاعٍ أليفة. أما أنا فإني اكتشفت البضاعة الجيدة من أول نظرة.

لم تكن تأبه لطريقته في الكلام، ولكن الشيء الأكيد هو أن لوك كان قوياً لا يغلب في النقاش.

وأتى الجميع إلى الحفلة الراقصة، أبناء المزارعين وبناتهم، مربو المواشي وزوجاتهم، والخادمات، والمربيات وسكان المدينة على اختلاف أعمارهم وأجناسهم. وكانت الفرص سانحة مثلاً لمعلمات المدارس للتآخي مع عمال المزارع، وأصحاب البنوك، والملاكين الحقيقيين.

أما الطرق المميزة في الكلام والسلوك فلم تكن سمة حفلات كهذه، وإنما كانت قصراً على المناسبات الرسمية. فقد جاء ميكي أوبريان من غيللي ليعزف الكمان، وكان هناك متطوعون على استعداد تام للعزف على البيانو أو الأكورديون ويتناوبون مرافقة ميكي العجوز الذي كان يجلس على أحد البراميل أو على بالة صوف ساعات بكاملها يعزف بدون انقطاع وقد سال لعابه على شفته السفلى المتدلية، فلم يكن يأخذ الوقت الكافي لابتلاعه حتى لا يتخلخل إيقاعه.

ولم تكن الرقصات من النوع نفسه الذي رأته ميغي في حفلة ميري كارسون الساهرة، وإنما كانت رقصات دورانية عنيفة مثل «الجيغ» و«البولكا» و«المازوركا»، ورقصة «الريل» الاسكتلندية، ورقصة «روجر دو كفيرليز»، حيث لا يكاد الراقصون يلمسون أيدي بعضهم وهم يدورون كالدوامة العاصفة بين الأذرع القوية. ولم يكن جو الحفلة حالماً أو ودّياً، بل كان كل من الراقصين يبدو كأنه ينفث عن كبته. أما العلاقات الغرامية الرومنطقية فكانت تجد مكانها الملائم في الخارج بعيداً عن الضجيج والصخب.

واكتشفت ميغي بسرعة أن الكثيرات كن يحسدنها على رفيقها الوسيم الذي أصبح هدفاً لنظرات الإغراء والشوق ترشقه بها كل الحسناوات تقريباً، كما كان الأمر مع الأب رالف، لا بل بطريقة مفضوحة. كما كان الأمر مع الأب رالف، كما كان الأمر. كم من القسوة أن تضطر إلى التفكير به وكأنه من الماضي.

وحافظ لوك على كلامه فلم يتركها لوحدها إلا في اللحظات القصيرة التي كان يذهب بها إلى المرحاض. كان هناك أيضاً «اينوك ديفيز» و«ليام أوبروك» يتلهفون لاحتلال مكانه

بقربها. ولم يعطهما الفرصة لذلك ولم يكن يبدو على ميغي أنها تفهم أن من حقها أن تقبل الدعوات إلى الرقص من شبان آخرين غير رفيقها. وإذ لم تسمع التعليقات فقد سمعها لوك وضحك بسره. يا لوقاحة هذا الرجل، إنه مجرد مربي مواشي وها هو يسرقها أمام عيونهما! ولكن الاستنكار لم يكن يعني شيئاً للوك، وإذا لم يستطع هذان الاثنان اغتنام الفرص التي تقدمت لهما فذلك من سوء حظهما.

كانت الرقصة الأخير رقصة «فالس»، وتناول لوك يد ميغي ووضع ذراعه حول قامتها وشدها إليه. كان راقصاً بارعاً. وبدهشة وجدت ميغي أن عليها فقط أن تتبع خطواته كما يقودها، وغمرها إحساس بالروعة لوجودها بين ذراعي رجل كهذا وهي تشعر بكل عضلة في صدره وفخذيه، وتذوب في حرارة جسده. فاللحظات التي استطاعت أن تقارب فيها الأب رالف كانت عنيفة بشكل لم تستطع معه تمييز احاسيسها، وكانت تظن بصدق أنها لن تشعر بما شعرت بين ذراعيه مع أي مخلوق آخر. ومع أن ما تشعر به الآن كان شيئاً مختلفاً جداً، فقد كان مثيراً، وتزايدت سرعة نبضها وعلمت أن هذا الشعور يأتي من الطريقة التي كان يديرها بها فجأة، ويشدها إليه ويضع خده على شعرها.

لم يتكلما كثيراً بينما كانت الرولز تتجه بخفة نحو البيت على الطريق وأحياناً على لا طريق على الإطلاق. وكانت بريتشي بول تبعد حوالي المئة كيلو متر عن دروغيدا، عبر المراعي، ولم تكن ترى بيتاً واحداً على طول الطريق ولا ضوءاً، ولا وجوداً لإنسان. ولم تكن سلسلة الهضاب التي تجتاز دروغيدا ترتفع أكثر من ثلاثين متراً عن بقية الأراضي، ولكنك عندما تبلغ أعلاها وسط السهول السوداء، كنت تظن نفسك على قمة الألب في سويسرا. وأوقف لوك السيارة وخرج ثم دار حولها ليفتح الباب الآخر لميغي التي نزلت ووقفت بقربه وهي ترتعش قليلاً. هل سيفسد كل شيء إذا حاول تقبيلها؟ كان المكان هادئاً وبعيداً عن كل شيء.

وعلى طرف الهضبة كان هناك سياج عتيق ملتو، فأمسكها لوك من مرفقها بشدة حتى لا تتعثر على الأرض الوعرة بحذائها الدقيق، وقادها عبر التراب وجحور الأرانب. وأمسكت السياج بقوة وانحنت تنظر من فوقه إلى السهول وقد انعقد لسانها، أولاً من الرعب، وثانياً من التعجب بعد أن زال خوفها إذ لم يحاول أن يلمسها.

وبوضوح كوضوح الشمس أضاء القمر الشاحب الأرض

الممتدة إلى البعد بينما كان العشب يلتمع ويتموج كتنهدات قلقة، فضياً وأبيض ورمادياً. وبرقت الأشجار فجأة كالشرر عندما قلبت الريح وجوهها اللامعة، وامتدت خلجان متسعة من الظلال تحت دغلات الشجر كأفواه العالم السفلي السرية. ورفعت ميغي رأسها تحاول أن تعد النجوم، وكقطرات الندى على نسيج العنكبوت التمعت نقاط الضوء، واختفت، على إيقاع قديم قدم الرب نفسه. وكانت تبدو معلقة فوقها كشبكة جميلة وهادئة جداً تراقب الأرواح وتتفحص دخيلتها مثل عيون الحشرات التي تتألق كالجواهر في الضوء، وتبدو عمياء لا تعبير فيها، بينما قوة نظرها لا متناهية. وكان الصوت الوحيد وسط هذا السكون هو صوت الهواء بين الأعشاب وحفيف الشجر، وأحياناً صوت معدني يصدر عن محرك السيارة الذي كان يبرد، أو عصفور قريب نعسان، أقلقا نومه فاشتكى، والرائحة الوحيدة هي عبق الأدغال الغامض. وأدار لوك ظهره لليل، وتناول علبة التبغ ودفتر ورق السجائر وبدأ يلف لنفسه سيجارة.

ــ هل ولدت هنا يا ميغان؟

سألها وهو يفرك قصاصات التبغ بين راحتيه بتكاسل.

ـــ كلا، لقد ولدت في نيوزيلاندة، ولقد أتينا إلى دروغيدا منذ ثلاث عشرة سنة.

ووضع قصاصات التبغ الناعمة في الورقة وأدارها بمهارة بين إبهامه والسبابة، ثم بلل أطرافها باللعاب وألصقها، ودفع النثرات التي تسربت إلى الخارج داخل اللفافة بواسطة عود ثقاب وأشعلها.

ـــ هل أعجبتك الحفلة الليلة يا ميغي؟

ـــ آه، نعم.

ـــ إني أود أن أصطحبك إلى كل الحفلات الراقصة.

ـــ شكراً.

وصمت من جديد وهو ينفث دخان سيغارته بهدوء وينظر من فوق السيارة إلى دغل الأشجار حيث كان العصفور الغاضب لا يزال يلغو بعصبية. وعندما لم يبق إلا طرفاً صغيراً من السيغارة بين أصابعه الملطخة بالتبغ، رماه أرضاً وسحقه بكعب حذائه بشدة حتى تأكد من أنه انطفأ تماماً. لم يكن للريفي الاسترالي مثيله في إطفاء سيغارته بمثل هذا الحرص.

وأدارت ميغي وجهها عن المنظر الغارق في ضوء القمر وهي تطلق تنهدة، وساعدها حتى عادت إلى السيارة. كان أعقل من أن يقبلها في أول علاقتهم، لأنه كان ينوي الزواج منها إذا استطاع وسيتركها تطلب القبلة بنفسها.

○

وتعاقبت الحفلات الراقصة والصيف يتقدم ويتقدم نحو نهايته في عظمة مدماة مغبرة، واعتاد من في المنزل على رؤية ميغي وقد وجدت لنفسها صديقاً وسيماً. وأمسك أخوتها أنفسهم عن مضايقتها بالسخرية أو بالأسئلة لأنهم كانوا يحبونها جداً ويستلطفون لوك وقد كان من أشد العمال الذين استخدموهم جَلَداً، ولم يكن بحاجة إلى توصيات أفضل من هذا. وإذ كان آل كليري أقرب إلى الطبقة العاملة منهم الطبقة المالكة، فلم يخطر لهم أبداً أن يحكموا عليه لأنه لا يملك شيئاً. أما «في» التي كان باستطاعتها أن تقيسه بمقياس خاص، فلم تهتم بهذا. وعلى كل حال، ولأن لوك كان يدّعي بهدوء أنه مختلف عن بقية مربيي المواشي فلقد كانوا يعاملونه كما لو كان واحداً منهم. وأصبح من الطبيعي جداً أن يصعد على الدرب المؤدية إلى البيت عندما لا يقضي الليل في المراعي؛ وبعد برهة أعلن بوب أن من السخف أن

يأكل لوك وحده بينما كان الطعام وفيراً على مائدة العائلة، وهكذا بدأ يأكل معهم. ثم بدا لهم أنه من غير المنطقي أن يقطع أكثر من كيلومتر ونصف كل مساء لينام في بيته، بعد أن يكون قد أمضى السهرة في الحديث مع ميغي والترفيه عنها، وهكذا فقد أصروا على أن ينتقل إلى أحد منازل الضيوف الصغيرة الواقعة وراء المنزل الكبير.

وخلال ذلك الوقت كانت ميغي تفكر به كثيراً، ولكن بدون استخفاف كما كانت تفعل في بدء الأمر، وتقارنه دائماً بالأب رالف. كان الجرح القديم قد أخذ يلتئم. وبعد فترة نسيت أنَّ الأب رالف كان يبتسم هكذا، بهذا الفم نفسه، بينما كان لوك يبتسم بطريقة أخرى، وأنَّ عيني الأب رالف الزرقاوين المشعتين كانتا هادئتين بينما كانت عينا لوك تلتمعان بانفعال قلق. كانت شابة ولم تكن تعرف طعم الحب رغم أنها قد ذاقته لحظة أو اثنتين. وكانت تريد أن تحتفظ بهذا الطعم على لسانها وتديره في فمها لتتذوق نكهته وتشدها إلى صدرها، وتثبتها في دماغها المشدوه.

كان الأب رالف قد أصبح المطران رالف، وهو لن يعود إليها أبداً، أبداً. لقد باعها من أجل ثلاثة عشر مليون درهم، وكان هذا

يعتمل في صدرها. لو لم يلفظ هذه العبارة بنفسه ذلك المساء عند «رأس البئر» لما تساءلت، ولكنه قالها بنفسه. وكم من ليلة استلقت وقد هجرها النوم تفكر بما يمكن أن تعنيه هذه العبارة.

وتلهفت يداها للمس ظهره عندما شدها إليه حينما كانا يرقصان، وكان يثيرها بلمساته وبحيويته المتدفقة. آه، إنها لم تشعر نحوه مطلقاً بهذا السائل الناري المظلم يتدفق في عظامها، ولم تفكر أبداً أنها إن لم تره ثانية فسوف تجف وتذوي، ولم تكن تنتفض أو ترتعش أبداً حين ينظر إليها، ولكنها بدأت تتعرف بطريقة أفضل على شبان آخرين مثل اينوك ديفيز، وليام أوبروك، والستير ماكوين، فقد كان لوك يرافقها أكثر وأكثر إلى حفلات المقاطعة، ولكن أحداً من هؤلاء الشبان لم يحرك مشاعرها كما فعل لوك أونيل. وإن كان أحدهم طويل القامة يجبرها على رفع رأسها حتى تنظر إليه، فلم يكن يملك عيني لوك؛ وإذا كانت له العينان نفسهما فلم يكن يملك الشعر نفسه. كان ينقصهم دائماً شيء ما تجده عند لوك ولكنها لم تكن تعلم بالضبط ما الذي يملكه لوك، عدا عن أنه كان يذكرها بالأب رالف، هذا ما في الأمر، وكانت ترفض أن تصدق أن انجذابها له كان نتيجة لهذا الشبه فقط.

كانا يتحدثان كثيراً، ولكن عن مواضيع عامة مثل الجز والأرض والقطعان، أو عما يريد تحقيقه في حياته، أو ربما عن الأماكن التي عرفها أو الأحداث السياسية. وكان يقرأ بعض الكتب مصادفة ولكنه لم يكن مولعاً بالمطالعة مثل ميغي، ورغم عنادها لم تستطع أن تقنعه بقراءة هذا الكتاب أو غيره فقط لأنه أعجبها. ولم يكن يوجه الحديث على الإطلاق نحو مواضيع فكرية، والشيء الأكثر إثارة للاهتمام والانفعال هو أنه لم يظهر أي اهتمام بحياتها هي، ولم يسألها عن طموحاتها. وأحياناً كانت تتوق إلى الحديث عن أشياء أقرب إلى قلبها من الخرفان والمطر ولكنها ما أن كانت تدير دفة الحديث تلك الناحية حتى يوجهه بمهارة إلى مواضيع أخرى غير شخصية.

○

كان لوك أونيل حاذقاً، مغروراً، صبوراً جداً على العمل وتواقاً لأن يكوّن لنفسه ثروة. كان قد ولد في كوخ من الأغصان والطين، على مدار الجدي تماماً، خارج مدينة لونغريتش في كوينزلاند الغربية. وكان والده النعجة الضالة في عائلة ايرلندية ميسورة الحال وإنما لا تغفر أبداً، وأمه ابنة جزار ألماني من وينتون. وعندما أصرت على الزواج من والد لوك، حرمها أهلها من الميراث

هي أيضاً، وأنجبا عشرة أولاد في ذلك الكوخ، ولم يكن أحد منهم يملك حذاء يضع قدمه فيه ولكن الحذاء لم يكن ضرورياً في لونغريتش المحرقة. وتوفي والد لوك الذي كان يكسب رزقه من الجز عندما يستسيغ ذلك ــ ولكنه لم يكن يستسيغ إلا شرب الروم ــ، وقد مات في حريق شب في حانة بلاكبول عندما كان لوك الصغير لا يزال في الثانية عشرة من عمره. وما أن أصبح ذلك بمقدوره حتى التحق بمراكز الجز كصبي مساعد يضع القطران الذائب على جروح الأغنام عندما كانت يد أحد الجزازين تنزلق فوق الجلد وتمزقه مع الصوف.

ولم يكن لوك يخشى العمل القاسي وكان ينجح به كما كان غيره ينجح بعكسه، ولم يكن أحد يعلم سر هذا النجاح، فهل ذلك لأن والده كان سكيراً ومهزلة للمدينة، أم لأنه ورث عن أمه الألمانية حب العمل؟

وعندما كبر ارتفع مركزه من صبي مضمد إلى مساعد في سقيفة الجز، يجري إلى جانب المنصة ليقبض على الجزة الثقيلة عندما تهوي عن الحيوان قطعة واحدة منتفخة كالأشرعة، ويحملها إلى منضدة اللف حيث كانت تُطوى. وهكذا تعلم كيفية لفّ

الجزز الصوفية بعد تخليصها من القاذورات العالقة بها قبل أن يحولها إلى المصنف الذي كان أهم العاملين في السقيفة، فقد كان مثل متذوق الخمور أو مختبر العطور، لا يمكن أن يقوم بعمله ما لم يكن عنده موهبة لذلك. ولم يكن لوك يملك هذه الموهبة وليس أمامه إلا أن يمتهن الجز أو ضغط الصوف إذا كان يريد أن يكسب مالاً وفيراً، وهذا ما كان يريده حتماً. كان يملك قوة كبيرة تؤهله للقيام بضغط الصوف ورصّ الجزز المرقمة في بالات ضخمة. ولكن الجزاز الماهر كان بإمكانه أن يكسب مالاً أكثر.

وفي ذلك الوقت كانت شهرته قد ذاعت في كوينزلاند الغربية كعامل لا يكل، وهكذا لم يجد صعوبة في الالتحاق بمعلم، فبإمكان رجل يملك الرشاقة والتنسيق والقوة والجلد، أن يصبح جزازاً بارعاً؛ وكان لوك يمتلك كل تلك الصفات. وسرعان ما أصبح بإمكانه أن يجز مئتي رأس كل يوم، ستة أيام في الأسبوع، وكل مئة بجنيه، وكل هذا بالمقص اليدوي ذي الرأس الرفيع والذي يشبه العظّاءة، لأن مقصات الجز العريضة الشفرة كانت ممنوعة في استراليا رغم أنها كانت تضاعف الانتاج. كان العمل مرهقاً إذ كان عليه أن ينحني بقامته الطويلة فوق الحيوان وقد أمسكه بين

ركبتيه، ويمر بمقصه في ضربات تمتد على طول جسم الخروف لينزع الصوف قطعة واحدة بملاصقة الجلد وبدون أن يجرح الحيوان فيحظى هكذا بإعجاب المراقب الذي كان ينقضّ فوراً على أي جزاز لا يتبع تعليماته الصارمة. لم يكن يهمه الحر ولا العرق ولا العطش الذي كان يجبره على شرب أكثر من ثلاث غالونات من الماء في اليوم، ولم يكن يأبه حتى لطوابير الذباب المؤلم، لأنه كان قد ولد في بلد الذباب. ولا الخراف كانت تهمه، وهي كابوس الجزازين بأجمعهم تقريباً، فقد كانت تأتي من كل الأنواع والأحجام وكلها من الميرينوس وهذا يعني أن الصوف كان يغطي الخروف من رأسه حتى حافريه فوق جلده الحساس الذي كان ينزلق تحت الأصابع.

كلا. لم يكن العمل ذاته هو الذي يقلق لوك، لأنه كلما اشتغل بجهد أكبر، كلما أحس بأنه أفضل حالاً؛ أما الذي كان يضايقه فهو الضجة، والرائحة الكريهة، والإحساس بأنه في سجن. لم يكن هناك مكان على الأرض يشبه جحيم سقيفة الجزّ. وهكذا فقد قرر أنه سيصبح هو السيد المغرور الذي يتمشى ذهاباً وإياباً بين صفوف الجزازين المنحنين، لكي يراقب الجزز التي يملكها هو، ترتمي عن الخراف في حركة رشيقة متناسقة.

كانت أغنية الجزازين القديمة تقول :

في طرف الغرفة البعيد ، وعلى مقعده الخيزراني
كان السيد يجلس وعيناه في كل مكان .

وهذا ما قرر لوك أونيل أن يكون ، السيد ، الأهم ، مربي المواشي والملاك . فهو لن يقضي عمره منحنياً وذراعاه ممدودتان تجزان الخراف . كان يرغب في لذة العمل خارجاً ، في الهواء الطلق وهو ينظر إلى المال يتدفق في صناديقه . ولم يبق لوك داخل سقيفة الجزّ إلاّ أملاً منه في أن يصبح جزازاً عظيماً ، واحداً من أولئك الرجال النادرين الذين باستطاعتهم جزّ أكثر من ثلاثمئة خروف ميرينوس في اليوم الواحد بالمقص الرفيع . وكان هناك من يراهن على الجزازين ويحصل على ثروة من رهانه ، ولكن لوك ، لسوء حظه كان أطول بقليل مما يجب ، وكانت الثواني القليلة التي يأخذها للانحناء تشكل الفرق بينه وبين جزاز آخر بارع هو أيضاً .

وطفق يبحث ضمن إمكاناته عن طريقة تمكنه من الوصول إلى ما يطمح إليه ، وفي تلك الفترة من حياته اكتشف أثر سحره على النساء ، وكانت أول تجربة له عندما كان يعمل كمربي ماشية في « غنار لونغا » وكانت وريثة المزرعة أنثى ، جميلة لا بأس بها ،

وصغيرة في السن، ولكنها، لسوء حظه، فضلت عليه آخر الأمر عاملاً انجليزياً كانت مغامراته الغريبة قد أصبحت اسطورة الريف. وغادر لوك «غنارلونغا» وذهب إلى «بينغيللي»، وحصل على عمل مروض خيول، وأصبح المنزل هناك محط أنظاره وكانت الوريثة البشعة المسنة تعيش به مع والدها الأرمل. وكاد يكسب قلب «دوت» المسكينة ولكنها اضطرت أن تخضع لرغبات والدها وتتزوج من عجوز في الستين من عمره لا يزال رشيقاً وكان يملك المزرعة المجاورة.

وكلفته هاتان التجربتان ثلاث سنوات من عمره، ووضح له أن العشرين شهراً التي أمضاها في التخطيط لكل من الوريثتين، كانت طويلة ومملة. وسيكون من الأنسب له أن يتجول قليلاً في طول البلاد وعرضها دون أن يستقر إلى أن يصادف خلال تحركاته الواسعة إمكانية أكثر احتمالاً. وبلذة عظيمة اندفع على طرقات كوينزلاند الغربية نحو «الكوبر» و «الديامنتينا»، وعبر الـ «براكو» و «الأوفرفلو» وهو يقترب من الزاوية الغربية لويلز الجنوبية الجديدة. كان قد أصبح في الثلاثين من عمره ولقد حان الوقت لكي يعثر على الدجاجة التي ستبيض له أخيراً جزءاً من بيضه الذهبي على الأقل.

وكان الجميع قد سمعوا بدروغيدا ولكن أذُنا اوك انتصبتا عندما علم أن هنالك ابنة وحيدة. لم يكن هناك من أمل في أن ترث المزرعة، ولكن ربما منحها أهلها ما يكفي لشراء أربعين ألف هكتار من الأرض حول كينونا ووينتون، مهر متواضع.

كانت الأرض حول عَبللي طيبة ولكنها صعبة ومشجرة جداً بالنسبة للوك، وكان يتوق لأراضي كوينزلاند الغربية الهائلة الاتساع، حيث العشب يمتد إلى اللانهاية وحيث الانسان لا يتذكر إلا بصعوبة وجود بعض الأشجار في الجهة الغربية. لم يكن هناك إلا الأعشاب، لا بداية لها ولا نهاية؛ ويستطيع المرء لحسن الحظ أن يخصص أربعة هكتارات لخروف واحد. لأنه، أحياناً، لم يكن هناك أي عشب، وإنما أرض صحراوية مشققة، وتراب أسود. الأعشاب، والحر، والشمس والذباب. ولكل انسان فردوسه، وقد كان هذا فردوس لوك أونيل.

كان قد استخلص بقية معلوماته من جيمي سترونغ، وكيل المزارع والمحاصيل الذي قاده إليها للمرة الأولى، وقد كانت صدمته قوية عندما اكتشف أن الكنيسة الكاثوليكية هي التي تملك دروغيدا. ومع ذلك فقد كان يعلم ندرة الوريثات الاناث، وعندما

تابع جيمي حديثه وأخبره أن الفتاة كانت تملك مبلغاً لا بأس به من المال وأخوة ميسوري الحال، قرر أن يتابع خطته.

ورغم أن لوك كان قد قرر أن هدف حياته هو استملاك أربعين ألف هكتار حول كينونا أو وينتون، وعمل بكل ذهنه وحماسَه ليحقق هذا الهدف، فالحقيقة أنه كان في أعماقه يحب النقود لنفسها أكثر بكثير مما كان يحبها لقيمتها الشرائية. لم يكن يرغب في ملكية الأرض، ولا في القوة التي تعطيها هذه الملكية، وإنما في منظر قوائم متراصة من الأرقام في حساب في المصرف باسمه. لم يكن قد استقتل من أجل غنارلونغا أو بينغيللي، وإنما من أجل ما تمثلانه من أرقام. فالرجل الذي يرغب أن يكون سيداً متغطرساً ما كان ليفكر في ميغي كليري التي لم تكن تملك سنتمتراً واحداً من الأرض، وما كان ليحب العمل الجسدي القاسي كما كان يفعل لوك أونيل.

كانت الحفلة الراقصة في قاعة الصليب المقدس في غيللي هي الثالثة عشرة من نوعها التي ترافق بها ميغي لوك أونيل خلال الثلاثة عشر أسبوعاً الأخيرة. كيف كان يكتشف وجود هذه الحفلات والحصول على الدعوات، هذا ما لم تعرفه ميغي

الساذجة، ولكنه كان يطلب من بوب مفاتيح الرولز كل مساء سبت، ويصطحب ميغي إلى حفلة ما وأحياناً على بعد مئتي كيلومتر.

كانت الليلة باردة مظلمة عندما وقفت ميغي قرب أحد الأسيجة تنظر إلى المنظر الممتد أمامها، وكانت تشعر بالصقيع يتكسر تحت قدميها والشتاء يقترب. وأحاط لوك كتفيها بساعده وشدها إليه.

ــ إن البرد قارس ومن الأفضل أن أعيدك إلى البيت.

ــ كلا، لم أعد أشعر بالبرد الآن. أجابته وهي تلهث. وأحست بتغير فيه، بذراعه التي كان قد وضعها خلف ظهرها برخاوة وفتور. ولكنها كانت مسرورة بأن تستند إليه وتشعر بالحرارة المشعة من جسده، وبشكل هذا الجسد. ومن خلال معطفها كانت تشعر بيده وهي تدور في حلقات صغيرة تداعب كتفيها برفق، لمسات متسائلة مترددة. ولو قالت له في تلك اللحظة أنها تشعر بالبرد، لتوقف حالاً، ولكنها لم تقل شيئاً، وهذا يعني أنها أعطته الاذن بالمتابعة. كانت صغيرة متشوقة بعنف لتتذوق الحب. وكان لوك هو الرجل الوحيد الذي أثار اهتمامها بعد

رالف، إذن لماذا لا تجرب القبلات وطعمها؟ ولكن ليت هذه القبلات تكون مختلفة، مختلفة عن قبلات رالف.

وبما أن صمتها كان علامة الرضى فقد وضع لوك يده الأخرى على كتفها، وأدارها لكي تصبح بمقابلته وأحنى رأسه يقبلها. هل كان هذا حقاً ما تحس به الشفاه؟ لم يكن أكثر من ضغط على فمها! وماذا عليها أن تعمل لكي تعبر له عن رضاها؟ وحركت شفتيها تحت شفتيه وتمنت لو أنها لم تفعل، فقد ازداد الضغط على فمها وفتح هو فاه على سعته، وأجبرها على إفراج شفتيها بلسانه وأسنانه، وأخذ يدور لسانه داخل فمها. شيء مقزز. لماذا بدت لها قبلة رالف مختلفة تماماً؟ لم تلاحظ وقتها أن القبلة كانت مبللة باللعاب بهذا الشكل، ومثيرة للغثيان، لم تكن تفكر مطلقاً في ذلك الحين، بل تركت نفسها تتفتح كما تتفتح الزهرة تحت أصابع الربيع. وماذا يفعل هذا بحق السماء؟ لماذا يقفز جسدها بهذا الشكل؟ لماذا يتعلق به بينما عقلها يرغب بعنف في التراجع؟

ووجد لوك النقطة الحساسة في جنبها ووضع أصابعه عليها لإثارتها، ولكنها لم تكن متحمسة لما يفعله. وأوقف قبلته فجأة

ووضع فمه على جانب عنقها، وبدا عليها أنها تفضل هذا، وارتفعت يداها حوله وشهقت، ولكنه عندما انزلق بشفتيه إلى حنجرتها ويده تحاول في الوقت نفسه أن تعري كتفها، دفعته بشدة وابتعدت عنه مسرعة.

ــ هذا يكفي يا لوك.

كانت قد أصيبت بالخيبة، وشعرت بالاشمئزاز مما حصل، وقد فهم لوك هذا جيداً بينما كان يساعدها على الصعود إلى السيارة. ولف سيغارة كان بأشد الحاجة إليها. كان يتخيل نفسه بارعاً في الغرام ولم تشتكِ منه أي من الفتيات اللواتي عرفهن، ولكن تلك الفتيات لم يكنّ سيدات مثل ميغي. حتى «دوت ماكفرسون» وريثة بينغيللي، وهي أثرى بكثير من ميغي، فقد كانت فظة مثل كيس خيشي، ولم تكن قد ذهبت إلى مدارس سيدني الداخلية وغيرها من الهراء. وبالرغم من وسامته فقد كان لوك مثل غالبية عمال الريف فيما يتعلق بالخبرة في الأمور الجنسية، فلم يكن يعلم إلا القليل منها عدا عما يحبه هو، ولا يعرف شيئاً عن مبادئها. كان قد أقام علاقات جنسية مع فتيات مختلفات ولم تشعره إحداهن بأنها قد اشمئزت من ذلك،

وهذا ما جعله يظن أنهن أحببن ذلك. كان هذا رأيه الشخصي وهو رأي غير صادق دائماً. وعندما تقيم فتاة علاقة مع شاب وسيم ومجتهد مثل لوك وهي تأمل في الزواج منه، فمعنى ذلك أنها لن تكذب عليه لتعجبه قط. وأكثر ما يعجب الرجل هو أن تخبره فتاة أنه أفضل من عرفت. ولم يكن لوك يعلم كم من رجل غيره خدعته هذه الكلمات.

كان لوك لا يزال يفكر في «دوت» التي انحنت أمام رغبة والدها بعد أن سجنها هذا في إحدى سقائف الجز لمدة أسبوع بالقرب من جثة متعفنة. وهزّ لوك كتفيه، داخلياً. إن ميغي صعبة جداً ولن يسمح لنفسه بإخافتها أو إثارة اشمئزازها. وعليه ألاّ يستعجل اللهو والهزل وأن يعاملها كما ترغب في ذلك، أي أن يقدم لها الأزهار، ويظهر اهتمامه بها.

وساد بينهما صمت مرتبك لفترة طويلة، ثم تنهدت ميغي وأسندت ظهرها إلى المقعد.

ــ إني آسفة يا لوك.
ــ أنا أيضاً آسف. لم أقصد أن أجرح مشاعرك.

ــ كلا، إنك لم تجرح مشاعري، حقاً؛ ولكني أظن إني غير معتادة على هذا... لقد خفت ولكني لم أُجرح.

ــ «آه يا ميغان» ورفع إحدى يديه عن مقود السيارة ووضعها فوق يديها المشبوكتين. «انظري، لا تقلقي من أجل هذا، أنت فتاة رائعة ولقد تعجلتك. دعينا ننسى هذا».

ــ نعم، دعنا ننسه.

وسألها لوك بفضول:

ــ ألم يقبلك «هو»؟

ــ من؟

ــ لقد قلت أنك أحببت مرة من قبل، ولقد ظننت أنك تعلمين شيئاً عن أمور الحب. إني متأسف يا ميغان، كان علي أن أفهم كيف تجري الأمور في عائلة مثل عائلتك. لا شك أنك كنت تتحدثين عن نزوة عابرة نحو أحد الشبان الذي لم ينتبه إليك.

نعم، نعم، نعم! دعيه يظن هذا:

ــ أنت على حق يا لوك، لم يكن هذا إلا غرام ونزوة تلميذة.

وعندما توقفا أمام البيت، شدها إليه ثانية وقبلها قبلة لطيفة متمهلة دون أن يحاول فتح فمها. ولم تتجاوب معه تماماً ولكنها ولا

شك كانت تفضل هذا النوع من القبلات. وذهب إلى منزله وهو يهنىء نفسه على أنه لم يدمر مخططه.

وجرّت ميغي نفسها إلى سريرها واستلقت تنظر إلى الهالة الضوئية التي كان المصباح يلقيها على السقف. حسناً، كان هناك شيء أكيد وهو أن قبلات لوك لا تذكرها مطلقاً بقبلة رالف، وقد شعرت مرة أو اثنتين خلال عناقه ببعض التأثر المفاجىء، عندما غرز أصابعه في جنبها وعندما قبلها من عنقها. لم يكن هناك مجال لمقارنته برالف، ولم تعد متأكدة أنها ترغب بهذه المقارنة. من الأفضل لها أن تنسى رالف فهو لن يستطيع أن يتزوجها بينما كان لوك يستطيع ذلك.

وعندما قبلها لوك للمرة الثانية، تجاوبت معه ميغي بطريقة مختلفة. كانا قد حضرا حفلة رائعة في رودنا هاينش، وهي أبعد نقطة كان بوب يسمح لهما بالابتعاد إليها، وسارت الأمور بشكل جيد منذ بداية السهرة. وكان لوك على أحسن حال، وظل يمزح طوال الوقت وهي لا تكف عن الضحك، وأحاطها بالدفء والانتباه خلال الحفلة بكاملها حتى أن الآنسة كارمايكل قررت أن تخطفه منها، وفعلت ما لم يجرؤ ألستير ماكوين واينوك ديفيز على

فعله، فقد لازمت ميغي ولوك وأخذت تغازل هذا بشكل ملفت للنظر، وأجبرته على الرقص معها من باب المجاملة. كانت الحفلة رسمية جداً، والرقصات مثل هذه التي تُرقص في الحفلات الارستقراطية، فرقص لوك مع الآنسة كارمايكل رقصة فالس بطيئة ولكنه سرعان ما رجع قرب ميغي بعد انتهائها ولم يقل شيئاً بل رفع أنظاره إلى السقف بطريقة أكدت لها أن الآنسة كارمايكل كانت مملة جداً.

وأحبته ميغي لذلك، وكانت قد نفرت من الآنسة كارمايكل منذ ذلك اليوم في جيللي عندما قطعت عليها بهجتها برفقة الأب رالف. ولم تنسَ كيف تجاهل الأب رالف الآنسة لكي يحمل الفتاة الصغيرة عبر البركة الوحلية. وهذه الليلة فعل لوك الشيء نفسه. آه، مرحى يا لوك، إنك رائع.

كان طريق العودة إلى المنزل طويلاً والبرد قارساً، وكان لوك قد تملق العجوز أنغوس ماكوين فأعطاه هذا بعض الشطائر وزجاجة من الشمبانيا، وعندما قطعا ثلثي الطريق إلى البيت أوقف لوك السيارة. كانت أجهزة التدفئة في السيارات نادرة جداً في تلك الأيام في استراليا، ولكن الرولز كانت تملك جهازاً للتدفئة، لحسن

حظهما، فقد كانت سماكة الجليد خمسة سنتمترات هذه الليلة.

ــ آه، أليس من الرائع أن يستطيع الإنسان الجلوس دون معطف في ليلة كهذه؟

وابتسمت ميغي وهي تتناول كأس الشمبانيا الصغير الفضي الذي أعطاها إياه لوك، وتقضم شطيرة باللحم المقدد.

ــ نعم، هذا رائع، وأنت تبدين رائعة الليلة يا ميغان.

ما السر الذي كان في لون عينيها؟ إنه لم يكن يحب العيون الرمادية عادة فهي باهتة، ولكنه عندما كان ينظر إلى عينيها كان باستطاعته أن يقسم أنهما تحتويان على كل ألوان الطيف من الأزرق، إلى البنفسجي، إلى النيلي؛ من زرقة السماء في يوم صحو، إلى خضرة الطحالب العميقة، يخالط ذلك كلك صفرة تميل إلى الإسمرار. وكانتا كالجواهر المصقولة الشفافة وقد أحاطت بهما رموشها المنحنية تلمع وكأنها من الذهب الخالص. ومد يده ومررها برفق على رموش إحدى عينيها ثم نظر بجد إلى أطراف أصابعه.

ــ ما هذا يا لوك؟ ماذا في الأمر؟

ــ كنت أريد التأكد بنفسي أنك لا تملكين علبة مسحوق ذهبي

بين مساحيقك . أتعلمين أنك الفتاة الوحيدة التي أعرف والتي تملك رموشاً من الذهب الحقيقي ؟

ــ « آه » ولمست رموشها بنفسها ونظرت إلى أصابعها الدقيقة وضحكت . « إنها ذهبية إذن ، ولكن الذهب لا يتساقط منها » . كانت الشمبانيا تداعب أنفها وتدغدغ معدتها ، وشعرت بأنها تطير .

ــ « وجفون من الذهب الخالص أيضاً وتشبه سقوف الكنائس ، وشعر أجمل من الذهب الخالص ... لقد كنت أتوقع دائماً أن يكون صلباً كالمعدن ولكنه ناعم وكأنه شعر طفل ... ولا بد أنك تضعين مسحوق الذهب على بشرتك أيضاً ، فهي مشعة ... وفمك أجمل فم في العالم ، يليق بالقبلات ... » .

وجلست تنظر إليه وفمها الوردي الغض قد انفرج كالمرة الأولى التي التقيا بها ، ومد يده وتناول منها الكأس الفارغة ، وقال وهو يملأها لها :

ــ أظن أنك بحاجة لمزيد من الشمبانيا .

ــ إني أعترف بأن هذا رائع ، أن نتوقف ونستريح قليلاً من عناء الدرب . وإني أشكرك لأنك طلبت الشطائر والشمبانيا من السيد ماكوين .

كان محرك الرولز يدور بهدوء في صمت الليل، والهواء الساخن يتسرب بخفيف خفيف من فتحات التدفئة، صوتان مختلفان يهدهدانها. وفك لوك ربطة عنقه ونزعها، وفتح قبة قميصه. كان معطفاهما على مقعد السيارة الخلفي فلم يكونا ضروريين في السيارة.

ـــ آه، هذا أفضل لست أدري من الذي اخترع ربطات العنق وأصرّ على أن الرجل لا يكون أنيقاً بدونها، ولكنني لو قابلته فسأخنقه بهذه الربطة نفسها التي اخترعها.

وأدار رأسه فجأة وانحنى على وجهها وبدا له أنه التقط شفتيها بشفتيه تماماً وكأنما قد صُنِعتا له، ومع أنه لم يلمسها ولم يشدها إليه فقد أحست بأنها ملتصقة به، ولحقه رأسها عندما تراجع وجذبها إليه وعلى صدره، وارتفعت يداه تحيطان برأسها، فمن الأفضل له أن يعمل في هذا الاتجاه ويركز اهتمامه على فمها الذي كان يتجاوب معه بطريقة مذهلة ويرتشفه ارتشافاً. وتنهد وترك نفسه لهذا الإحساس فقط وقد أَلِف أخيراً شفتيها الطفلتين الحريريتين اللتين انطبقتا تماماً على شفتيه. وانزلق ذراعاها خلف عنقه، وتغلغلت أصابعها المرتجفة في شعره بينما ارتفعت اليد الأخرى

واستقرت على الجلد الناعم الأسمر عند أسفل حنجرته. ولم يتسرع هذه المرة مع أن انفعاله كان شديداً حتى قبل أن يعطيها الكأس الثانية من الشمبانيا، وذلك من مجرد النظر إليها. ودون أن يفلت رأسها راح يقبل خديها وعينيها المغمضتين والعظام البارزة تحت جفنيها، ثم عاد إلى وجنتيها لأنهما كانتا كالحرير، وعاد إلى فمها لأنه كفم الأطفال وقد أدار رأسه لحد الجنون، أدار رأسه منذ اليوم الأول الذي رآها فيه.

ونزل إلى حنجرتها، إلى التجويف الصغير في أسفلها، وكان جلد كتفيها ناعماً، بارداً وجافاً... ولم يعد باستطاعته التوقف، وانتابه الذعر، وتمنى لو أنها تطلب منه التوقف، وأزاح إحدى يديه عن رأسها وأخذ يفك الأزرار التي تغلق ثوبها من الخلف، ثم مررها فوق ذراعيها المستسلمتين وتحت الشريطتين اللتين تمسكان قميصها الساتاني على الكتفين، ثم تسلل بأطراف أصابعه على ظهرها العاري وقد أحس بارتعاشاتها الخفيفة المجفلة، ثم انزلقت شفتاه على الكتفين والصدر العاري...

وألقى برأسه على صدرها وهو يلهث وكان يحس بفمها في شعره؛ وبيدها على صدره تحت القميص، واستجمع شتات نفسه

وفتح عينيه. وجلس فجأة وشد شرائط قميصها فوق كتفيها ثم جذب الفستان وأغلق كل الأزرار برشاقة.

ـ «من الأفضل أن تتزوجينني يا ميغان» قال هذا وعيناه مداعبتان تضحكان. «لا أظن أن أخوتك سيرضون عما فعلناه الآن».

ـ «نعم، أظن أن من الأفضل أن تتزوج» قالت هذا وقد اسدلت أهدابها وعلت خديها حمرة طفيفة.

ـ دعينا نخبرهم غداً صباحاً.

ـ لم لا؟ فمن الأفضل الإسراع.

ـ سآخذك إلى عيللي يوم السبت المقبل لمقابلة الأب توماس، أظنك تريدين الزواج في الكنيسة، وهكذا نعلن عن زواجنا ونشتري المحابس.

ـ شكراً يا لوك.

كان الأمر هكذا إذن. فقد ورطت نفسها ولم يعد هناك مجال للتراجع، فخلال أسابيع أو أكثر بقليل، وبعد نشر إعلان الزواج ستتزوج ميغي من لوك أونيل، وتصبح... السيدة أونيل! يا للغرابة! لماذا أجابت بنعم؟ ألأنه قال لي أن علي ذلك؟ لقد قال أنه ينبغي علي الزواج به. ولكن لماذا؟ لإبعاده عن الخطر؟ لحمايته

هو أو لحماية نفسي؟ إني أفكر أحياناً أني أكرهك يا رالف دو بريكاسار... كان ما حصل في السيارة مقلقاً ومروعاً ولا يشبه على الإطلاق ما حصل في المرة الأولى، هذه الأحاسيس المخيفة الجميلة. آه، ولمسات يديه التي أشعلت النار في صدرها وبعثتها أمواجاً هائلة داخل كيانها! لقد فعل ذلك في اللحظة التي بدأت تفقد إرادتها وشعرت به ينزع عنها ثيابها ورأسها تدور، وأرادت أن تصرخ، أن تصفعه، أن تجري بعيداً. ولكنها لم تبق جامدة وقد تخدر جسدها بفعل الشمبانيا والدفء، ولأنها اكتشفت أن القبلات لذيذة عندما يعرف كيف يقبلها. وبينما كان عقلها الصامت وضميرها وكل كيانها يحلقون بعيداً، كان كتفاها يقتربان من صدره، وكذلك ردفاها وساقاها، وشعرت أنها تريد أن تبقى هكذا بقية حياتها وترغب... ترغب في ماذا؟ لم تكن تعلم. ولكنها لم تكن ترغب في الابتعاد عنه عندما أبعدها، وكان بإمكانها أن تهاجمه بعنف كامرأة متوحشة. ولكن هذا دفعها إلى التصميم بشدة على الزواج من لوك أونيل، وعدا عن ذلك فقد تأكدت أنه قد بدأ معها ما يؤدي إلى انجاب الأطفال.

ولم يفاجأ أحد بالخبر، ولم يفكر أحد بالاعتراض، وأما

الذي أدهش الجميع فهو رفض ميغي القاطع أن تكتب إلى المطران رالف لإخباره، واعتراضها الهستيري على فكرة بوب الذي أراد أن يدعوه إلى دروغيدا وإقامة احتفال ضخم بمناسبة العرس. لا، لا، لا، صرخت في وجههم؛ ولم تكن ميغي قد رفعت صوتها في حياتها كلها. ولقد عللت موقفها بقولها إنها غاضبة لأنه لم يأت أبداً لزيارتهم، مصرة على أن الزواج مسألة شخصية بحتة لا تخص غيرها، وأنه إذا لم يأت إلى دروغيدا بدون سبب معين ومن باب اللياقة فقط، فهي لن تجبره على عمل شيء لا يستطيع رفضه. وهكذا فقد وعدتها «في» ألاّ تذكر له أي شيء في رسائلها، ولم يبد على هذه أن المسألة تعنيها بشكل أو بآخر، أو أنها مهتمة باختيار ميغي لزوجها. فمسك دفاتر الحسابات في مزرعة باتساع دروغيدا كان يأخذ كل وقتها، وما كتبته كان يصلح لمؤرخ، فقد وصفت الحياة في مزرعة الأغنام وصفاً دقيقاً، ولم تكتف بتدوين الأرقام واللوائح، بل كانت تسجلّ بدقة تحركات القطعان، وتغييرات الفصول، وحالة الطقس كل يوم، وحتى ما كانت تطبخه السيدة سميث. وكانت صفحة السجل المؤرخة يوم الأحد في الثاني والعشرين من تموز عام ١٩٣٤ تقول:

السماء صافية لا غيوم بها، ودرجة الحرارة واحد سنتغراد

عندَ الفجر. لا قداس اليوم. بوب في المنزل. جاك في مرعى «موريمبا» مع مربيي مواشي. وهوغي في «دام الغربي» مع مرب واحد. بير باريل يقود الكبوش البالغة ثلاث سنوات من «بدجين» إلى «وينيمورا». ارتفعت الحرارة في الساعة الثالثة إلى تسعة وعشرين درجة مئوية. ميزان الحرارة ثابت. ٧٧٧ ميليمتراً. الرياح تتجه نحو الغرب. العشاء مؤلف من لحم البقر المعلب، والبطاطا المسلوقة، والجزر والملفوف، وبعض الحلوى. ميغان كليري ستتزوج من لوك أونيل، مربي ماشية، يوم السبت في الخامس والعشرين من آب في كنيسة الصليب المقدس، في غيللانبون. سجل هذا في الساعة التاسعة مساء. الحرارة سبع درجات مئوية والقمر في ربعه.

الفصل الحادي عشر

اشترى لوك لميغي خاتماً ماسياً صغيراً ولكنه جميل، ويحيط بحجريه التوأمين قلبان من البلاتين. وقد حدد الإعلان موعد الزواج عند ظهر يوم السبت، في الخامس والعشرين من آب في كنيسة الصليب المقدس، ويتبع الاحتفال الديني حفلة غداء في فندق الامبريال، ولقد دعيت كلا من السيدة سميث وميني وكات إلى الحفلة، بالطبع.

أما جيمس وباتسي فقد بقيا في سيدني بعد أن أكدت ميغي أنها لا ترى الفائدة من أن يقطعا مسافة ألفي كيلو متر ذهاباً وإياباً ليشهدا حفلة لا يفقهان منها شيئاً. وكانت قد تلقت منهما رسالتي تهنئة، الأولى من جيمس، طويلة مفككة، صبيانية،

والثانية من باتسي، وهي عبارة عن كلمتين: «حظاً سعيداً». وكانا يعرفان لوك بالطبع، فقد تجولا معه في مراعي دروغيدا أثناء عطلهما.

وكانت السيدة سميث حزينة لأن ميغي أصرت أن يكون الاحتفال بسيطاً جداً، فقد كانت تأمل أن تتزوج الابنة الوحيدة في دروغيدا على صوت الصنوج وخفق الرايات، وأن يدوم الاحتفال أياماً. لكن ميغي اعترضت على هذه الجلبة التي لا داع لها، حتى أنها رفضت أن ترتدي فستان عرس أبيض، وقررت أن تلبس فستاناً وقبعة عاديين وتسافر بهما بعد الحفلة.

ــ «حبيبتي، لقد قررت أن آخذك لقضاء شهر العسل». قال لوك وهو ينزلق في مقعد بمواجهتها، نهار الأحد، بعد أن وضع مخطط زواجهما.

ــ إلى أين؟

ــ إلى كوينزلاند الشمالية. فعندما كنتِ عند الخياطة، كنت أتحدث مع بعض الشبان في بار الامبريال، وقد أخبروني أن باستطاعتي كسب الكثير من المال في بلد قصب السكر، إذا كنت قوياً ولا أخاف من العمل القاسي.

ـــ ولكن عملك جيد جداً هنا يا لوك !

ـــ إن الإنسان لا يشعر بالراحة وهو يعيش على حساب أهل زوجته . إني أريد أن أكسب مالاً لنا واشتري أرضاً في كوينزلاند الغربية ، وأنا أرغب في تحقيق هذا الهدف قبل أن أصبح عجوزاً ويفوت الأوان . ومن الصعب على الرجل غير المثقف أن يحصل على معاش جيد في هذه الأزمة الاقتصادية ، ولكن هناك نقصاً في اليد العاملة في كوينزلاند الشمالية ، والأجر يعادل عشرة أضعاف ما أكسبه من عملي في دروغيدا كمربي ماشية .

ـــ وماذا ستفعل ؟

ـــ اقطع قصب السكر .

ـــ تقطع قصب السكر ؟ ولكن هذا عمل الصينيين .

ـــ أنت مخطئة ، فالعمال الصينيون قصار القامة ولا يقطعون القصب بالسهولة نفسها التي يفعله بها البيض ؛ وفضلاً عن ذلك فأنت تعلمين أن القوانين الاسترالية تمنع استيراد الرجال السود أو الصفر للعمل مجاناً كعبيد ، أو بأجور أقل مما يكسب العامل الأبيض فينتزعون بذلك اللقمة من فم الاستراليين البيض . هناك نقص في قاطعي قصب السكر ، والأجور هائلة ،

وليس هناك رجال كثيرون طوال القامة لقطع القصب كما يجب .
ولكني أنا طويل القامة ولن يغلبني أحد .
ــ هل تقصد أننا سنستقر يوماً في كوينزلاند الغربية ؟
ــ نعم .

ونظرت من فوق كتفه عبر نوافذ دروغيدا العريضة ، إلى أشجار الصمغ والحوش المركزي ، والأشجار الممتدة وراءه . هل ستترك دروغيدا وتذهب إلى مكان بعيد حيث لا يستطيع المطران رالف أن يجدها ؟ هل ستحيا دون أن تراه ثانية أبداً ، وتتعلق بهذا الغريب الجالس قبالتها دون أمل في العودة إلى الوراء ؟ ... واستقرت العينان الرماديتان على وجه لوك الملهوف ، المفعم بالحيوية ، وامتلأتا بالحزن ولكنهما أصبحتا أكثر جمالاً . وأحس بذلك الحزن دون أن يراه ، إذ لم يكن هناك دموع في عينيها ولم ينسدل جفناها أو تتدلى أطراف فمها ؛ ولكن أحزان ميغي لم تكن تعنيه ولم يكن في نيته أن يجعل منها شيئاً هاماً فتدفعه إلى القلق من أجلها . والواقع أنها كانت بمثابة جائزة ترضية لرجل كان يطمع بالزواج من « دوت ماكفرسون » وريثة بينغيللي ، ولكن جاذبيتها الجسدية وطبيعتها السلسة ضاعفت حذره من العواطف ، فهو لن يقبل أن تفرض

عليه امرأة سيطرتها وتخبره بما عليه أن يفعل، حتى لو كانت هذه المرأة ميغي كليري الجميلة الناعمة.

وهكذا ولكي يبقى صادقاً مع نفسه، ارتمى مباشرة في صلب الموضوع الذي يشغل فكره. فالرياء ينفع أحياناً، أما هنا فلن يخدمه إلا الصدق:

ـــ إنني رجل عتيق الطراز يا ميغان.

ونظرت إليه بدهشة:

ـــ هل هذا صحيح؟. سألته وكأنها تريد أن تقول: وما همّ ذلك؟

ـــ نعم، وأنا أعتقد أنه عندما يتزوج رجل وامرأة، فكل ما تملكه المرأة يجب أن يرجع للرجل. كما كانوا يفعلون بالمهر في قديم الزمان. إني أعلم أنك تملكين بعض المال وسأقول لك منذ الآن أنك ستوقعين لي تنازلاً عن هذا المال عندما نتزوج، ومن حقك أن تعلمي ما يدور في رأسي قبل أن نتزوج ثم تتخذين قرارك على ضوء هذه المعرفة.

لم يكن قد خطر لميغي مطلقاً أنها ستحتفظ بنقودها وكانت متأكدة من أن نقودها ستصبح للوك بعد الزواج، فقد كانت كل نساء استراليا، عدا القليلات منهن جداً، ذوات الثقافة العالية

والمستوى الرفيع، ينشأن ويكبرن وهن يعلمن أنهن مجرد تابعات لأزواجهن، وكانت ميغي تفكر بالطريقة نفسها. كان بادي قد تحكم بفيونا والأولاد طيلة حياته، وعندما توفي انتقلت سلطته إلى بوب. فالرجل يمتلك المال، والبيت، والزوجة، وأولاده. ولم تعترض ميغي على هذا الحق أبداً.

ـــ «آه» أجابت بدهشة. «لم أكن أعلم أن من الضروري التوقيع على أي شيء يا لوك. وكنت أظن أن ما أملك يصبح ملكك بطريقة آلية عندما نتزوج».

ـــ كانت الأمور تجري عادة بهذا الشكل، ولكن هؤلاء المشرعين الأغبياء في كانبيرا وضعوا حداً لذلك عندما أعطوا للنساء حق التصويت. وأنا أريد أن يكون كل شيء واضحاً بيننا يا ميغان، ولهذا السبب فأنا أخبرك منذ الآن كيف ستجري الأمور.

وضحكت وهي تجيب:

ـــ لا بأس يا لوك، ولا يهمني الأمر.

ولقد تلقت الأمر كزوجة صالحة من الطراز العتيق. لم تكن «دوت» لتوافق على هذا بتلك البساطة. وسألها:

ـــ كم معك من النقود؟

ـــ حالياً، أربعة عشر ألف ليرة، وكل سنة أحصل على ألفين آخرين.

وصفر:

ـــ أربعة عشر ألف ليرة! إنها ثروة يا ميغان. من الأفضل أن أهتم بهذه النقـود عوضاً عنك. سوف نرى مديـر المصرف في الأسبوع القادم، وهذا يذكرني بأن علي أن أطلب منه أن يضع باسمي كل ما يصل إلى المصرف من الآن فصاعداً. لن نتصرف بفلس واحد منه، وأنت تعلمين ذلك، ولكنه سيساعدنا على شراء مزرعتنا. وفي السنوات القليلة القادمة سوف نعمل بجد وندخر كل قرش نكسبه. اتفقنا؟

وأحنت برأسها:

ـــ نعم يا لوك.

وأوشك مشروع الزواج أن يفشل بسبب خطأ غير مقصود من قبل لوك. فهو لم يكن كاثوليكياً. وعندما اكتشف الأب «واتي» ذلك رفع يديه إلى السماء باستنكار:

ـــ أيها الرب القدير! لماذا لم تخبرني بذلك من قبل يا لوك؟ علينا أن نركض الآن لكي نلقنك مبادىء المذهب الجديد ونعمدك قبل أن يحين موعد الزواج.

ونظر لوك إلى الأب واتي بدهشة :

ــ ومن قال أني سأغير مذهبي يا أبت؟ إنني سعيد كما أنا ، ولست على أي مذهب ، ولكن إذا كان ذلك يزعجك فتستطيع أن تسجلني مرمونياً أو مسلماً ، أو أي شيء آخر أردته . ولكنك لن تجعل مني كاثوليكياً .

ولم ينفع معه الرجاء والتوسل فقد رفض لوك فكرة تغيير مذهبه رفضاً قاطعاً :

ــ إنني لست ضد الكاثوليكية ، ولا ضد إيرلندة ، واعتقد أن الكاثوليكيين في أولستر قد قاسوا الكثير ، ولكنني من أورانج ، ولن أنكر مذهبي الآن ، ولو كنت كاثوليكياً وأردتم أن تجعلوا مني بروتستنتياً لرفضت أيضاً . وأنا لا أعترض على اعتناق الكاثوليكية بقد ما اعترض على تنكري لمذهبي ، وهكذا فإن عليك الاستغناء عني في قطيعك يا أبت . هذا كل شيء .

ــ لن يمكنك الزواج إذن .

ــ ولم لا بحق السماء؟ إذا كنت ترفض عقد قراننا فإني أظن أن « المحترم » هناك في « كنيسة انجلترا » لن يعترض عليه ، ولا هاري غوف من السلطة المدنية .

وابتسمت « في » بمرارة وهي تتذكر الحادث المؤسف المماثل الذي جرى بين بادي وكاهن آخر، ولقد ربحت الجولة تلك المرة.

ــ « ولكنني أريد الزواج في الكنيسة يا لوك، وإن لم أفعل فسأقضي كل حياتي في الخطيئة ». قالت ميغي والخوف يغمرها.

ــ « حسناً، أنا شخصياً اعتقد أن العيش في الخطيئة أفضل من التنكر لمذهبي ». قال لوك الذي كان يبدو أحياناً مجموعة من التناقضات، ورغم رغبته الهائلة في نقود ميغي، فعناده الأعمى لم يكن يسمح له بالتنازل عن رأيه.

ــ « آه، كفى سخافات » قالت « في » متوجهة بكلامها ليس إلى لوك بل إلى الكاهن. « افعلوا كما فعلت أنا وبادي، واحسموا الخلاف! باستطاعة الأب توماس أن يزوجكما في منزله إذا لم يكن يرغب في تلويث كنيسته! ».

واتجهت أنظارهم نحوها بدهشة، ولكن حيلتها كانت مثمرة فقد وافق الأب واتكن على عقد قرانهما في منزله ولكنه رفض أن يبارك الخاتمين.

ولأنها لم تحصل على بركة الكنيسة بكاملها فقد كانت ميغي تشعر بأنها ترتكب خطيئة، ولكن تلك الخطيئة لم تكن كبيرة جداً

بشكل يكفي لإرسالها إلى جهنم، ولقد عملت العجوز آني، مدبرة بيت الكاهن، كل ما بوسعها لكي يبدو مكتب الأب واتي ككنيسة، وزينته بأواني الزهور وبالشموع. ولكن الاحتفال كان مزعجاً، فلقد جعلهم الأب واتي الذي كان حانقاً جداً يشعرون جميعهم أنه لا يقوم بعمله إلا لكي يوفر على العروسين عناء الزواج المدني في مكان آخر، فلم يقم قداساً ولم يباركهما.

وعلى كل حال، فقد تم الزواج وأصبحت ميغي السيدة أونيل، في طريقها إلى كوينزلاند الشمالية، وقد اجلت شهر عسلها لحين وصولها إلى هناك. ورفض لوك أن يمضي ليلة السبت في فندق الامبريال لأنه لم يكن هناك إلا قطار واحد في الأسبوع إلى «غوندي ويندي» وذلك مساء السبت، ومن هنالك كان عليهما أن يأخذا قطاراً آخر إلى بريسبين في اليوم التالي، الأحد، وهكذا يصلان يوم الاثنين إلى بريس حيث يلحقان بقطار «كيرنز» السريع.

كان القطار إلى غوندي ويندي مكتظاً بالركاب، ولم يستطيعا الاسترخاء بل بقيا جالسين طوال الليل لأنه لم يكن هناك عربات للنوم على القطار. وشق طريقه المتعرجة الصعبة نحو الغرب

ساعة بعد ساعة، وكان يتوقف كلما خطر على بال السائق أن يصنع لنفسه كوباً من الشاي، أو ليترك قطيعاً من الأغنام يتجول على السكة، أو ليثرثر مع أحد سائقي القطعان.

ـــ إني أتساءل لماذا يقولون «غاندي ويندي» بدلاً من «غوندي ويندي».

سألت ميغي بتكاسل وهما ينتظران في المكان الوحيد المفتوح يوم الأحد في البلدة، وهو قاعة الانتظار القبيحة المطلية بالأخضر، في المحطة، بمقاعدها الخشبية السوداء. مسكينة ميغي، كانت مرتبكة وقلقة.

ـــ «كيف تريدينني أن أعلم؟» أجاب لوك متنهداً وهو لا يشعر برغبة في الكلام، فقد كان يتضور جوعاً. وبما أنه كان يوم الأحد فلم يكن باستطاعتهما الحصول حتى على فنجان من الشاي، ولم يستطيعا ملء معدتيهما الفارغتين قبل صباح الاثنين حيث تناولا الإفطار وارويا عطشهما في قطار بريسبين.

ومن بريسبين توجها إلى بريس الجنوبية ومنها ركبا عربة تجرها الثيران عبر البلدة حتى المحطة في شارع روما حيث استقلا القطار

إلى كيرنز. وهناك اكتشفت ميغي أن لوك كان قد حجز لهما مقعدين (جالسين) على الدرجة الثانية .

ــ « إننا لسنا معدمين يا لوك » قالت ميغي وهي منهكة وساخطة . « إن كنت قد نسيت أن تذهب إلى المصرف فإن معي هنا في حقيبتي مئة ليرة أعطاني إياها بوب. لماذا لم تحجز لنا مقصورة نستطيع أن ننام بها ، على الدرجة الأولى ؟ » .

ونظر إليها مصعوقاً :

ــ ولكن المسافة إلى « دنغلو » لا تتعدى الثلاثة أيام وثلاث ليال ! فلماذا نبذر نقودنا على مقصورة نوم بينما لا نزال نحن الاثنان شابين قويين وبصحة جيدة؟ ولن تموتي إذا جلست قليلاً في القطار يا ميغان ! لقد حان الوقت لك لكي تفهمي أنك قد تزوجت من عامل عادي جداً وليس من مزارع ثري !

وهكذا ارتمت ميغي على أقرب مقعد بقرب النافذة كان لوك قد حجزه لها ، وأسندت ذقنها المرتعشة إلى يدها لتنظر خارجاً فلا يستطيع لوك رؤية دموعها. كان قد كلمها كمن يكلم طفلاً لا يفهم وبدأت تتساءل إذا لم يكن يعتبرها فعلاً كذلك ، وبدأ التمرد يغلي في أعماقها ، ولكنه كان طفيفاً ومنعتها عزة نفسها العنيفة أن

تجادله. وعوضاً عن ذلك فقد قالت لنفسها أنها كانت زوجة هذا الرجل، ولكن تلك الحالة كانت أمراً جديداً عليه، وعليها أن تعطيه الوقت اللازم كي يعتاد عليها. إنهما سيعيشان معاً، وستقوم بطهو طعامه، ورتق ملابسه، والعناية به، وستحمل أطفاله في أحشائها وتكون زوجة صالحة له. انظري كم كان أبوك يقدر أمك، فلا تتسرعي مع لوك.

كانا يتجهان إلى بلدة تدعى «دنغلو» قبل كيرنز بسبعين كيلو متر، وكانت كيرنز آخر نقطة في الشمال يصلها القطار الذي كان يمر على طول ساحل كوينزلاند. أكثر من ألف وستمئة كيلو متر على سكة حديدية ضيقة متعرجة، والقطار يتمايل ويتأرجح وليس به مقعد واحد فارغ، ولا يمكن للراكب أن يستلقي أو يمد ساقيه. ومع أن المقاطعة كانت كثيفة السكان أكثر من غيللي بكثير، ومتنوعة جداً، فلم تستطع ميغي حمل نفسها على الاهتمام بما تراه.

كان رأسها يؤلمها، ومعدتها تعجز عن الاحتفاظ بالطعام، والحر أسوأ بالكثير الكثير من كل ما عرفته في جيللي. كان ثوب زفافها الحريري الزهري الجميل قد تلوث بالسخام المتطاير عبر

النوافذ، وبشرتها لزجة من العرق الذي لم يكن يستطيع التبخر، وكان هناك شيء آخر أكثر مرارة من كل انزعاجها الجسدي جعلها تشعر أنها أوشكت على كره لوك، فلم يكن يبدو عليه أية علامة من علائم التعب بسبب هذه الرحلة، وإنما كان يجلس براحة تامة ويتجاذب أطراف الحديث مع رجلين آخرين متجهين نحو «كاردويل». ولم ينظر إليها إلا مرة واحدة حين نهض وانحنى على النافذة أمامها تماماً وبفظاظة جعلتها تتراجع، ورمى بجريدة مطوية خارجاً، إلى مجموعة من الرجال المتشوقين للأخبار، يرتدون ملابس رثة وقد وقفوا بقرب السكة يحملون مطارق فولاذية في أيديهم ويلوحون بها.

ـــ إنهم عمال صيانة السكة الحديدية.

قال وهو يجلس ثانية. وبدا متأكداً من أنها سعيدة ومرتاحة مثله بالضبط، وإن السهول الساحلية التي كانوا يمرون بها كانت تسحرها. بينما جلست هي تنظر إلى السهول دون أن تراها وتكرهها قبل أن تطأها قدماها.

وفي كاردويل نزل الرجلان اللذان كانا يتقاسمان العربة معها، وذهب لوك إلى دكان صغير يبيع السمك والبطاطا المقلية، ليعود بعد قليل وبيده حزمة ملفوفة بورق جريدة.

ـــ يقال أن عليك أن تذوقي سمك كاردويل حتى تصدقي كم هو لذيذ يا حبيبتي ميغان. إنه أفضل سمك في العالم. خذي، جربي قليلاً منه. إنها أول لقمة تأكلينها في «بانانا لانـد» الحقيقة. وأنا أقول لك أنه ليس هناك من مكان آخر في العالم مثل كوينزلاند.

وألقت ميغي بنظرها على قطع السمك المسحوقة والتي تقطر زيتاً، ووضعت منديلها على فمها وجرت نحو المراحيض. وكان ينتظرها في الممر عندما خرجت بعد قليل شاحبة مرتجفة.

ـــ ماذا في الأمر؟ هل تشعرين بتوعك؟

ـــ لم أشعر بالراحة منذ غادرنا غوندي ويندي.

ـــ يا إلهي، ولماذا لم تخبريني؟

ـــ لماذا لم تلاحظ ذلك بنفسك؟

ـــ لأنك كنت تبدين على أحسن حال.

ـــ ألا زلنا بعيدين؟. سألت مغيرة الحديث.

ـــ بين ثلاث إلى ست ساعات تقريباً، إنهم لا يتبعون التوقيت المدون هنا. لقد خلا المكان بعد ذهاب هذين الرجـلين، استلقي وضعي رأسك في حضني.

ـ «آه، لا تكلمني كالأطفال»، قالت بجفاف. «كان من الأفضل أن ينزلا منذ يومين في بوندابيرغ!».

ـ هيا يا ميغان، حافظي على روحك الرياضية. لقد وصلنا تقريباً، لم يبق أمامنا سوى «توللي» و «انييسفيل» وبعدها نصل إلى دنغلو.

ونزلا من القطار في ساعة متأخرة من بعد ظهر ذلك اليوم، وميغي تتعلق بشدة بذراع لوك، وقد منعتها كبرياؤها من الاعتراف بأنها عاجزة عن السير. وسأل لوك رئيس المحطة عن فندق للعمال، والتقط الحقائب وخرج إلى الشارع وميغي وراءه تترنح كالسكرى.

ـ «إن الفندق في طرف هذا المبنى في الجهة الأخرى من الشارع، ذلك البناء الأبيض المؤلف من طابقين». قال هذا محاولاً التخفيف عنها.

ومع أن الغرفة كانت صغيرة ومكتظة بالأساس الضخم من الطراز الفيكتوري، فقد وجدتها ميغي كالجنة وتركت نفسها تهوي على السرير المزدوج.

ـــ استلقي قليلاً قبل العشاء يا حبيبتي. إني خارج لأتحرى الأوضاع قليلاً.

قال هذا وهو يتهادى خارجاً مفعماً بالنشاط والحيوية كما كان في صباح زفافهما يوم السبت الماضي، وكان اليوم هو الثلاثاء بعد الظهر؛ خمسة أيام أمضياها جالسين في قطارات مكتظة معبأة بدخان السغائر والسخام.

وكان السرير يرتج من وقت لآخر عند مرور العجلات على السكة الحديدية المجاورة، ولكن ميغي دفنت رأسها في الوسادة واستغرقت في نوم عميق.

○

وشعرت ميغي بأن أحداً ينزع عنها حذاءها وجواربها ويغطيها بالملاءة، فتململت وفتحت عينيها تنظر حولها. كان لوك يجلس على حافة النافذة وقد رفع إحدى ركبتيه، يدخن سيجارة. وجذبت حركتها انتباهه فنظر إليها وابتسم.

ـــ يا لك من عروس رائعة! ها أنا جالس أتلهف لشهر العسل بينما زوجتي تنام يومين بكاملهما! لقد خفت قليلاً عندما لم أستطع

إيقاظك ولكن صاحب الفندق أخبرني أن السفر في القطار والرطوبة يزعجان النساء هكذا، وقال لي أن أدعك تنامين. كيف تشعرين بنفسك الآن؟

وانتصبت في سريرها ومطت ذراعيها وتثاءبت:
ـ إنني أفضل بكثير من قبل، شكراً. آه يا لوك، إنني شابة وقوية ولكنني امرأة، ولا أستطيع أن أتحمل الإرهاق الجسدي القاسي الذي تتحمله أنت.

وأتى يجلس على حافة السرير وهو يمسد ذراعها بحركة لطيفة تدل على أسفه العميق:
ـ إنني متأسف حقاً يا ميغان. لم أفكر بكونك امرأة. إني لست معتاداً على رفقة زوجة، هذا كل شيء. هل أنت جائعة يا حبيبتي؟
ـ أكاد أموت من الجوع. هل تدرك أني لم آكل منذ أسبوع تقريباً؟
ـ لماذا إذن لا تستحمين وترتدين ثوباً نظيفاً ثم تخرجين للتفرج قليلاً على دنغلو؟

كان هناك مقهى ملاصق للفندق حيث قاد لوك ميغي

لكي تتذوق الطعام الشرقي لأول مرة في حياتها. ووجدته رائعاً فقد كان جوعها شديداً، ولو أكلت ورقاً لوجدته لذيذاً عندها. ولم يهمها أبداً أن يكون الطعام محضراً من ذيول الجرذان أو من زعانف الحيتان أو من أمعاء الطيور، كما كانت الشائعات تقول في غيللي، حيث لم يكن هناك إلا مقهى واحد يديره بعض اليونان ويقدمون به الشرحة والبطاطا المقلية. وكان لوك قد طلب زجاجتين من البيرة السوداء من الفندق والحَّ على ميغي أن تشرب كأساً رغم كرهها للبيرة.

ــ انتبهي إلى الماء في البدء، فالبيرة لن تسبب لك الإسهال.

وبعد الغداء أمسكها بذراعها ودار بها باعتزاز في أنحاء دنغلو وكأن البلدة ملكه. ولكن لوك كان من مواليد كوينزلاند، وكيف كانت دنغلو! كان هيئتها وطبيعتها مختلفتين تماماً عن المدن الغربية، وكانت بحجم غيللي تقريباً ولكن عوضاً عن أن تقف مبانيها من جهة وأخرى من شارع رئيسي واحد، فقد بنيت دنغلو على شكل مجمعات مستقيمة ضيقة، وقد طُليت جميع الحوانيت والبيوت باللون الأبيض، وليس بالبني. كان للنوافذ روافد خشبية عمودية لالتقاط هبات النسيم بدون شك، وقد استغنى

الناس عن السقوف حيث كان ذلك ممكناً، كما في مسارح السينما، حيث كانت هناك شاشة وجدران تعترضها نوافذ عريضة في قسمها العلوي، وصفوف من المقاعد المصنوعة من جلد الأغنام، ولكن بدون أي سقف على الإطلاق.

كانت هناك أدغال حقيقية تحيط بالمدينة، وانتشرت العرائش والنباتات المتسلقة في كل مكان، على أعمدة الهاتف، وعلى السطوح، وعلى الجدران. ونبتت الأشجار اتفاقاً في منتصف الشارع، وبنيت المنازل حولها أو أنها ربما قد نمت داخل البيوت، فمن المستحيل معرفة من كان هناك أولاً، الأشجار أم المساكن. ويغمر الناظر إليها شعور بأن هذه النباتات تنمو وتتكاثر بشكل محموم لا يمكن التحكم به. كانت أشجار جوز الهند أطول وأكثر استقامة من أشجار الصمغ في دروغيدا، وهي تلوح بسعفها على صفحة السماء الزرقاء العميقة، وإلى أية جهة نظرت لم تكن ترى إلا توهج الألوان. فلم تكن هذه الأرض موطن الألوان البنية والرمادية، وإنما كانت كل شجرة تبدو مزهرة زاهية بجميع ألوان قوس قزح.

كان هناك العديد من الصينيين يرتدون بنطالات سوداء

حريرية وأحذية صغيرة سوداء وبيضاء، وجوارب بيضاء، وقمصاناً عالية القبات، وقد تدلى شعرهم على ظهورهم في ضفيرة طويلة رفيعة. وكان رجالهم ونساؤهم متشابهين لدرجة أنه صعب على ميغي أن تميزهم من بعضهم. وكانت كل التجارة في المدينة في أيدي الصينيين، وقد تركزت في مخزن كبير أغنى من أي مخزن في غيللي، ويحمل أسماً صينياً «اه وونغز».

كانت كل البيوت مبنية على ركائز خشبية شديدة الارتفاع، مثل منزل القيّم القديم في دروغيدا، وذلك لتأمين مجرى الهواء، كما فسره لها لوك، ولوقايتها من النمل الأبيض وإلّا هدمها هذا بعد سنة واحدة من بنائها. وعلى كل ركيزة. كانت هناك صفيحة معدنية ثنيت حروفها نحو الأسفل، وإذ كان النمل لا يستطيع طيّ جسمه من وسطه، فلم يكن باستطاعته أن يجتاز الحرف المعدني ليتغلغل في خشب المنزل نفسه. وبالطبع، كان النمل يقيم ولائمه على خشب الركائز، ولكن ما أن كانت إحداها تهترىء حتى تستبدل بأخرى. وهذا أسهل وأقل كلفة من بناء منزل جديد. أما أغلب الحدائق فكانت تبدو كالأدغال، وقد عجت بأشجار الخيزران والنخيل، وكأن سكانها قد يئسوا من محاولة تنظيمها.

أما الذي صدمها أكثر من كل شيء آخر ، فقد كان منظر الرجال والنساء. فعندما خرجت مع لوك سيراً على الأقدام لتناول العشاء، ارتدت ميغي حذاء ذا كعب عال، كما تقتضي التقاليد، وجوارب حريرية تحت قميص حريري وثوب واسع من الحرير أيضاً، ذا أكمام تصل إلى المرفقين، وشدت خصرها بحزام كما وضعت على رأسها قبعة من القش، وفي يديها قفازاً. والذي أثار سخطها أكثر من كل شيء، هو أنها أحست من نظرات الناس لها، أنها لم تكن ترتدي الزي اللائق. كان الرجال عراة السيقان والأقدام، وغالباً عراة الصدور أيضاً، وليس عليهم إلا بنطال قصير من القماش الخاكي. وأما من غطوا صدورهم فقد غطوها بقميص داخلي كالذي يلبسه الرياضيون، بدون أي قميص. وأما النساء فقد كن أسوأ من ذلك، فالقليلات منهن كن يرتدين أثواباً قصيرة من القطن بلا أكمام، دون أية ملابس داخلية تحتها ولا جوارب، وينتعلن صنادل، ولكن الأغلبية كنّ يرتدين بنطالات قصيرة جداً ويمشين حافيات، ويغطين صدورهن بسترات قصيرة فاضحة، لا أكمام لها. كانت دنغلو بلدة راقية جداً، ولم تكن على الشاطىء، ولكن ها هم سكانها البيض يتمخترون في الشوارع في عري وقح بينما كان الصينيون أنفسهم أكثر حشمة منهم.

وكانت الدراجات في كل مكان، مئات منها، والسيارات قليلة جداً، بينما لم يكن هناك خيول على الإطلاق. نعم، إنها مختلفة جداً عن غيللي وحارّة، حارة، حارة. ومرا من أمام ميزان حرارة كان يشير إلى اثنتين وثلاثين درجة مئوية، وكانت غيللي تبدو أبرد من ذلك عندما تصل الحرارة فيها إلى ست وأربعين درجة مئوية. وأحست ميغي وكأنها تتحرك داخل جو من الهواء الصلب كان عليها أن تقصه كما تقص الزبدة الرطبة المدخنة، وعندما تتنفس كانت تشعر بصدرها يمتلىء بالماء.

ـــ إني لا أستطيع احتمال هذا يا لوك. أرجوك، هل يمكننا العودة إلى الفندق؟

وأخذت تلهث ولم تقطع بعد خمسمئة متر.

ـــ كما تشائين. إن ما تشعرين به هو الرطوبة، فنسبتها في الجو لا تقل عن تسعين بالمئة صيفاً وشتاء، والحرارة تتراوح دائماً بين تسع وعشرين وخمس وثلاثين درجة مئوية، وليس هناك فرق كبير بين الفصول، ولكن الرياح الموسمية ترفع نسبة الرطوبة طوال فصل الشتاء إلى مئة بالمئة.

ـــ إن المطر صيفي على ما يبدو وليس شتوياً؟

ــ إن المطر موجود على مدار السنة، والرياح الموسمية تأتي دائماً في موعدها، وحين لا تنفجر فهناك الرياح التجارية التي تصل من الجنوب الشرقي، وهي تحمل أمطاراً هائلة. وتتراوح نسبة الأمطار التي تتلقاها دنغلو ما بين مئتين وخمسين وسبعمئة وخمسين سنتمتراً.

سبعمئة وخمسون سنتمتراً من الأمطار سنوياً! مسكينة غيللي التي تتهلل عندما تحصل على أربعين سنتمتراً، بينما تهطل الأمطار هنا بمعدل سبعمئة وخمسين سنتمتراً على بعد ثلاثة آلاف كيلو متر فقط من غيللي.

ــ ألا يبرد الطقس في الليل؟

سألت ميغي عندما بلغا الفندق، فالليالي الحارة في غيللي كانت محمولة بالمقارنة مع هذا الحمّام البخاري.

ــ ليس كثيراً، ولكنك ستعتادين على الطقس.

وفتح باب غرفتهم وتراجع لتدخل قبله:

ــ إنني سأنزل قليلاً إلى المقصف لتناول كأس من البيرة، وسأعود خلال نصف ساعة تقريباً، وهذا يعطيك الوقت الكافي.

وطارت عيناها إلى وجهه :

ـ نعم يا لوك .

تقع دنغلو على سبع عشرة درجة إلى الجنوب من خط الاستواء، وهكذا فقد كان الليل يهبط بسرعة البرق ؛ ففي لحظة كانت الشمس تبدو وهي تقترب ببطء من المغيب ، وفي اللحظة التالية كان الظلام الفاحم ينتشر سميكاً وحاراً مثل الدبس . وعندما عاد لوك كانت ميغي قد أطفأت الضوء واستلقت على السرير وجذبت عليها الأغطية حتى ذقنها . ومد يده إلى الأغطية وهو يضحك وسحبها ورماها أرضاً .

ـ إن الحرارة مرتفعة يا حبيبتي ولن نحتاج إلى الأغطية .

كان باستطاعتها أن تراه يتحرك في الغرفة وأن تميز خياله وهو ينزع ثيابه :

ـ لقد وضعت بيجامتك على منضدة الزينة » قالت بصوت منخفض .

ـ بيجاما؟ في هذا الحر؟ إني أعلم أنهم يصابون بنوبة قلبية في غيللي من مجرد التفكير برجل لا يرتدي بيجاما ، ولكن هذه دنغلو ! هل ترتدين حقاً قميص نوم ، أنت ؟

ـــ نعم .

ـــ إذن اخلعيه ، فلن يأتيك إلا المضايقة من هذا الشيء اللعين .

وبارتباك توصلت ميغي أن تسحب نفسها من قميص النوم الشفاف الذي طرزته لها السيدة سميث بكثير من الحب من أجل ليلة زواجها ، وهي تشكر الله أن الظلام دامس فلا يستطيع لوك أن يراها . وكان على حق ، فقد شعرت ببرودة أكثر وهي مستلقية في السرير عارية ، والنسيم يدخل من النوافذ المشرعة ويتلاعب برفق فوق جسدها . ولكن مجرد التفكير بجسم آخر حار إلى جانبها في السرير كان محزناً . وصرت نوابض السرير ، وشعرت ميغي بجلد رطب يلامس ذراعها وأجفلت . واستدار على جنبه وشدها بين ذراعيه وقبّلها . وفي بادىء الأمر بقيت ممدة هامدة وهي تحاول جاهدة ألاّ تفكر بذلك الفم المفتوح على سعته وباللسان الوقح يجس فمها ، وعندها بدأت تتخبط لتحرر نفسها ، وهي ترفض أن يضمها إليه في هذا الحر ، وترفض أن يقبلها ، وترفضه هو . ولم يكن هذا شبيهاً أبداً بما جرى في الرولز في طريق عودتها من رودنا هانيش . وكانت عاجزة عن أن تصدق بأنه يفكر بها وهو يحاول فتح ساقيها ، وقد انغرزت أظافره الحادة في ظهرها . وانقلب خوفها

إلى هلع، وشعرت بأنه يغلبها بما هو أكثر من قوته الجسدية، بعدم اهتمامه المطلق بها.

وفجأة تركها واستوى جالساً وهو يتحسس نفسه في الظلام ويشد ويسحب على شيء لم تره.

ـ من الأفضل الحذر، استلقي على ظهرك، فقد حان الوقت. كلا ليس هكذا! ألا تعلمين شيئاً بحق السماء؟

وأرادت أن تصرخ لا، لا يا لوك، إني لا أعلم، ولكن هذا قبيح مريع؛ ومهما كان الشيء الذي تفعله بي، فمن المستحيل أن يقره القانون، ولا الكنيسة ولا البشر. وكان قد أصبح فوقها ويده تمسك شعرها بشدة فتمنعها من الحراك، وكانت هي تنتفض وتتخبط محاولة التملص منه، وتشنجت عضلات فخذيها من ثقله، ومن الوضع الذي لم تعتده. ومن بين ضباب الرعب والإرهاق الذي كان يسود أفقها انفلتت من شفتيها صرخة حادة طويلة.

ـ «اخرسي» همهم وهو يسحب يده من شعرها ويطبقها على فمها ليمنعها من الصراخ. «ماذا تريدين أن تفعلي، أن تدفعي كل شخص في هذا الفندق اللعين على التفكير بأني أذبحك؟ ارقدي هادئة ولن يؤلمك هذا أكثر مما يجب. اهدئي، اهدئي».

وتخبطت كالمجنونة لتتخلص من الشيء المؤلم الشنيع، ولكن ثقله كان يثبتها في مكانها، ويده تميت صراخها في حلقها؛ واستمر الألم المبرح طويلاً، طويلاً وهي عاجزة عن الحراك وقد تمزقت تمزيقاً. وأخيراً تحول الألم إلى ازعاج، ثم انزاح عنها أخيراً وارتمى على ظهره وهو يلهث.

ــ «في المرة القادمة سيتحسن الأمر» استطاع أن يقول لها. «إن المرأة تتألم دائماً في المرة الأولى».

إذن لماذا لم يدفعك تهذيبك أن تخبرني هذا من قبل؟ أرادت أن تصرخ، ولكنها لم تجد القوة لتنطق بهذه الكلمات، وكانت مشغولة بتمني الموت. ليس فقط بسبب الألم، بل لأنها اكتشفت أنها لم تكن تعني شيئاً بالنسبة له، فقد كانت مجرد آلة.

وآلمتها المرة الثانية مثل الأولى، وكذلك المرة الثالثة؛ وانزعج هو، إذ كان يتوقع أن يتلاشى ألمها بفعل نوع من السحر (هكذا كان رأيه) بعد المرة الأولى، ولهذا لم يفهم لماذا تابعت تخبطها وصراخها؛ واشتعل غضبه فأدار لها ظهره ونام. وانهمرت الدموع من عيني ميغي في شعرها، واستلقت على ظهرها تتمنى الموت أو العودة إلى حياتها القديمة في دروغيدا.

هل هذا ما عناه الأب رالف منذ سنوات طويلة مضت عندما أخبرها عن ممر سري له علاقة بوجود الأطفال؟ كانت طريقة رائعة لاكتشاف معنى كلماته. ولا عجب إذا رفض أن يفسر بوضوح أكثر. ومع ذلك فإن لوك كان يبدو مستمتعاً بهذا النشاط حتى أنه كرره ثلاث مرات متتالية. وواضح أن ذلك لم يكن مؤلماً له هو. ولهذا السبب وجدت أنها تكرهه وتكره ما فعل.

كانت منهكة تماماً، وكلما تحركت شعرت بأنها تموت، واستدارت بجهد على جنبها مديرة ظهرها للوك، ودفنت رأسها في الوسادة تبكي، وهرب منها النعاس بينما كان لوك يغط في نوم عميق، ولم يحس بها على الإطلاق وهي تتقلب في السرير بهدوء محاولة ألاّ توقظه، ولم يتغير حتى تنفسه المنتظم. كان هادئاً في نومه، لا يشخر ولا يتقلب، وفكرت وهي تنتظر شروق الشمس أنها كانت ستسعد بالنوم بقربه لو كان الأمر مقتصراً على هذا فقط.

وطلع النهار متألقاً، وبالسرعة نفسها التي يهبط فيها الظلام، واستغربت ألاّ تسمع صياح الديكة ولا الأصوات الأخرى التي ترافق الصباح في دروغيدا، أصوات الخنازير والأغنام والخيول والكلاب.

واستيقظ لوك واستدار نحوها، وشعرت به يقبلها على كتفها، وكانت مرهقة جداً وقد غمرها الحنين إلى دروغيدا حتى أنها نسيت الحشمة ولم تُغَطي نفسها.

ــ «هيا يا ميغان، دعيني أنظر إليك» قال هذا بلهجة الأمر وقد وضع يده على ردفها. «استديري كفتاة لطيفة».

لا شيء يهم هذا الصباح، واستدارت وهي ترف بجفنيها، واستلقت على ظهرها تنظر إليه بجمود:

ــ «إني لا أحب اسم ميغان» وكان هذا هو الاعتراض الوحيد في مقدورها. «إني أتمنى لو تناديني بميغي».

ــ «وأنا لا أحب ميغي، ولكن إذا كنت تكرهين ميغان بهذا الشكل فسأناديك ميغ» وتنقل نظره فوق جسدها حالماً. «إن جسمك جميل جداً» ولمس أحد نهديها «خاصة هذا»، ثم كوم الوسائد وراء ظهره واستند إليها وهو يبتسم. «هيا يا ميغ، قبليني، لقد جاء دورك في المبادرة، وربما كنت تفضلين ذلك».

«إني لا أريد أن أقبلك ثانية ما حييت» فكرت ميغي وهي تنظر إلى الجسم الطويل القوي، وإلى الشعيرات السوداء الكثة على

صدره وساقيه. كانت ميغي قد كبرت برفقة رجال لا يخلعون قطعة واحدة من ملابسهم أمام النساء، ولكنهم كانوا يفتحون قمصانهم على صدروهم المشعرة، في الحر، وكانوا كلهم شقراً، ولم يكن منظرهم يجرح نظرها. أما هذا الرجل الأسود، فقد كان غريباً مثيراً للنفور. وكان شعر رالف أسود أيضاً مثل هذا، ولكنها كانت تتذكر جيداً الصدر الأسمر الناعم وليس به شعرة واحدة.

ــ افعلي ما أقول لك يا ميغ، قبليني.

وانحنت فوقه وقبلته، وشدها إليه يجبرها على متابعة القبلة... إن الرجال مخلوقات غريبة. لماذا يتهافتون على هذا الشيء وكأنه ألذّ ما في العالم بينما هو مقرف في الحقيقة. مهزلة حب. ولو لم تكن ميغي تأمل بأن يؤدي هذا إلى مولد طفل، لرفضته تماماً وكل ما يشابهه من قريب أو بعيد.

○

ــ «لقد وجدت لك عملاً. قال لوك بعد الإفطار الذي تناولاه في صالة الفندق.

ــ ماذا؟ قبل أن أرتب بيتنا؟ قبل أن يكون لنا بيت يا لوك؟

ـ لا معنى لأن نستأجر الآن بيتاً يا ميغ. إني ذاهب لقطع قصب السكر، ولقد رتبت كل الأمور. إن أفضل فريق لقطع قصب السكر في كوينزلاند هو فريق من السويديين والبولونيين والإيرلنديين بقيادة رجل يدعى «سوينسون»، ولقد ذهبت لمقابلته عندما كنت تنامين بعد تلك الرحلة الطويلة، وليس عنده عدد كاف من العمال وقد قرر أن يجربني، ومعنى ذلك أني سأعيش في المساكن المخصصة للعمال. ونحن نقطع القصب ستة أيام في الأسبوع من شروق الشمس حتى المغرب. وليس هذا فقط، فلن نبقى في مكان واحد وإنما سنتنقل دائماً على طول الشاطىء حين يتطلب العمل منا ذلك. وما أكسبه يتعلق مع فريق «آرن» فسوف أكسب أكثر من عشرين ليرة في الأسبوع. عشرين ليرة في الأسبوع! هل تتصورين ذلك؟

ـ هل تحاول أن تخبرني بأننا لن نعيش سوية يا لوك؟

ـ لن نستطيع ذلك يا ميغ! ولا يسمح للرجال باصطحاب النساء إلى المساكن، فلماذا تعيشين في منزل لوحدك؟ ومن الأفضل أن تعملي أيضاً، فكلها نقود توصلنا إلى مزرعتنا.

ـ ولكن أين سأسكن؟ وبأي عمل سأقوم؟ ليس هناك خيول اعتني بها هنا.

ـ كلا، لسوء الحظ. ولهذا السبب حصلت لك على عمل يؤويك في الوقت نفسه وسيكون مسكنك مجاناً، فلا أريد أن أبذر النقود عليك. إنك ستعملين كخادمة في «هيملهوتش»، في بيت «لودفيغ مولر». إنه أكبر ملاكي مزراع القصب في هذه المنطقة، وزوجته كسيحة ولا تستطيع إدارة منزلها بنفسها. سآخذك إلى هناك غداً صباحاً.

ـ ولكن متى سأراك يا لوك؟

ـ أيام الأحد. إن لودي يعرف أنك متزوجة، ولن يمانع في مغادرتك للبيت يوم الأحد.

ـ حسناً، لا شك أنك دبرت الأمور بشكل يرضيك، أليس كذلك؟

ـ أظن ذلك. آه يا ميغي، إننا سنصبح أغنياء، وسوف نشتغل بجد ونوفر كل قرش نكسبه، ولن يمر زمن طويل حتى نشتري أفضل أرض في كوينزلاند الغربية. هناك الأربعة عشر ألف ليرة التي أخذتها من بنك غيللي، والألفان اللذان سوف يصلانك كل سنة، والثلاثة عشر ألف أو أكثر التي بإمكاننا أن نكسبها

سنوياً من عملنا نحن الأثنين. لن يطول الأمر يا حبيبتي، إني أعدك بذلك. ابتسمي وتحملي ذلك من أجلي، أيه؟ لماذا ترضين بمنزل الأجرة بينما يمكنك أن تعتني قريباً بمطبخك الخاص وببيتك الخاص فيما لو عملنا بجد؟

ـ «لا بأس إذا كان هذا ما تريده يا لوك». ونظرت إلى حقيبتها. «هل أخذت مئة الليرة من حقيبتي؟»

ـ لقد وضعتها في المصرف. ليس باستطاعتك أن تحملي نقوداً بهذا الشكل يا ميغ.

ـ ولكنك أخذتها كلها، ولم يبق معي قرش واحد! كيف سأتدبر نفقاتي بعد الآن؟

ـ ولماذا تريدين انفاق النقود بحق السماء؟ ستصلين إلى «هيملهوتش» في الصباح ولن تنفقي أي شيء هناك. وسأدفع أنا حساب الفندق. لقد حان الوقت لكي تفهمي أنك قد تزوجت من عامل يا ميغ، وأنك لن تعودي ابنة المزارع الكبير المدللة التي باستطاعتها إحراق النقود إن رغبت، ولن أنفق النقود على نفسي يا ميغ، وأنت تعلمين ذلك. لن يمس أحدنا هذه النقود لأنها من أجل مستقبلنا، من أجل مزرعتنا.

ــ نعم، إني أفهم ذلك. إنك واع جداً. ولكن ماذا سأفعل فيما لو كنت حاملاً؟

وكاد يخبرها بالحقيقة، بأنه لن يكون هناك أطفال قبل أن يحقق حلمه ويشتري المزرعة، ولكن شيئاً في وجهها جعله يمتنع عن ذلك.

ــ حسناً، سيكون لكل حادث حديث، إيه؟ إني أفضل ألاّ تنجبي أولاداً قبل أن نؤمن المزرعة، أو على الأقل إني آمل ذلك.

لا منزل إذن، ولا نقود، ولا أطفال. ولا زوج حتى. وأخذت ميغي تضحك، وشاركها لوك ضحكها وقد رفع فنجان الشاي بيده يشرب نخبها.

وفي الصباح، استقلا الباص إلى هيملهوتش. كان الباص عبارة عن فورد عتيقة، لا زجاج على نوافذه، ويتسع لأثني عشر شخصاً. وشعرت ميغي بأنها أحسن حالاً، فقد تركها لوك وشأنها ذلك الصباح. ورغم أنها كانت ترغب بطفل أكثر من أي شيء آخر، فقد خانتها شجاعتها. وكانت قد قررت أنها ستحاول من جديد في أول يوم أحد لهما، حين يكون ألمها قد تلاشى. ربما

كانت تحمل طفلاً الآن ، ولن يتوجب عليها إزعاج لوك ثانية إلاّ إذا رغبت بطفل آخر . والتمعت عيناها وهي تنظر حولها باهتمام أكثر ، بينما الباص يتقدم على الطريق القذر .

كان الريف يأخذ بالألباب ، ويختلف تماماً عن غيللي ؛ وكان عليها أن تعترف بأن غيللي تفتقد هذه العظمة وهذا الجمال . ومن السهل أن ترى أن الماء وفير ، فقد كانت الأرض بلون الدم الذي أهرق لتوه ، متلمعاً قرمزياً ، وقصب السكر في الحقول التي لم تحرث ، يتضارب بلونه مع لون التراب ، وتتهاوى أوراقه الطويلة البراقة الخضراء على السيقان الحمراء الداكنة ، الضخمة كساعد لوك . وقال لوك متحمساً أن قصب السكر لا ينمو بهذا الطول وهذه الكثافة في أي مكان آخر من العالم ، وانتاجه أضخم انتاج معروف . وهذه الأرض الحمراء اللامعة تغوص إلى عمق ثلاثين متراً ، وهي مليئة بالغذاء الصحيح الذي يجبر القصب على أن يكون رائعاً وخاصة حين تؤخذ الأمطار بعين الاعتبار . وليس هناك مكان آخر في العالم يقوم فيه البيض بقطع القصب ، بقيادة رجال بيض ، وبهذه السرعة المتلهفة لجمع المال .

ـــ إنك خطيب رائع يا لوك . قالت ميغي ساخرة .

وألقى إليها بنظرة جانبية متشككة، ولكنه تمالك نفسه عن التعليق، لأن السيارة كانت قد توقفت إلى جانب الطريق لكي ينزلا.

كان هيملهوتش منزلاً فسيحاً أبيض، يقبع على قمة هضبة وتحيط به أشجار جوز الهند والموز والنخيل الأصفر التي فتحت سعفها إلى الخارج على شكل مراوح كبيرة مثل ذيل الطاووس. وكان هناك حاجز من الخيزران يحمي البيت من أسوأ الرياح الموسمية التي تهب من الشمال الغربي. وعلى الرغم من ارتفاعه فوق الهضبة فقد كان مبنياً على دعائم خشبية مرتفعة (...).

وحمل لوك حقيبة ميغي، ومشت هي إلى جانبه بجهد وهي تلهث في حذائها ذي الكعب العالي وجواربها الحريرية، وقد تدلت أطراف قبعتها حول وجهها. ولم يكن أمير قصب السكر في البيت، ولكن زوجته أتت إلى الشرفة بينما كانا يصعدان الدرج، وهي تترنح بين عكازتين. وكانت تبتسم. وعندما نظرت ميغي إلى وجهها الطيب الباسم، شعرت حالاً بالارتياح.

ــ ادخلا، ادخلا. قالت بلهجة استرالية قوية.

وإذ كانت ميغي تتوقع لهجة ألمانية، فقد شعرت بابتهاج

شديد. وأنزل لوك حقيبتها، وشد على يد السيدة التي كانت قد رفعت يمينها عن العكازة، ثم اسرع ينزل الدرج جارياً للحاق بالباص في طريق عودته. فقد كان آرن سوينسون سيمر على المقصف ليأخذه معه في الساعة العاشرة.

ـــ ما اسمك يا سيدة أونيل؟

ـــ ميغي.

ـــ آه، إنه اسم جميل. إنني أدعى آن، وأفضل أن تناديني هكذا. إنني أشعر بالوحدة جداً بعد رحيل خادمتي منذ حوالي الشهر، ولكن ليس من السهل الحصول على من يساعدك في أعمال المنزل، ولهذا فقد حاولت أن أتدبر أمري بنفسي. ليس هناك إلاّ لودي وأنا، وليس عندنا أولاد. آمل أن تحبي الحياة معنا يا ميغي.

ـــ أظن ذلك يا سيدة مولر... آن.

ـــ دعيني أطلعك على غرفتك. هل تستطعين نقل الحقيبة؟ أظن أني لا أنفع لعمل كهذا.

كانت الغرفة مفروشة ببساطة بالغة كبقية المنزل، ولكنها كانت تطل على الخارج على الجهة الوحيدة من البيت التي لم يكن

أمامها حاجز للرياح، وكانت تتقاسم الشرفة مع غرفة الجلوس التي بدت لميغي عادية جداً بمقاعدها الخيزرانية وغياب القماش منها.

ـــ إن الطقس حار جداً هنا ولا يمكن استعمال المخمل أو القماش القطني، فسرت لها آن، ونحن نعيش على الخيزران ونرتدي أقل ما يمكن من الثياب، ما تسمح به الحشمة فقط، وعلي أن أقول لك شيئاً وإلا فسوف تموتين. أنت ترتدين ملابس أكثر مما يجب بكثير.

كانت هي نفسها ترتدي سترة بدون أكام، لها قبة واسعة، وبنطالاً قصيراً جداً تخرج منه ساقاها المسكينتان المعوجتان الواهنتان. ووجدت ميغي نفسها بسرعة ترتدي الملابس نفسها وقد أعارتها إياها آن إلى أن تتمكن من إقناع لوك بأن يشتري لها ثياباً جديدة. وقد شعرت بالذل وهي تحاول أن تفسر لآن أن لوك لا يسمح لها بأن تحمل نقوداً. ولقد وجدت أن ارتداءها لهذا القليل من الملابس أقل إحراجاً من تحملها تلك المعاملة.

ـــ «حسناً، إن البنطال القصير يليق بك أكثر مني بكثير»، قالت آن، وتابعت محاضرتها المرحة:

ـــ إن لودي سيأتي لك بالأخشاب من أجل النار، وليس عليك أن

تقطعيها بنفسك أو تنقليها على الدرج. كم أتمنى لو أن عندنا كهرباء كما في المناطق القريبة من «داني»، ولكن الحكومة أبطأ من أسبوع ماطر. ربما وصل الخط في السنة القادمة إلى هيملهوتش، وحتى ذلك الحين علينا أن نرضى بفرن المازوت القبيح. ولكن انتظري يا ميغي، ففي اللحظة التي تصل فيها الكهرباء، سيكون عندنا فرن كهربائي، ونور كهربائي، وبراد.

ــ إني معتادة أن أعيش بدونها.

ــ نعم، ولكن الحر في المنطقة التي أتيت منها هو حر جاف، وأما الحر هنا فهو أسوأ بكثير جداً من ذلك. وإني أخشى أن تتأثر به صحتك، فهذا يحصل دائماً للنساء اللواتي لم يولدن ويكبرن هنا، ولهذا علاقة بالدم. إننا على خط العرض الجنوبي نفسه الذي توجد عليه بومباي ورانغون في الشمال، وهذا البلد لا يلائم لا الإنسان ولا الحيوان ما لم يكن قد ولد فيه.

ــ وابتسمت ــ آه، إنني سعيدة لوجودك بقربي وسوف نمضي وقتاً رائعاً سوية! هل تحبين القراءة؟ فأنا ولودي مولعان بها.

وشع وجه ميغي:

ــ آه، نعم.

ــ رائع! سوف تكونين مسرورة لغياب زوجك الضخم الوسيم، رغم أنك ستفتقدينه.

ولم تجب ميغي. هل ستفتقد لوك؟ هل هو وسيم؟ وفكرت بأنها إذا لم تره ثانية فستكون سعيدة تماماً. ولكنه كان زوجها والقانون يقول أن عليها أن تعيش معه. لقد تزوجته وعيناها مفتوحتان، وليس باستطاعتها أن تلوم أحداً إلا نفسها على ذلك. ربما سيجد لوك وقتاً يكرسه لها إذا أتت النقود وأصبحت المزرعة في كوينزلاند الغربية حقيقة، وسوف يعيشان سوية ويستقران ويعرفان أحدهما الآخر، ويتفقان.

لم يكن بالرجل العاطل، أو الثقيل الظل، ولكن المشكلة أنه عاش لوحده مدة طويلة وهو لا يعلم كيف يتقاسم نفسه مع آخر. وهو رجل بسيط متصلب في رأيه ولا يقلقه شيء. وما يرغب فيه هو شيء واقعي حتى ولو كان حلماً؛ مكافأة إيجابية ستأتي حتماً نتيجة لعمل متواصل، وتضحية ساحقة. ولهذا السبب كان عليها أن تحترمه. وهي لم تفكر لحظة واحدة أنه سيستخدم النقود ليبذرها على بذخه، ولقد كان يعني كل حرف مما قاله، وستبقى النقود في المصرف. ومشكلته كانت أنه لم يكن

يملك الوقت ولا الرغبة لفهم المرأة، وكان يبدو وكأنه يجهل أن المرأة كائن مختلف، وإنها تحتاج لأشياء لا يحتاجها هو، كما يحتاج هو لأشياء ليست بحاجة لها. حسناً، باستطاعة الأمر أن يكون أسوأ من هذا. كان بإمكانه أن يجعلها تشتغل عند شخص أقسى وأقل احتراماً من آن مولر. ولن يحصل لها سوء على قمة هذه الهضبة. ولكن، آه، لقد كانت بعيدة جداً عن دروغيدا.

وراودتها هذه الفكرة مرة ثانية بعد أن انتهتا من زيارة المنزل ووقفتا سوية في غرفة الجلوس المطلة على الشرفة تنظران خارجاً إلى هيملهوتش. كانت حقول قصب السكر الواسعة تترنح أمام الريح بلا انقطاع، ولونها الأخضر الذي غسله المطر يلمع وهو يتهاوى في انحدار طويل نحو النهر الكبير بضفافه المغطاة بالأدغال، وهو أكثر عرضاً بكثير من نهر الباروون. وما وراء النهر، ترتفع أراضي قصب السكر مرة ثانية، مربعات من الأخضر الفاقع مرشوشة هنا وهناك ببقع من الأرض العارية الحمراء الدامية، ولا تتوقف الزراعة إلاّ عند اقدام الجبل الكبير حيث تحل محل الأدغال. وخلف الجبل المخروطي وفي البعيد، ترتفع قمم أخرى مصبوغة باللون القرمزي. وأما السماء فقد كانت أغنى وأكثر زرقة من سماء غيللي، وقد زرعتها

كتل من الغيم الأبيض الكثيف. وكانت الألوان كلهـا مشرقـة وحادة.

ـــ « هذا هو جبل بارتل فرير » قالت آن مشيرة إلى القمة المنعزلة. « وهو يرتفع ستة آلاف قدم عن مستوى البحر. ويقال أنه من القصدير الخالص ولكن ليس هناك أمل في استخراجه وسط هذه الأدغال ».

ومع الهواء المتراخي الثقيل، تناهت إليها هبات رائحة قوية مقرفة كانت ميغي تحاول أن تبعدها عن أنفها منذ أن نزلت من القطار، شبيهة برائحة التعفن ومختلفة عنها في الوقت نفسه؛ رائحة حلوة الطعم لا تحتمل، تدير الرأس؛ وجود ملموس يبدو كأنه لا يتضاءل أبداً مهما ازدادت قوة الريح.

ـــ إن الذي تشمينه هو رائحة دبس السكر. قالت آن وقد لاحظت حركة أنف ميغي، وأشعلت سيغارة.

ـــ إنها مقرفة.

ـــ إني أعلم ذلك، ولهذا السبب فأنا أدخن. ولكنك ستعتادين عليها نوعاً ما، بالرغم من أنها، على عكس الروائح الأخرى، لا تتلاشى أبداً تماماً. ودبس السكر موجود دائماً وعلى مرور الأيام.

ـــ وما هذا البناء ذو المدخنة السوداء بقرب النهر ؟
ـــ إنها المعصرة ، وهي تحول القصب إلى سكر خام ، وما يتبقى ، وأعني بقايا القصب المعصور ، والذي لا يحتوي على أي سكر ، فيدعى « التفل » . ويرسل السكر الخام والتفل إلى الجنوب ، إلى سيدني لتصفيته . ومن السكر الخام يستخرج دبس السكر ، والسكر الأبيض ، والغلوكوز السائل . أما التفل فيحول إلى ألواح ليفية تستخدم في البناء . إنهم لا يرمون شيئاً على الإطلاق . ولهذا فإن زراعة قصب السكر تبقى عملية رابحة رغم الأزمة الاقتصادية المتعاظمة .

○

كان آرن سوينسون طويل القامة جداً ، متر وسبعة وثمانون سنتمتراً ، بطول قامة لوك تماماً ، وبوسامته أيضاً . وكان جسده العاري قد تلون بلون بني ذهبي غامق لتعرضه المستمر للشمس ، أما شعره البراق الأصفر فقد كان مجعداً كثيفاً ، وتقاطيع وجهه السويدية الدقيقة مشابهة لتقاطيع لوك بنموذجها ، وتشكل دليلاً واضحاً على اختلاط الدم الإسباني بدم الاسكوتلنديين والايرلنديين .

كان لوك قد استبدل بنطاله وقميصه الأبيض ببنطال قصير، وصعد برفقة آرن في شاحنة فورد قديمة من طراز «ت» وتوجه إلى حيث كان الفريق يقطع القصب بالقرب من غوندوي. وكانت الدراجة المستعملة التي اشتراها ملقاة في صندوق الشاحنة مع حقيبته، وهو يموت شوقاً ليبدأ بالعمل.

كانت بقية الرجال قد بدأت بقطع القصب منذ الفجر، ولم يلتفتوا عندما ظهر آرن قادماً من جهة السقائف برفقة لوك. وكان لباس القطع الرسمي عبارة عن بنطال قصير وجوارب صوفية سميكة وقبعة من القماش الخيشي. وزّم لوك عينيه وهو ينظر إلى الرجال الكادحين، بمنظرهم الغريب، وقد غطت أجسامهم طبقة سوداء من الوسخ امتدت من رؤوسهم حتى أقدامهم، والعرق قد خط سواقي وردية براقة على صدورهم وسواعدهم وظهورهم.

ـــ إن هذا بسبب الوحل والسخام الناتج عن حرق القصب، إذ يجب حرقه قبل البدء بقطعه.

وانحنى آرن ليلتقط اثنتين من الأدوات الملقاة على الأرض، وناول لوك إحداها، واستبقى الأخرى، وقال وهو يرفعها بيده:

ـــ هذه هي سكين القصب، وبها ستقطع القصب، والعمل سهل جداً إذا عرفت كيف يجب القيام به.

وابتسم وهو يباشر شرحه عملياً ويحاول أن يظهر العمل أسهل مما هو عليه فعلاً، أمام لوك.

ونظر لوك إلى السلاح القاتل الذي بيده، ولم يكن يشبه بأي شكل المنجل المستعمل في الهند الغربية. وكان يتسع على شكل مثلث بدلاً من أن يستدق تدريجياً فينتهي برأس مدبب، وعلى طرف إحدى الشفرتين كان له خطاف هائل على شكل عرف الديك.

ــ «إن المنجل العادي صغير جداً ولا ينفع لقطع قصب كوينزلاند الشمالية». قال آرن وقد أنهى استعراضه. «هذه هي اللعبة المناسبة، كما ستكتشف بنفسك، حافظ عليه مشحوذاً دائماً وأتمنى لك حظاً سعيداً».

وذهب إلى قطاعه تاركاً لوك في مكانه متردداً لحظة. ثم هز بكتفيه وابتدأ العمل. ولم يمض عليه دقائق حتى فهم لماذا يتركون هذا العمل للعبيد، وللعرق الآخر الشقي الذي لا يعلم طريقة أخرى أسهل يكسب منها رزقه، مثل الجزّ فرضاً؛ فكر لوك مازحاً بمرارة. انحن، اقطع، انتصب، اقبض على الحزمة الثقيلة الرأس، الصعبة المأخذ، انزع الأوراق، الق بها على الكومة المرتبة، اذهب

إلى مجموعة السيقان التالية؛ انحن، اقطع، انتصب، اقبض، الق به على الكومة...

كان القصب يعج بالهوام والحيوانات الطفيلية، من جرذان، وفئران هندية ضخمة، وصراصير، وضفادع، وعناكب، وأفاع، وزنابير، وذباب، ونحل. كان هناك كل ما يعض أو يلدغ بشكل لا يحتمل. ولهذا السبب كان قاطعو القصب يحرقونه أولاً مفضلين العمل في محصول مفحم على أخطار القصب الأخضر الحي. ومع ذلك فقد كانوا عرضة للعض واللسع والجروح. ولولا الجزمة لأصبحت قدما لوك أسوأ حالاً بكثير من يديه، ولكن لم يكن هناك من يرتدي قفازات بين القاطعين، إذ أن القفازات تبطىء العمل، والوقت كان من ذهب في هذه اللعبة. وفضلاً عن ذلك فالقفازات كانت للمخنثين.

وعند غياب الشمس، ناداهم آرن للتوقف، وأتى لكي يرى تقدم لوك:

ـــ «ايه، لست سيئاً يا زميل» قال وهو يربت على ظهر لوك. «خمسة أطنان، هذا جيد جداً بالنسبة لليوم الأول لك!».

ولم تكن المسافة بعيدة إلى السقائف، ولكن الليل الاستوائي

يهبط بسرعة كبيرة. وكان الظلام قد خيم عندما وصلوا. وقبل أن يدخلوا، اغتسلوا سوية، عراة في الحمّام المشترك، ثم دخلوا إلى السقائف وقد لفوا فوطهم حول خصورهم، وهناك كان قاطع القصب الموكل بالمطبخ ذلك الأسبوع قد كوّم على المائدة ما طبخه في ذلك اليوم. وكانت وجبتهم اليوم مؤلفة من شرائح اللحم مع البطاطا والخبز، ثم نوع من الحلوى بالمربى. وارتمى الرجال على الطعام والتهموا آخر قطعة منه، فقد كانوا يتضورون جوعاً.

وكان هناك صفان من الألواح المعدنية على جانبي غرفة طويلة مصنوعة من المعدن الصدىء. وتنهد الرجال وهم يشتمون القصب بألفاظ مبتكرة يحسدهم عليها رعاة البقر، وارتموا عراة على أغطيتهم التي لا لون معروف لها، وسحبوا الناموسيات من حلقاتها، وخلال لحظات كانوا يغطون في النوم، خيالات مبهمة تحت الخيام الشفافة.

وأوقف آرن لوك:

ــ دعني أرَ يديك.

وتفحص الجروح الدامية، والقروح، واللسعات:

ــ عليك بربطها وباستعمال هذا المرهم، وإذا أردت نصيحتي فعليك أن تدهن يديك بزيت جوز الهند كل مساء من أيام حياتك. إنّ لك يدين كبيرتين وإذا تحمل ظهرك العمل فستصبح قاطع قصب ماهر. سوف تتصلب يداك خلال أسبوع ولن تتألم بعدها.

كانت كل عضلة من جسم لوك الرائع تتألم لوحدها، وقد شعر بالتصلب تحت وقع هذا الألم الهائل. وبعد أن دهن يديه بالمرهم وعصبهما، استلقى على السرير المخصص له وسحب ناموسيته وأغمض عينيه على عالم من الثقوب الصغيرة الخانقة. كان قد فكر جيداً بما يجري له، ولهذا لم يرد أن يبذر قواه على ميغي؛ ولقد أصبحت فكرة ذاوية، غير مرغوبة، ملقاة بإهمال على رفّ في مؤخرة رأسه. كان يعلم أنها لن تحصل منه على شيء طالما بقي يقطع القصب.

ومر أسبوع قبل أن تتصلب يداه ويبدأ في قطع ثمانية أطنان من القصب على الأقل يومياً كما يتطلب آرن من أعضاء فريقه. ثم بدأ يتجاوز آرن نفسه.

كان يريد أكبر قسم من النقود، وربما أن يكون شريكاً،

ولكنه كان يرغب أكثر من أي شيء آخر في أن يراهم ينظرون إليه النظرة نفهسا التي ينظرون بها إلى آرن؛ فقد كان آرن شبيهاً بإله، إذ أنه أفضل قاطع قصب في كوينزلاند، وربما يعني هذا أنه أفضل قاطع في العالم. وعندما كانوا يذهبون إلى مدينة ما مساء السبت، كان رجال المدينة يتهافتون لتقديم كأس من البيرة أو الروم لآرن، ونساء المدينة يدرن حوله كالعصافير. وكان هناك كثير من التشابه بين لوك وآرن، فقد كان الاثنان مغرورين، وكانا يجدان لذة كبيرة في اجتذاب إعجاب النساء، ولكنهما ما كانا يتجاوزان هذا الإعجاب. لم يكن عندهما أي شيء يعطيانه لأمرأة، فقد أعطيا كل شيء للقصب.

وكان لوك يجد في العمل جمالاً وألماً طالما انتظر ليشعر بهما، وكان يجد في انحنائه وانتصابه ثم انحنائه على إيقاع ديني نوعاً من المشاركة في سر إلهي يفوق مجال الرجال العاديين. لأنه، كما قال آرن المتيقظ، إذا قام بعمله ببراعة، فهو سيصبح عضواً بين نخبة العمال في العالم، ويستطيع أن يفتخر بنفسه في أي مكان وجد به، وهو يعلم أنه ليس باستطاعة رجل واحد ممن يقابلهم أن يتحمل يوماً واحداً في حقول القصب. إن ملك انجلترا لم يكن

أفضل منه، وملك انجلترا سيعجب به لو عرفه، وهو يستطيع أن ينظر بشفقة واحتقار إلى الأطباء والمحامين والكتّاب والمغرورين الآخرين. فقد كان قطع قصب السكر عملاً بطولياً يقوم به الإنسان الأبيض المتلهف لجمع المال.

وكان يجلس على حافة مضجعه يتحسس عضلات ذراعيه المشدودة البارزة المنتفخة، وينظر إلى راحتي يديه المتصلبتين المليئتين بالندبات، وإلى ساقيه السمراوين القويتين ويبتسم. فالرجل الذي يستطيع أداء هذا العمل ولا يتحمله فقط بل ويحبه أيضاً، هذا كان رجلاً. وتساءل إذا كان باستطاعة ملك انجلترا أن يقول الشيء نفسه.

ومرت أربعة أسابيع قبل أن ترى ميغي لوك. وكانت تتزين كل يوم أحد وترتدي ثوباً حريرياً جميلاً دون قميص داخلي ولا جوارب، وتنتظر زوجها الذي لم يكن يأتي. ولم يكن لودي وآن مولر ينبسان ببنت شفة، وإنما كانا ينظران إلى حيويتها تخمد كلما هبط مساء الأحد، بأسى، كستار ينزل على مسرح مضاء وخال. لم تكن ترغب فيه بالضبط، ولكنه كان ملكها، أو بالأحرى كانت هي ملكه، وربما كان هناك شيء آخر. وكانت تغضب حين

تتصور أنه لم يكن يفكر بها، حتى مجرد تفكير، بينما كانت تقضي أياماً وأسابيع تنتظره في أفكارها طوال الوقت، وتغمرها الخيبة، والمرارة، والذل، والأسى. ورغم أنها كانت تكره حتى ذكرى تلك الليلتين في الفندق، فقد أصبحت الآن تتمنى لو أنها عضت لسانها قبل أن تصرخ بألم وقتها. هذه هي المشكلة بالطبع، لقد ملّها لأنها كانت تتألم وتعكر عليه لذته. وتحول غضبها عليه وعلى لا مبالاته إلى عذاب ضمير، وانتهت بأن تلقي اللوم على نفسها في كل ما جرى.

ويوم الأحد من الأسبوع الرابع، لم تكلف نفسها عناء ارتداء ملابسها، وكانت تسير في المطبخ رائحة غادية، حافيّة القدمين، وقد ارتدت بنطالاً قصيراً فقط وسترة، وهي تحضر الإفطار للودي وآن اللذين كانا يتمتعان بهذه العادة الغريبة مرة في الأسبوع. وعندما سمعت وقع أقدام على الدرج الخلفي، التفتت وهي تدير ظهرها للمقلاة المليئة بالشحم المحمّى؛ وحدقت برهة في الشخص الطويل المشعر الواقف في الباب. لوك؟ كان يبدو كتمثال قدّ من الصخر، لا يشبه البشر. ولكن التمثال اجتاز المطبخ وقبّلها قبلة طنانة على خدها، ثم جلس أمام المائدة.

وكسرت بضع بيضات في المقلاة وأضافت إليها مقداراً آخر من الشحم.

وجاءت آن مولر إلى المطبخ وابتسمت بلباقة، بينما كانت تغلي في أعماقها غضباً من هذا القذر. ماذا يقصد بإهماله لعروسه كل هذه المدة هكذا!

وقالت له:

ـ إني مسرورة أنك تذكرت أن لك زوجة، تعالى خارجاً إلى الشرفة واجلس مع لودي، سنتناول الإفطار كلنا سوية. لوك، ساعد ميغي على حمل البيض المقلي وبإمكاني أن أحمل سلة الخبز المحمص بأسناني.

كان لودفيغ مولر من مواليد استراليا، ولكن الدم الألماني كان واضحاً عنده: البشرة الحمراء المنتفخة التي لا تستطيع تحمل البيرة والشمس سوية، الرأس المربع الرمادي، والعينان البلطيقيتان بلونهما الأزرق الباهت. وكان وزوجته يحبان ميغي جداً، ويعتبران نفسهما محظوظين لحصولهما على خدماتها. وقد كان لودي ممتناً بشكل خاص لرؤية زوجته أكثر سعادة بكثير من قبل منذ أن أخذ رأس ميغي الذهبي يلتمع في أرجاء البيت.

ـــ كيف حال قطع القصب يا لوك؟ قال لودي وهو يغرف البيض والشحم ليضعها في صحنه.

ـــ «هل تصدقني إن قلت لك إنني أحبه؟» أجاب لوك ضاحكاً وهو يملأ صحنه.

واستقرت عينا لودي الحادتان على الوجه الوسيم، وهز برأسه إيجاباً:

ـــ آه، نعم، إنك تملك الطبع الملائم والجسد الملائم لهذا العمل، على ما أظن. وهذا ما يجعلك تشعر بأنك أفضل من بقية الرجال، وأنك متفوق عليهم.

كان لودي سجين مزارع القصب التي ورثها، وبعيداً جد البعد عن أية جامعة ولم تسنح له الفرصة لبلوغها، ولذلك فقد كان دارساً متحمساً للطبيعة البشرية، وكان يقرأ مجلدات ضخمة مغلفة بالجلد المراكشي، وتحمل على ظهرها أسماء مثل فرويد وجونغ وهكسلي وراسل.

ـــ كنت قد بدأت أظن أنك لن تأتي أبداً لرؤية ميغي. قالت آن وهي تمد بعض الزبدة على قطعة من الخبز المحمص بفرشاة صغيرة.

ـــ حسناً ، لقد قررنا أنا وآرن أن نعمل يوم الأحد لبعض الوقت ، وغداً سوف نرحل إلى انغهام .

ـــ وهذا يعني أن هذه المسكينة لن تراك غالباً .

ـــ إن ميغ تفهمني . لن يطول الأمر أكثر من سنتين ، ثم أن عندنا عطلة الصيف . وقد قال لي آرن أن بإمكانه أن يجد لي عملاً في مصفاة السكر في سيدني خلال ذلك الوقت ، وسآخذ ميغي معي إلى هناك .

وسألته آن :

ـــ لماذا تعمل بكل هذه القسوة يا لوك ؟

ـــ كي أجمع ما يكفي من النقود لأشتري أرضاً في الغرب ، قرب كينونا . ألم تخبرك ميغي بذلك ؟

ـــ أظن أن ميغي لا تجيد الحديث كثيراً عن الأمور الشخصية . أخبرنا أنت يا لوك .

وجلس الثلاثة يصغون ، وينظرون إلى التعابير المتلاعبة على الوجه القوي الذي لوحته الشمس ، وإلى بريق العينين الزرقاوين . ومنذ وصوله قبل الإفطار ، لم توجه ميغي أية كلمة لأي منهم . وتكلم وتكلم دون توقف ، عن المنطقة الرائعة في الداخل ، عن

العشب، عن العصافير الضخمة التي تتبختر برقة فوق غبار شارع كينونا الوحيد، وآلاف آلاف الكناغر التي تجري وكأنها تطير، وعن الشمس المحرقة الجافة.

ــ وذات يوم سأحصل على قطعة كبيرة من هذا، لي. لقد دفعت ميغي جزءاً من النقود لهذا الغرض، وإذا تابعنا العمل على هذه الوتيرة، فلن يستغرق الأمر أكثر من أربع أو خمس سنوات. وربما أقل من ذلك إذا قبلت بقطعة أرض صغيرة، ولكني أعلم كم أستطيع أن أكسب من قطع القصب، ولهذا فالرغبة تراودني في متابعة هذا العمل وقتاً أطول بقليل كي أحصل على قطعة أرض لائقة.

وانحنى متابعاً ويداه المقرحتان تحيطان بفنجان الشاي:

ــ هل تعلمون أني تغلبت على آرن منذ بضعة أيام؟ لقد قطعت أحد عشر طناً في يوم واحد!

وكان الصفير الذي أطلقه لودي صفير إعجاب حقيقي، وانطلق الاثنان في نقاش طويل حول القدرة على قطع القصب. وكانت ميغي ترتشف الشاي القوي بدون حليب. آه يا لوك! كنت في البدء تتحدث عن سنتين، والآن أصبح الأمر يحتاج إلى

أربع أو خمس سنوات، ومن يعلم كم ستكون المدة عندما تتحدث عنها في المرة القادمة؟ كان لوك يحب عمله، لا شك في ذلك مطلقاً. فهل سيتخلى عن عمله عندما يحين الوقت؟ ولهذا السبب هل ترغب هي في الانتظار حتى يأتيها الجواب؟ كانت عائلة مولر لطيفة جداً، وكانت بعيدة جد البعد، ولم تكن مرهقة في عملها؛ ولكن إذا كان عليها أن تعيش دون زوج، فدروغيدا هي أفضل مكان لذلك. ومنذ مجيئها إلى هيملهوتش لم تشعر بنفسها على ما يرام يوماً واحداً فقط؛ ولم تكن ترغب في الطعام، وقد أصيبت بإسهال مؤلم مرات عديدة، كما أنها كانت تشعر بنوع من الكسل يلازمها بشكل لا تستطيع التخلص منه. وإذ لم تكن معتادة على هذا الإحساس من قبل، وكانت دائماً بصحة جيدة، فهذه الموجات من الانزعاج أرعبتها جداً.

وبعد الإفطار ساعدها لوك على غسل الأطباق، ثم رافقها في نزهة إلى حقل قصب قريب، وهو يتكلم طوال الوقت عن القصب، وعن قطع القصب، وعن الحياة في الهواء الطلق، وعن وسامة الرجال في فريق آرن، وكيف كان الأمر مختلفاً عن جز الأغنام، وأفضل بكثير منه.

واستدارا وسارا من جديد نحو المضبة؛ وقادها لوك إلى القبو البارد تحت البيت ما بين الأعمدة الخشبية. وكانت آن قد حولته إلى مستنبت، وقد وضعت فيه براميل مختلفة الأطوال والأحجام، وملأتها بالتراب وزرعت فيها نباتات متدلية ومتسلقة؛ وكان هناك كل الأنواع الأوركيدة، والسرخس، والعرائش الغريبة والشجيرات. وقد غطيت الأرض بالنشارة الخشبية الناعمة الطرية، وتدلت من عوارض السقف سلال كبيرة مصنوعة من الأسلاك، مليئة بالسرخس أو الأوركيدة أو الزنبق الأبيض.

أما البيغونيا الرائعة فكانت قد زرعت بعشرات الألوان البراقة حول قاعدة البراميل. كان هذا المكان الأثير لميغي عندما تريد الاختلاء بنفسها، والشيء الوحيد في هيملهوتش الذي كانت تفضله على ما في دروغيدا، فقد كان يستحيل زراعة كل هذه الأشياء في مساحة صغيرة كهذه في دروغيدا؛ لم تكن هناك رطوبة كافية في الجو.

ــ أليس هذا رائعاً يا لوك؟ هل تظن أن بإمكاننا بعد سنتين ربما أن نستأجر بيتاً أعيش فيه لوحدي؟ إني أموت شوقاً لأجرب شيئاً من هذا لنفسي.

ـ لماذا تريدين بحق السماء أن تعيشي في بيت لوحدك؟ هذه ليست غيللي يا ميغ، إنه مكان لا أمان فيه لامرأة وحيدة. أنت في وضع أفضل هنا، صدقيني ألست سعيدة هنا؟

ـ إني سعيدة كما يمكن لشخص أن يكون سعيداً في بيت الآخرين.

ـ اصغي إلي يا ميغي، عليك أن ترضي بهذا حالياً حتى نرحل صوب الغرب. لن نستطيع إنفاق النقود على استئجار البيوت وتأمين حياة رخية لك، إذ أننا لن نوفر شيئاً عندئذ. هل تسمعينني؟

ـ نعم يا لوك.

وكان منزعجاً جداً حتى إنه لم يفعل ما كان بنيته فعله عندما اصطحبها إلى القبو، وهو تقبيلها. وعوضاً عن ذلك فقد ضربها على قفاها ضربة ربما قصد بها مداعبتها، ولكن الألم الذي سببه لها لم يكن يوحي بالمداعبة فقط؛ ثم اتجه إلى الطريق نحو الأسفل حيث ترك دراجته مسندة إلى جذع شجرة. كان قد قاد دراجته على عشرين ميلاً حتى لا يدفع ثمن بطاقة الباص، وهذا يعني أنه كان عليه أن يقود الدراجة عشرين ميلاً للعودة أيضاً.

ـــ « يا لها من مسكينة ! » قالت آن للودي . « وكم أتمنى أن أقتله » .

○

وأتى كانون الثاني وانصرف ، وهو أكثر الأشهر ركوداً بالنسبة لقاطعي القصب ، ولم يسمع أي خبر عن لوك . كان قد قال أنه سيأخذ ميغي إلى سيدني ، ولكنه ذهب إلى سيدني بدونها ، برفقة آرن . كان آرن عازباً ، وكانت له عمة تملك بيتاً في روزيل ، على مسافة قريبة جداً من معمل تصفية السكر . وكان بإمكان قاطع القصب أن يجد عملاً ضمن الجدران الاسمنتية العملاقة القائمة فوق الهضبة ، إذا وجد من يسنده . وكان آرن ولوك يمضيان الوقت في تنضيد أكياس السكر . أما أوقات فراغهما فكانا يمضيانها في السباحة أو التزلج على الماء .

وبقيت ميغي مع عائلة مولر في دنغلو ، تشق طريقها بجهد عبر موسم الأمطار ، كما كانوا يسمون فصل الرياح الموسمية . كان الجفاف يستمر من آذار إلى تشرين الثاني ، ولم يكن جفافاً بالمعنى الصحيح في هذا الجزء من القارة ، ولكنه كان كالجنة بالمقارنة إلى موسم الأمطار . فخلال هذا الفصل كانت السماء تنفتح وتترك

الماء ينصب انصباباً ، ليس طوال اليوم ، وإنما بشكل متقطع ، وما بين فترتين من المطر ، كانت الأرض تتبخر وتتصاعد غيوم هائلة من البخار الأبيض ، من حقول القصب ، ومن الأرض ، ومن الغابة ، ومن الجبال .

وبمرور الوقت كانت ميغي تحن أكثر فأكثر لموطنها ، ولقد فهمت أن كوينزلاند الشمالية لن تصبح وطناً لها أبداً . لسبب واحد ، فالمناخ لم يكن يلائمها ، ربما لأنها أمضت أكبر فترة من حياتها في مناطق جافة . ثم أنها كانت تكره العزلة وغياب الصداقة ، وهذا الشعور بالتراخي . كانت تكره ضجيج الحشرات والزواحف التي كانت تحول كل ليل إلى صراع مع الضفادع العملاقة ، والعناكب والصراصير والجرذان ، ولم يكن باستطاعة شيء إبعادها عن المنزل ، وكان هذا يرعبها . فقد كانت هذه الحشرات ضخمة ، مؤذية ، جائعة . وكانت ميغي تكره المراحيض أكثر من كل شيء آخر لأنها كانت تقلب المعدة تقززاً ، وكانت فكرة فتح حفرة في الأرض غير واردة على الإطلاق في هذا المناخ الحار ، إذ أنها كانت بؤرة للحمى التيفية والأمراض الباطنية الأخرى ؛ وعوضاً عن الحفرة ، فقد كان المرحاض عبارة عن صحيفة معدنية لا تكاد تمتلىء حتى

تصبح حيّة بآلاف الديدان التي تعج فيها. وكانت الصفيحة تستبدل مرة كل أسبوع بأخرى فارغة، ولكن هذا لم يكن كافياً.

وكان كيان ميغي كله يثور ضد سكان المنطقة الذين يجدون كل هذا طبيعياً جداً، ولو عاشت عمرها في كوينزلاند الشمالية فلن يسعها موافقتهم على هذا. وعندها كانت تفكر في نفسها أنها ربما اضطرت لقضاء عمرها هنا، أو على الأقل حتى يشيخ لوك ويصبح عاجزاً عن قطع القصب. ورغم كل شوقها لدروغيدا وأحلامها عنها، فقد كانت عزة نفسها تمنعها عن أن تخبر عائلتها عن إهمال زوجها لها، وكانت تفضل أن تقضي كل حياتها هكذا بدلاً من أن تعترف بما حلّ بها.

○

ومرت الأشهر، ثم مرت سنة، وزحف الزمن صوب نهاية العام الثاني. وكان لطف آل مولر هو الشيء الوحيد الذي أبقى ميغي في هيملهوتش، وهي تحاول أن تحل معضلتها. ولو أنها كتبت لبوب تطلب منه ثمن بطاقة العودة إلى البيت، لكان قد أرسلها لها مع عودة البريد، برقياً، ولكن المسكينة ميغي لم تكن تحتمل أن

تخبر عائلتها أن لوك كان يتركها بدون قرش في محفظتها. وسيكون اليوم الذي ستخبرهم فيه عن ذلك هو اليوم الذي ستترك فيه لوك، دون رجعة، ولم تكن قد اتخذت بعد مثل هذا القرار. فكل شيء في تربيتها كان يتواطأ في داخلها لمنعها من ترك لوك: قدسية قسم الزواج، وأملها في أن تنجب طفلاً ذات يوم، والمكان الذي يشغله لوك كزوجها وسيد مصيرها. ثم كانت هناك أشياء تنبع من طبيعتها: عزة النفس العنيدة المفرطة، وكونها أكيدة من أن الغلطة كانت غلطتها بقدر ما كانت غلطة لوك. فلو لم يكن عندها شيء مغلوط، لكان لوك قد تصرف بطريقة أخرى.

وكانت قد رأته ست مرات خلال السنة والنصف التي قضتها في هذا المنفى، وفكرت غالباً رغم جهلها لوجود الشذوذ الجنسي، أنه كان من حق لوك أن يتزوج آرن لأنه كان بالحقيقة يعيش مع آرن ويفضل رفقته. وكانا قد أصبحا شريكين وأخذا ينتقلان على طول الشاطىء، يتبعان محصول القصب، ويعيشان، كما يبدو، لكي يعملا فقط. وعندما كان لوك يأتي لزيارتها، لم يكن يحاول أبداً الاختلاء بها، وإنما كان يجلس حوالي الساعة أو الساعتين يتحدث مع لودي وآن، ثم يأخذها لتمشي قليلاً، ويقبلها قبلة مودة ثم يرحل ثانية.

وكان الثلاثة، آن ولودي وميغي، يمضون أوقاتهم في المطالعة. وكان في هيملهوتش مكتبة أكبر بكثير من الرفوف القليلة الموجودة في دروغيدا، وكتب غنية بالمعرفة وصريحة أكثر بكثير. وقد تعلمت ميغي أشياء كثيرة من خلال ما قرأت.

وذات يوم من عام ١٩٣٦، بدا لوك وآرن مسرورين جداً من نفسيهما، فقد قررا، كما قالا، أن يقدما لميغي وليمة حقيقية، وسيأخذانها معهما إلى احتفال شعبي يقيمه الاسكتلنديون. وعلى عكس الميل الشائع بين مختلف الفئات العرقية في استراليا ليصبحوا استراليين تماماً، فقد كانت مختلف الجنسيات الموجودة في كوينزلاند الغربية تميل بشدة إلى المحافظة على تقاليدها وكان الصينيون، والإيطاليون، والألمان، والاسكتلنديون ـــ الايرلنديون يشكلون القسم الأعظم من الشعب. وعندما كان الاسكتلنديون يقيمون احتفالاً، كان كل اسكتلندي يحضره ولو كان يعيش على بعد مئات الكيلو مترات من مكان الاحتفال.

ورأت ميغي بدهشة أن لوك وآرن كانا يرتديان التنورة الاسكوتلندية الشعبية، ويبدوان رائعين تماماً. ونظرت إليهما وهي تمسك أنفاسها. لا شيء يضفي هيئة الرجولة على رجل مثل

الملابس الشعبية الاسكتلندية، فعندما يخطو الرجل بخطواته الواسعة الأنيقة، كانت كسرات الثوب تتطاير من الخلف بينما يبقى ساكناً تماماً من الأمام، وتحت طرف الثوب الذي يصل إلى الركبة، تظهر الساقان الأنيقتان في الجورب المقطع على شكل مربعات، والحذاء المزين بحلية معدنية. وكان الطقس حاراً جداً مما لا يسمح بارتداء الوشاح والسترة، فاكتفى الرجلان بقميص أبيض مفتوح على الصدر، وقد طويا أكمامهما إلى ما فوق المرفقين.

ـ «ماذا يعني هذا الاحتفال؟» سألت ميغي عندما غادروا البيت.

ـ إنه تجمع «غالي» للرقص.

ـ ولماذا ترتديان الزي الشعبي بحق السماء؟

ـ لن يسمحوا لنا بالدخول ما لم نرتده، والجميع يعرفوننا من خلال كل الحفلات الاسكوتلندية ما بين «بريس» و «كيرن».

ـ آه، حقاً، استطيع أن أصدق أنكما قد ذهبتما فعلاً إلى العديد منها، وإلاّ فلا أتصور أن لوك كان سيبذر النقود لشراء ثوب شعبي من أجل حفلة واحدة. أليس كذلك يا آرن؟

ـ إن للرجل الحق في الترفيه عن نفسه بعض الشيء. قال لوك بلهجة المدافع عن نفسه.

كان الاحتفال يجري في سقيفة تشبه مستودعات الحبوب، متداعية الجدران مهترئة، في وسط أشجار المستنقعات (المانغروف) المتعفنة على مصب نهر الدنغلو. آه، يا لرائحة هذه البلاد! فكرت ميغي بيأس وأنفها يرتعش من رائحة أخرى، مقرفة لا توصف. لقد عرفت رائحة دبس السكر، والتعفن، والمراحيض، والآن أشجار المانغروف. كانت كل روائح الشاطىء الكريهة تتصاعد متجمعة في مزيج واحد غير معقول.

وكان كل رجل يصل إلى السقيفة مرتدياً فعلاً الثوب الشعبي. وعندما دخلوا، ونظرت ميغي حولها، فهمت كم تشعر أنثى الطاووس بقذارتها حينما يبهرها الذكر بألوانه الرائعة الزاهية. فقد كانت النساء مثل أشباح لا وجود لها، وبلغ هذا الشعور حدته في أواخر السهرة.

كان هناك عازفا قربة يرتديان ثوباً مقلماً بالأزرق الفاتح، ويقفان على منصة متداعية في أحد أطراف القاعة، يعزفان لحناً

مرحاً بتناسق تام، والعرق يسيل من شعرهما الأشقر وينحدر على الوجهين المحمرين.

كان هناك أزواج قلة في حلبة الرقص، ولكن أغلب النشاط والصخب كان مركزاً حول مجموعة من الرجال يعبون أقداحاً من الويسكي الايرلندي بدون شك. ووجدت ميغي نفسها مهملة في زاوية مع عدة نساء أخريات، واكتفت بالبقاء هناك تنظر وهي مسحورة مما ترى. ولم يكن هناك أية امرأة بالزي الشعبي، لأن الاسكتلنديات بالطبع لا يرتدين منه إلا الوشاح فقط، وقد كان الطقس حاراً جداً وليس من المعقول أن يضعن قطعة القماش الصوفية السميكة هذه على أكتافهن. وهكذا فقد كانت النساء يرتدين ملابسهن الزرية القطنية التي يلبسنها عادة في كوينزلاند الشمالية، والتي كانت تنهدل بخجل قرب تنانير الرجال الرائعة. وكان لكل عائلة زيها الخاص. فعائلة ماكنزي كانت تلبس الأبيض والأحمر، وعائلة ماكليود الأسود والأصفر، أما عائلة سكين فقد كانت ترتدي ثوباً ذا مربعات زرقاء وحمراء، وعائلة ماكفرسون ثوباً مقطعاً بالأحمر والرمادي والأسود. وكان لوك يرتدي ثوب عائلة ماكنيل، وآرن ثوب عائلة ساسيناك. رائع.

كان لوك وآرن على ما يبدو بوضوح معـــروفين جداً ومحبوبين. كم من مرة إذن أتيـا إلى هذا الاحتفـال من دونها؟ وما الذي دفعهما إلى اصطحابها هذه الليلة؟ وتنهدت واستندت إلى الحائط. وكانت بقية النساء ينظرن إليها بفضول وخاصة إلى خاتم الزواج في أصبعها. وكان لوك وآرن محط الكثير من الإعجاب النسائي، وميغي محط الكثير من الحسد الانثوي. إنني اتساءل ماذا سيفعلن لو أخبرتهن أن ذلك الشاب الطويل العريض الأسمر، والذي هو زوجي، قد رآني بالتحديد مرتين خلال الثمانية أشهر الماضية، ولم يقابلني مرة واحدة وهو ينوي اصطحابي إلى فراشه؟ انظرن إلى الاثنين، أنيقين مغرورين! وهما ليسا اسكوتلنديين حقاً، ولكنهما يتظاهران بذلك لعلمهما أنهما يبدوان شديدا الوسامة بهذه الثياب، ويحبان جداً أن يكونا محط الأنظـار. آه، أيها المخادعان الجميلان! أنتما مغرمان بنفسيكما لدرجة أنكما لا تريدان ولا تحتاجان لحب أي مخلوق آخر.

وعند منتصف الليل، دُفِعَت النساء إلى الوراء بملاصقة الحائط، وبدأ عازفا مزمار القربة بلحن شعبي، وعندها بدأ الرقص الجدّي. وطالما بقيت ميغي حية، وكلما سمعت صوت عزف

القربة، فسيرجعها ذلك إلى الوراء، إلى تلك الليلة في السقيفة، حيث اختلطت الألحان والأصوات والحيوية المتفجرة في ما يشبه الحلم. وكان ذلك ذكرى حادة ساحرة لن تمّحي أبداً.

وانحنت السيوف نحو الأرض، ورفع رجلان من عائلة ماكدونالد أذرعهما فوق رأسيهما، وانتصبت أيديهما كأيدي راقصي باليه، وبكثير من الجد، وكأن رؤوس السيوف سوف تغرز في صدريهما، طفقا يشقان طريقهما برفق بين شفرات السيوف.

وتعالى صراخ حاد فوق لحن المزمار المتموج الرقيق، وتغير إيقاع الموسيقى، وسُحِبت السيوف إلى الأعلى، ونزل كل رجل موجود إلى حلبة الرقص، والسواعد تُعقَد وتُفَك، والتنانير تتطاير وتتطاير، وهم يرقصون ويرقصون. وكان وقع أقدامهم على الأرض الخشبية يرسل أصداء بين العوارض الخشبية، والحلي المعدنيات تلمع فوق الأحذية، وكلما تغير اللحن كان أحدهم يرمي برأسه إلى الخلف ويطلق تلك الصرخة النفاذة الناعية، تتلوها صرخات أخرى من حناجر أخرى. بينما كانت النساء ينظرن، مهملات.

كانت الساعة قد بلغت الرابعة صباحاً عندما انتهى الاحتفال، ولم يكن الجو في الخارج منعشاً، بل كان يسوده ذلك

الحذر الخاص بالليل الاستوائي ؛ وفي السماء ، كان القمر يجر نفسه متثاقلاً ضخماً على صفحة الليل اللامعة ، ورائحة المانغروف الكريهة تطغى على كل رائحة أخرى . وبينما كان آرن يقودهم في سيارة الفورد العتيقة اللاهثة ، كان آخر ما سمعته ميغي هو أغنية « أزهار الغابة » ، تدعو المعربدين للعودة إلى البيت . البيت . أين البيت ؟

وسألها لوك :

ــ حسناً ، هل استمتعت بالحفلة ؟

فأجابته :

ــ كنت سأستمتع أكثر لو رقصت قليلاً .

ــ ماذا ؟ في حفلة كهذه ؟ اصمتي يا ميغي ! إن الرقص في هذه الحالات قصر على الرجال ، ونحن متساهلون جداً معكن إذ نسمح لكن ببعض الرقصات .

ــ يبدو لي أنه لا يحق إلا للرجال أن يفعلوا الكثير من الأشياء ، وخاصة إذا كانت تلك الأشياء شيقة ، ممتعة .

ــ « حسناً ، اعذريني » قال لوك بجفاف . « كنت أظن أنك ترغبين في التغيير قليلاً ، ولهذا أتيت بك معي . لم أكن مجبراً على ذلك ، كما تعلمين ! وإن لم تكوني مسرورة فلن أفعل ذلك ثانية » .

ـــ «أظن أنك لا تنوي أن تعيد الكرة، على أية حال» قالت ميغي. «إن من غير المستحسن أن تتقبلني في حياتك. لقد تعلمت الكثير خلال الأشهر الماضية، ولكني لا أظن أن ذلك هو ما أردت أن تعلّمني. لقد أصبح من الصعب خداعي يا لوك. والواقع أني سئمتك، وسئمت الحياة التي أحياها وسئمت كل شيء آخر».

ـــ «شش..» قال بين أسنانه وهو يبدو مصعوقاً. «إننا لسنا وحدنا».

ـــ «إذن تعال لوحدك» أجابت بعنف، «متى ستتاح لي فرصة رؤيتك وحدك لأكثر من بضع دقائق فقط؟».

وتوقف آرن في أسفل الهضبة وهو يبتسم للوك بلطف:

ـــ اذهب يا صديق، اصعد معها، سأنتظرك هنا. لا تتعجل.

ـــ «إني أعني ما قلته يا لوك» قالت ميغي ما أن أصبحا بعيدين عن مسامع آرن. «لقد بدأت الدواليب تدور، هل تسمعني؟ إني أعلم أني قد وعدت بالطاعة لك، ولكنك وعدت بأن تحبني وتعزيني. وهكذا فنحن الاثنان كاذبان! إني أريد العودة إلى دروغيدا!».

وفكر في الألفي ليرة التي كانت تسقط في حسابه سنوياً، وكيف ستتوقف ميغي عن وضعها باسمه:

ــ «آه يا ميغ» قال بضعف. «انظري يا حبيبتي، لن يستمر الأمر هكذا إلى الأبد، إني أعدك! وهذا الصيف سآخذك معي إلى سيدني، اقسم لك بشرفي! وسيكون هناك شقة فارغة في منزل عمة آرن، حيث يمكننا أن نعيش ثلاثة أشهر ونتمتع بوقت رائع! تحملي معي سنة أخرى هكذا في القصب، ثم نبتاع أرضنا ونستقر. إيه؟».

وسقطت أشعة القمر على وجهه، وكان يبدو صادقاً، حزيناً، قلقاً، نادماً. ومشابهاً جداً لرالف دو بريكاسار. ولانت ميغي لأنها كنت لا تزال ترغب بالأطفال:
ــ حسناً، سنة أخرى، ولكني متمسكة بوعدك هذا عن سيدني يا لوك. تذكر ذلك.

الفصل الثاني عشر

كانت ميغي تقوم بواجبها مرة في الشهر وتكتب رسالة لـ « في » ، ولبوب ، ولبقية أخوتها الشبان ، تملؤها بوصف كوينزلاند الشمالية ، وتحاول بعناية فائقة أن تبدو مرحة ودون أن تأتي على ذكر أي خلاف بينها وبين لوك . دائماً عزة نفسها . وكل ما يعلمون في دروغيدا هو أن آل مولر هم أصدقاء لوك ، وأن ميغي تسكن عندهم لأن لوك يسافر كثيراً . وكان حبها الحقيقي للزوجين واضحا في كل كلمة تكتبها عنهما ، وهكذا فلم يقلق أحد في دروغيدا ، إلا أنهم كانوا حزينين لأنها لم تأت أبداً إلى زيارة للبيت . وكيف تستطيع أن تخبرهم أنها لا تملك أية نقود لكي تزورهم ، دون أن تخبرهم عن تعاسة زواجها .

ومن وقت لآخر، كانت تدفع نفسها وتطرح سؤالاً لا مبالياً عن الأسقف رالف، وغالباً ما كان بوب ينسى أن يخبرها بالقليل الذي يعرفه من «في» عن الأسقف. ثم وصلتها رسالة مليئة بأخباره:

«لقد وصل فجأة ذات يوم يا ميغي» يقول بوب في رسالته. «وكان يبدو حزيناً وصامتاً. استطيع القول إنه قد صدم عندما لم يرك هنا. كان يغلي غضباً لأننا لم نخبره عنك وعن لوك، ولكن عندما أخبرته الوالدة أنك أنت التي رفضت إخباره، صمت تماماً ولم يفه بكلمة عن الموضوع فيما بعد. ولكني أظنه افتقدك أكثر من أي منا، واعتقد أن هذا طبيعي جداً، لأنك كنت تمضين معه وقتاً أطول بكثير مما كنا نفعل نحن، واعتقد أيضاً أنه كان يفكر بك دائماً كأخته الصغيرة. وكان يدور في أرجاء المكان كما لو كان لا يستطيع أن يصدق أنك لن تبرزي فجأة بين لحظة وأخرى. مسكين. ولم يكن عندنا أية صورة لنريها له، وعندما طلب رؤية الصور، فكرت فقط أن من الغريب أنك لم تطلبي أن تؤخذ لك صورة يوم زفافك. وسأل إن كان قد أصبح عندك أولاد، فأجبته أني لا أظن ذلك. ليس عندك أطفال يا ميغي،

أليس كذلك؟ كم من الوقت مضى منذ زواجك؟ لقد قاربت السنتين بدون شك، لأننا الآن في تموز. إن الزمن يطير، ايه؟ أتمنى أن ترزقي قريباً بولد، لأني أظن أن الأسقف سيسر بذلك جداً. لقد عرضت عليه أن أعطيك عنوانك ولكنه رفض. لقد قال أن لا داع لذلك لأنه ذاهب إلى آثينا في اليونان، وسيمضي هناك بعض الوقت برفقة رئيس الأساقفة الذي يعمل عنده، واسمه إيطالي عجيب يبلغ طوله بضعة أمتار، ولا أستطيع أن أتذكره أبداً. هل تستطيعين أن تتصوري هذا يا ميغي، إنهم سيأخذون الطائرة، حقيقة! على أية حال، عندما وجد أنك لست في دروغيدا كي ترافقيه في نزهاته، لم يرغب في المكوث هنا طويلاً، ولقد قام بنزهة أو اثنتين على الجواد، وأقام لنا القداس يومياً، ثم غادرنا بعد ستة أيام فقط قضاها هنا».

ووضعت ميغي الرسالة من يدها. إنه قد عرف، لقد عرف! أخيراً قد عرف. ماذا فكر عندما سمع ذلك؟ كم كان مدى حزنه؟ ولماذا دفعها إلى فعل ما فعلته؟ إن ذلك لم يحسن الأمور. إنها لا تحب لوك، ولن تحب لوك أبداً، فهو لم يكن إلّا

بديلاً، رجلاً سيعطيها أولاداً مشابهين بشكلهم لأولئك الذين كان بإمكان رالف دو بريكاسار أن يعطيها إياهم. أية ورطة هذه!

○

كان رئيس الأساقفة دي كونتيني فيركيزي قد اختار النزول في فندق عادي، عوضاً عن الاستفادة من القصر الأسقفي الاثوذكسي في أثينا. وكانت مهمته غاية في الدقة، كان عليه أن يناقش مع أساقفة الكنيسة الاثوذكسية بعض المواضيع التي طال تأجيلها. وقد كان الفاتيكان يحمل للكنيسة الارثوذكسية اليونانية والروسية تقديراً لم يكن يحمله للبروتستنت. وعلى كل حال، لم يكن الاثوذكسيون منشقّين ولا هراطقة، وكان رئيس أساقفتهم يتبع القديس بطرس تماماً مثل بابا روما.

وكان رئيس الأساقفة الإيطالي يعلم أن مهمته هذه ما كانت إلا اختباراً دبلوماسياً، وخطوة أولى ستؤهله للقيام بأمور عظمى في روما. وكانت مقدرته على تكلم لغات عدة نعمة كبرى، ومعرفته العميقة باللغة اليونانية قد جعلت كفة الميزان ترجح من جهته. وقد أرسلوا يستدعونه من استراليا وأرسلوه

بالطائرة إلى هنا. لم يكن من المعقول أن يسافر من دون الأسقف دو بريكاسار، لأنه كان قد اعتاد الاعتماد على هذا الرجل الغريب أكثر وأكثر على مر السنين. وكان يعتبره مثل مازاران، حقاً مازاران، وكان نيافته معجباً جداً بالكاردينال مازاران أكثر من إعجابه بالكاردينال ريشيليو، وهكذا فقد كان تشبيه الأسقف رالف بمازاران نوعاً من المديح. كان رالف يمثل كل ما تحب الكنيسة في موظفيها الكبار، كان سريع البديهة نفّاذها، ولا تشي تعبيرات وجهه بأي شيء مما يجري في داخله؛ وكان يملك موهبة رائعة، إذ كان يعلم كيف عليه أن يتصرف حتى يرضي الموجودين معه، أكان يحبهم أم يكرههم، على اتفاق معهم في الرأي أو على خلاف. لم يكن متملقاً وإنما دبلوماسياً. وإذا لفت انتباه المسؤولين في الفاتيكان مرات عديدة إليه، فلا شك أنه سيصل إلى مركز مرموق، وهذا سيرضي نيافة الأسقف دي كونتيني فيركيزي، لأنه لم يكن يريد أن يبتعد عن «نيافة» الأسقف دو بريكاسار.

كان الحر شديداً، ولكن الأسقف رالف لم ينزعج من هواء أثينا الجاف بعد رطوبة سيدني. وكان يسير بخطواته العريضة السريعة وهو يلبس كعادته جزمة وبنطالاً تحت رادئه الكهنوتي،

ويتسلق المنحدر الصخري المؤدي إلى الأكروبول، ومر من أمام تمثال بروبيلون العابس، ثم اجتاز الاريكتيوم صاعداً عبر الطريق الصخرية الزلقة الوعرة إلى البارتينون ونزل إلى الحائط الذي خلفه. وهناك والريح تعبث بشعره الأسود وقد شاب قليلاً على الصدغين، وقف ينظر من فوق المدينة البيضاء إلى الهضاب البراقة والبحر الإيجي المدهش بزرقته الصافية. وتحته تماماً، كانت البلاكا بمقاهيها القائمة على سطوح البيوت، وقد اكتظت بالبوهيميين؛ ومن الجهة الأخرى كان مسرح هائل يتسلق الصخر. وفي البعيد، ظهرت الأعمدة الرومانية، والحصون الصليبية، والقلاع البندقية، ولكن لم يكن هناك أي أثر للأتراك. غريب هذا الشعب اليوناني! لقد كرهوا هذا العرق الذي حكمهم سبعمئة سنة أشد الكره، وما أن تحرروا منه حتى سارعوا إلى تحطيم كل شيء تركه أولئك، ولم يتركوا مئذنة ولا جامعاً. وهذه البلاد قديمة جداً مليئة بتراث غني غني، لقد كان أجداده النورمانديون برابرة عراة عندما كسى بيركليس الصخور بالرخام، ولم تكن روما آنذاك أكثر من قرية بدائية. والآن فقط، وعلى بعد أكثر من عشرين ألف كيلومتر، كان قادراً على التفكير بميغي دون أن تأخذه الرغبة في البكاء. ومع ذلك، فقد بدت له الهضاب البعيدة مغشاة قليلاً قبل أن يسيطر من جديد

على نفسه. كيف يستطيع أن يلومها وهو الذي قال لها أن تفعل هذا؟ ولقد فهم حالاً لماذا لم ترد أن تخبره، إنها لم تكن تريده أن يتعرف على زوجها، أو أن يشكل جزءاً من حياتها الجديدة. وكان يعتقد أنها ستستقر مع من ستتزوجه في غيللانبون على الأقل، إذا لم نقل في دورغيدا بالذات، وإنها ستتابع الحياة في المكان الذي يضمن لها الأمان، بعيدة عن الحذر والخطر. ولكنه بعد أن فكر بهذا طويلاً، اكتشف أنه آخر شيء يمكن أن تفعله. كلا، لقد اضطرت إلى الذهاب بعيداً، وطالما بقيت مع لوك أونيل، فهي لن ترجع. لقد أخبره بوب أنهما كانا يدخران المال الكافي لشراء أرض في كوينزلاند الغربية، وكان هذا الخبر كصوت ناقوس الموت. لم تكن ميغي ترغب في العودة، أبداً. وكانت تقصد أن تكون ميتة بالنسبة له. ولكن هل أنت سعيدة يا ميغي؟ هل هو لطيف معك؟ هل تحبينه، هذا الذي يدعى لوك أونيل؟ أي نوع من الرجال هو حتى شدك مني إليه؟ ماذا وجدت به وهو مربي المواشي العادي، حتى أحببته أكثر من إينوك ديفيز، أو ليام أوبروك، أو الستير ماكوين؟ هل لأني لن أعرفه ولن أقارنه بأحد؟ هل فعلت هذا لكي تعذبيني يا ميغي؟ لكي تجعليني أدفع الثمن؟ ولكن لماذا ليس لكما أطفال؟ ما شأن هذا الرجل حتى يطوف البلاد من

جهة لأخرى مثل المشردين ويدعك تعيشين مع أصدقائه؟ لا عجب أنه ليس هناك أطفال، إنه لا يبقى معك طويلاً من أجل ذلك. لماذا يا ميغي؟ لماذا تزوجت من هذا الشخص؟

واستدار نازلاً من الأكروبول، وسار عبر شوارع أثينا المكتظة. وعند السوق المقام في الهواء الطلق في شارع أفريبيدو، توقف يتطلع وقد سحره منظر الناس، والسلال الضخمة المليئة بالأخطبوط والسمك تحت الشمس، والخضار وقد رصت جنباً إلى جنب مع الأخفاف المزركشة. ولقد أدهشته النساء بنظراتهن الوقحة المركزة عليه، وكان ذلك شيئاً ورثنه من ثقافة مختلفة تماماً عن ثقافته المتعصبة. ولو كان إعجابهن شهوانياً (لم يجد صفة أصح من هذه) لكان قد شعر بالحرج، ولكنه تقبله كما جاء، أي على اعتبار أنه تحية للجمال الجسدي الرائع.

كان الفندق في ساحة أومونيا، فخماً وباهظ التكاليف، وكان رئيس الأساقفة دي كونتيني فيركيزي يجلس على مقعد قرب نافذة الشرفة، وهو يفكر بهدوء، وعندما دخل الأسقف رالف، أدار رأسه وهو يبتسم.

ـ لقد وصلت في الوقت المناسب يا رالف. إني أرغب في الصلاة.

ـ لقد ظننت أن كل شيء قد تم. هل هناك تعقيدات فجائية يا نيافة الأسقف؟

ـ ليس من هذا النوع. لقد وصلتني رسالة من الكاردينال مونتيفيردي اليوم، يعبر فيها عن رغبات الأب الأقدس.

وشعر رالف بكتفيه يتصلبان، وبوخزات غريبة في الجلد حول أذنيه:

ـ اخبرني.

ـ عندما تنتهي المحادثات ـ ولقد انتهت ـ علي أن أذهب إلى روما. وهناك سوف أتلقى قلنسوة الكاردينال وأتابع عملي في روما تحت رئاسة قداسته المباشرة.

ـ وماذا عني؟

ـ سوف تصبح البطريرك دو بريكاسار وتعود إلى استراليا لتأخذ مكاني بصفة مبعوث بابوي.

وتحول الجلد حول أذنيه إلى لون احمر حار، ودارت رأسه ولفّت. هو، غير إيطالي، سيكون له شرف ملء مركز المبعوث

البابوي! شيء لم يسمع به من قبل! آه، إذا استمر هكذا فهو سيصبح قريباً الكاردينال دو بريكاسار.

ــ طبعاً سوف تتلقى التدريب والتعليمات في روما أولاً. وذلك سيستغرق حوالي ستة أشهر، وخلال ذلك الوقت سأكون معك لأقدمك إلى أصدقائي. أريدهم أن يعرفوك، لأن الوقت سيأتي يوماً وسأرسل في طلبك لتساعدني في عملي في الفاتيكان.

ــ يا مولانا، لن أستطيع أن أشكرك بما فيه الكفاية! هذا الحظ الكبير يعود إليك.

ــ لقد وهبني الله ما يكفي من الذكاء لكي أميز شخصاً كفؤاً لا يمكن أن يعيش في الظلمة، يا رالف! والآن دعنا نركع ونصلِ، إن الله رحيم جداً.

كانت سبحته وكتاب الصلوات على طاولة بقربه، ومد الأسقف رالف يده المرتعشة ليتناول السبحة فارتطمت بالكتاب الذي سقط أرضاً. سقط مفتوحاً في منتصفه. وكان رئيس الأساقفة أقرب إليه من رالف، فتناوله ونظر بفضول إلى الأوراق السمراء الشفافة التي كانت وردة فيما مضى.

ــ يا للغرابة! لماذا تحتفظ بهذه؟ أهي ذكرى من وطنك، أو ربما من أمك؟

وكانت العينان النفاذتان اللتان تريان ما وراء الرياء والمراوغة تنظران إليه مباشرة، ولم يجد الوقت لإخفاء تأثره أو خشيته:

ــ كلا، قال مكشراً. إني لا أريد أي تذكار من أمي.

ــ ولكنه لا شك يعني الكثير بالنسبة لك حتى خبأته بحب بين صفحات أعز كتاب لديك. عمّ يتحدث هذا التذكار؟

ــ عن حب صاف كالذي أحمله لإلهي، يا فيتوريو. إنه يشرّف الكتاب الذي وضع به.

ــ هذا ما فهمته لأني أعرفك. ولكن ألا يشكل هذا الحب خطراً على حبك للكنيسة؟

ــ كلا، فلقد تخليت عنها من أجل الكنيسة، وسأتخلى عنها دائماً. لقد ابتعدت عنها كثيراً ولن يمكنني أبداً العودة إلى الوراء.

ــ أخيراً فهمت حزنك! يا عزيزي رالف، إن الأمر ليس سيئاً بالدرجة التي تتصورها. حقاً إنك ستعيش لتقدم الخير للعديد من البشر، وسوف يحبك العديدون. وأما هي، تلك التي

حفظت حبها في هذا التذكار العبق القديم، فلن تقع في الضيق أبداً. لأنك احتفظت بالحب مع الوردة.

ـ لا أظنها تفهم ذلك مطلقاً.

ـ آه، بلى. إذا كنت قد أحببتها بهذا الشكل، فأنا واثق أن فيها من المرأة ما يكفي لكي تفهم. وإلا لكنت نسيتها لحد الآن، ورميت هذه البقايا منذ زمن طويل.

ـ لقد مررت بلحظات لم يمنعني فيها عن التخلي عن كل شيء والذهاب إليها إلا ركوعي ساعات طويلة مصلياً.

ونهض رئيس الأساقفة من مقعده وأتى يركع قرب صديقه الشاب الوسيم، وقد أحبه كما لم يحب إلا القليل إلى جانب ربه والكنيسة، وهما لا مرئيان بالنسبة له.

ـ إنك لن تتخلى عن أي شيء يا رالف، وأنت تعلم ذلك. إنك تخص الكنيسة ولقد كنت وستبقى إلى الأبد ملكاً للكنيسة. إن الدعوة بالنسبة لك حقيقية. والآن علينا بالصلاة، وسوف أضيف «الوردة» إلى صلواتي حتى آخر أيام حياتي. أيها الرب القدير، أرسل لنا ما شئت من الأحزان والآلام خلال سيرنا نحو الحياة الأبدية. سنتعلم كيف نصبر كما صبرت.

وفي آخر شهر آب، تلقت ميغي رسالة من لوك يخبرها فيها أنه مريض بداء «ويل» في مستشفى تاونسفيل، وإنه سيخرج قريباً إذ ليس من خطر عليه.

«وهكذا يبدو أننا لن ننتظر آخر السنة حتى نأخذ إجازة يا ميغ. لن أستطيع العودة إلى قطع القصب قبل أن أشعر بالتحسن مئة بالمئة، وأفضل طريقة لذلك هي أن آخذ إجازة لائقة. وهكذا فإني سأصل خلال أسبوع لآخذك إلى بحيرة «ايتشام» لنقضي أسبوعين هناك، إلى أن تتحسن صحتي ويمكنني العودة إلى العمل».

ولم تستطع ميغي تصديق ذلك، ولم تكن تعلم إن كانت ترغب في رفقته أم لا، الآن وقد سنحت لها الفرصة. ومع أن الألم في رأسها قد أخذ وقتاً أطول من جسمها حتى شفي، إلا أن ذكرى امتحان شهر العسل الذي مرت به في «دنّي» كانت قد أصبحت شيئاً بعيداً من الماضي، وفقدت القدرة على إرهابها؛ ومن خلال مطالعاتها كانت قد فهمت أن أغلب ما حصل كان بسبب الجهل، جهلها هي، وجهل لوك أيضاً. آه، يا إلهي، إني أتوسل إليك أن تنتهي هذه الإجازة بطفل! لو كان باستطاعتها فقط أن

تحصل على طفل لتغدق عليه حبها، فسيكون الأمر أسهل بكثير. ولن تنزعج آن من وجود الطفل بل ستحبه. ولودي أيضاً. لقد قالا ذلك مراراً وهما يتمنيان لو يأتي لوك فترة كافية لكي يصلح حياة زوجته المجدبة الخالية من الحب.

وقد فرحا كثيراً عندما أخبرتهما ميغي بضمون الرسالة، ولكنهما في أعماقهما لم يصدقا ذلك. وقالت آن للودي:

ـ إن ذلك واضح كالشمس، فذلك الحقير سيجد عذراً ما كي يسافر من دونها.

كان لوك قد اقترض سيارة من مكان ما، وأتى يأخذ ميغي في الصباح الباكر. كان يبدو ضعيفاً، مجعداً، ومصفراً كما لو كان قد وضع في الخلّ. وصدمت ميغي لرؤيته ولكنها ناولته حقيبتها وصعدت بقربه.

ـ ما هو داء «ويل» يا لوك؟ لقد قلت أن لا خطر عليك، ولكنك في الواقع تبدو وكأنك كنت مريضاً جداً.

ـ آه، إنه نوع من اليرقان يصيب قاطعي القصب دائماً، وتحمله جرذان القصب وتنقله إلينا من خلال جرح أو تقرح. إني

بصحة جيدة ، ولم أقاس جداً بالمقارنة إلى بعضهم . إن الطبيب يقول إني سأشفى تماماً بسرعة البرق .

وتسلقت السيارة الطريق المؤدية إلى الداخل عبر ممر هائل مليء بالأدغال ، كان هناك نهر فائض يزمجر وهو يتهاوى نحو الأسفل ، وشلال رائع يتساقط من مكان ما في الأعلى ليلحق بالنهر ، عبر الطريق . ومرا بين الجرف الصخري والماء المتهاوي تحت قوس رطب لامع من الضوء الرائع والظلال . وعندما بدءا بالصعود ، أصبح الهواء بارداً ، رطباً ولذيذاً ، وكانت ميغي قد نسيت لذة الهواء البارد . وامتدت أمامهم الأدغال الكثيفة التي لم يجرؤ أحد على دخولها يوماً ، وكان معظمها مختفياً خلف ستار من أوراق العرائش المتدلية من قمة شجرة إلى أخرى ، مستمرة لا نهاية لها ، كغطاء كبير من المخمل الأخضر منشور على الغابة . وتحت الافريز لمحت ميغي أزهاراً رائعة وفراشات ، ونسيج عنكبوت بضخامة عجلة العربة ، وقد ربضت في وسطه عناكب هائلة ، أنيقة ، مرقشة ، بلا حراك ، كما كانت هناك فطور خيالية متعلقة بجذوع الأشجار الطحلبية ، وعصافير تجر وراءها ذيلاً طويلاً أحمر أو أشقر .

كانت بحيرة « ايتشام » تقع في أعلى النجد ، رومنطقية في

هذا المكان الذي لم يدنس. وقبل هبوط الظلام، خرجا إلى شرفة شقتهم المستأجرة لينظرا عبر الماء الهادىء. كانت ميغي تريد رؤية وطاويط الفواكه المسماة بالثعالب الطائرة، وهي تهبط بالآلاف، وكأنها تعلن يوم الدينونة، نحو الأماكن التي تجد فيها غذاءها. كانت هائلة مقرفة ولكنها خجول جداً وغير مؤذية على الإطلاق. وكانت رؤيتها مرعبة على صفحة السماء المتوهجة وهي تقترب مثل أغطية متموجة، ولم تكن ميغي تفّوت أبداً فرصة النظر إليها من شرفة هيملهوتش.

أما النعيم بذاته فقد كان أن يغطس الإنسان في السرير البارد الناعم دون أن يضطر إلى البقاء في جهة منه حتى تتبلل بالعرق قبل أن ينتقل بعناية فائقة إلى جهة ثانية وهو يعلم أن الجهة الأولى لن تجف. وتناول لوك من حقيبته حزمة رقيقة بنية اللون، واخرج منها قبضة من أشياء صغيرة دائرية الشكل، وضعها على المضندة بقربه.

ومدت ميغي يدها وتناولت إحداها تتفحصها، وسألته بفضول:

ــ ما هذا بحق السماء؟

ـــ « رسائل فرنسية » . كان قد نسي قراره بعدم إخبارها إنه يمارس « منع الحمل » . إنك من دونها ستحملين ، ونحن لسنا قادرين على ذلك حالياً قبل أن نشتري مزرعتنا .

كان يجلس عارياً على طرف السرير ، وكان قد أصبح نحيلاً وبرز ردفاه وأضلاعه ، ولكن عينيه الزرقاوين كانتا تبرقان . ومد يده ليقبض على يدها التي تمسك « بالرسالة الفرنسية » :

ـــ لقد وصلنا تقريباً إلى هدفنا يا ميغي ، وصلنا تقريباً ! واعتقد أن خمسة آلاف ليرة أخرى ستشتري لنا أفضل مزرعة إلى الغرب من شارترز تاور .

ـــ « سنحصل عليها » قالت ميغي بصوت هادىء جداً . « سأكتب للأسقف رالف دو بريكاسار ، وسيقرضنا النقود بدون فائدة » .

ـــ « لن تفعلي هذا بالتأكيد » أجاب بحدة ، « اللعنة يا ميغي ، أين عزة نفسك ؟ سنعمل من أجل هذا ولن نقترض نقوداً ! إني لم أكن مديناً لأحد بقرش واحد طوال حياتي ، ولن افعل ذلك الآن » .

وكانت تصغي إليه بشرود وهي تحدق به عبر ضبابة حمراء

براقة. إنها لم تغضب هكذا مرة واحدة طوال حياتها. غشاش، كاذب، أناني! كيف يجرؤ أن يفعل بها هكذا، أن يحرمها من الأطفال، أن يجعلها تصدق أنه ينوي فعلاً أن يصبح ملاّكاً! لقد وجد مكانه اللائق مع آرن سوينسون وقصب السكر، ولن يتخلى عنه. وأخفت غضبها جيداً حتى أنها دهشت هي من نفسها، ووجهت انتباهها مرة ثانية إلى الدائرة المطاطية الصغيرة في يدها:

ــ اخبرني عن هذه الأشياء التي تسميها «رسائل فرنسية»، وكيف تمنعني من الحمل.

وأتى يقف خلفها، وارتعشت عندما لامسها، وظن أنها ترتعش من اللذة، ولكنها كانت ترتجف اشمئزازاً.

ــ ألا تعلمين شيئاً يا ميغي؟

ــ «كلا»، قالت كاذبة. ولكن هذا كان صحيحاً فيما يتعلق بـ «الرسائل الفرنسية» على كل حال. إنها لا تتذكر أنها قرأت شيئاً من هذا القبيل أبداً.

وفسر لها ما يحصل. إن الأمر هكذا إذن أيها المحتال!

وأطفأ النور، وسحبها إلى السرير بقربه، ولم يطل الأمر حتى بدأ يبحث عن «مضاد الأطفال»، وسمعت الصوت نفسه

الذي سمعته في غرفة النوم في فندق «دنّي»، وعلمت أنه يضع «الرسالة الفرنسية». المحتال! ما العمل! وحاولت ألاّ تجعله يشعر بألمها وتحملته. لماذا تتألم إذا كان ما يحصل طبيعياً؟

ـــ «إنك متضايقة يا ميغي، أليس كذلك؟» سألها فيما بعد.

«ظننت أنك لن تتألمي بعد المرة الأولى. حسناً، لن افعله ثانية. ما رأيك بطريقة أخرى؟

ـــ إذا كنت تقصد أنك لن تؤلمني فأنا موافقة.

ـــ ليتك تكونين أكثر حماسة يا ميغ.

ـــ لماذا؟

آه، منذ سنتين وهو لا يملك الوقت ولا القوة للقيام بهذا. آه، من الرائع أن تكون امرأة بقربه. لم يكن قد شعر أبداً أنه متزوج من ميغي، ولم يكن الأمر مختلفاً عن وجوده مع أية امرأة أخرى في الدار، خلف حانة كينونا، أو مع الآنسة كارمايكل على حائط سقيفة الجز. كان صدر ميغي جميلاً، كما يحبه، بسبب ركوب الخيل. والرسائل الفرنسية تحد من حساسية الرجل، ولكن عدم استعمالها يعني الكثير من المشاكل.

وإذ كان قد قرر أن «يفعل هذا بطريقة أخرى» فلم يضع

الغطاء الواقي ، وبرأس بارد تماماً ، اغتصبته ميغي تقريباً ، وفتح عينيه وحاول أن يدفعها بعيداً ، ولكنه كان عاجزاً . . .

وبعدها قبلها بلطف .

ــ لوك ؟

ــ ماذا ؟

ــ لماذا لا نستطيع أن نفعل هذا دوماً ؟ دون أن تضع « رسالتك الفرنسية » ؟

ــ لم يكن علينا أن نفعله هذه المرة ، فكيف نفعله ثانية ؟

وانحنت نحوه تمسد صدره :

ــ ولكن ألا ترى وضعي ؟ لن يبقى شيء في داخلي . آه يا لوك ، أرجوك ! إن هذا أفضل بكثير ، كما إنه لا يؤلمني تقريباً . إني متأكدة أن كل شيء يسير تماماً لأني لن أحتفظ بشيء ، أرجوك .

ومن هو الإنسان الذي يرفض تكرار اللذة عندما تقدم له ؟ ومثل آدم ، احنى لوك برأسه موافقاً ، لأن معلوماته في هذا المجال كانت أقل بكثير من معلومات ميغي .

ـــ أظن أن هناك بعض الحقيقة فيما تقولين، وإني أشعر بلذة عارمة عندما لا تقاومينني. حسناً يا ميغي، سنفعله بهذه الطريقة من الآن فصاعداً.

وابتسمت في الظلام، راضية. وفي كل مرة كانت تطبق ساقيها وتشد عضلاتها وهي تتعلق بما في داخلها بكل ذرة تصميم في أعماقها. آه يا سيدي الجميل، انتظر وسوف ترى يا لوك أونيل. سأحصل على طفلي ولو قتلني ذلك.

وبعيداً عن حرارة ورطوبة السهول الساحلية، شفي لوك بسرعة. كان يأكل جيداً وقد استعاد وزنه سريعاً، وكان بحاجة لذلك؛ وتلاشى عن جلده اللون الأصفر، وعاد إلى سمرته المعتادة. ولم يكن من الصعب إقناعه بتمديد الأسبوعين إلى ثلاثة أسابيع ثم إلى أربعة، وقد أغرته لهفة ميغي واستجابتها له في السرير. ولكنه اعترض في آخر الشهر:

ـــ لم يبق هناك أي عذر يا ميغي. إني بأحسن صحة، وها نحن جالسان هنا في قمة العالم نبذر نقودنا مثل ملك وملكة. آرن بحاجة إلي.

ـــ ألن تغير رأيك يا لوك؟ باستطاعتك أن تشتري مزرعتك حالاً إذا كنت تريد ذلك فعلاً.

ـــ دعينا هكذا فترة أخرى يا ميغي.

لم يكن يقر بذلك طبعاً، ولكن إغراء قصب السكر كان في عظامه ودمه، هذا السحر الغريب الذي يتطلبه بعض الرجال ويجدونه في العمل الشاق. وطالما بقيت قوة شبابه فسيبقى لوك مخلصاً لقصب السكر. أما الشيء الوحيد الذي تمنته ميغي فهو حمله على تغيير رأيه كي يرضى بإنجاب ولد ووريث للمزرعة التي سيشتريها قرب كينونا.

وعادت إلى هيملهوتش لتنتظر وتأمل. أرجوك، أرجوك يا إلهي، ليتني أكون حاملاً! إن وجود الطفل سيحل كل الأمور، لهذا أرجوك، دعني أكن حاملاً. ولقد كانت حاملاً. وعندما أخبرت آن ولودي، كادا يطيران من الفرح. واكتشفت ميغي أن لودي كان كنزاً، فقد قام بتنفيذ ثياب للطفل، وطرزها أدق تطريز، وهو شيء لم تتمكن ميغي من تعلمه أبداً. وهكذا وبينما كان يدفع الابرة عبر النسيج الدقيق، بيديه الغليظتين الساحرتين، كانت ميغي تساعد آن في تحضير غرفة للطفل.

أما المشكلة الوحيدة فهي أن الطفل لم يكن في حالة جيدة، أكان ذلك بسبب الحر أو بسبب تعاسة ميغي؟ هذا ما لم تعلمه. كانت التقيؤات الصباحية تدوم طوال النهار وقد استمرت إلى ما بعد الزمن الذي كان يجب أن تتوقف فيه بكثير؛ وعلى الرغم من السمنة الخفيفة التي اكتسبتها، فقد كانت تتألم بشدة من السوائل الكثيرة التي توضعت في أنسجة جسدها، وارتفع ضغطها إلى درجة أقلقت الطبيب سميث الذي قال في أول الأمر أن عليها أن تذهب إلى مستشفى كيرنز حيث تقضي ما تبقى لها من فترة الحمل، ولكنه بعد أن فكر طويلاً بغياب زوجها، وعدم وجود أي أصدقاء لها، قرر أن من الأفضل لها أن تبقى مع لودي وآن اللذين سيعتنيان بها. ولكن عليها أن تذهب إلى المستشفى في الأسابيع الأخيرة من الحمل.

ــ «وحاولا أن تتصلا بزوجها حتى يأتي ويراها»، زمجر الطبيب وهو يتوجه بحديثه إلى لودي.

كانت ميغي قد كتبت حالاً لتخبر لوك بأنها حامل، وهي متأكدة تماماً ككل النساء، إنها إذا وضعت لوك أمام أمر واقع فسيمتلىء حماسة. ولكن جوابه نزع كل وهم من هذا النوع. كان

غاضباً جداً. وبالنسبة له، فكونه سيصبح أباً كان يعني شيئاً واحداً، وهو أن عليه أن يغذي شخصين عاطلين عن العمل بدلاً من واحد، وكان هذا شيئاً مرّاً لن تستطيع ميغي ابتلاعه، ولكنها ابتعلته إذ لم يكن لها خيار في الأمر. والطفل القادم يربطها الآن به كما تربطها عزة نفسها. ولكنها شعرت بأنها مريضة، عاجزة، غير محبوبة، حتى الطفل لا يحبها، ولم يكن يرغب في أن يُكوَّن أو في أن يولد. كانت تستطيع أن تشعر في داخلها باعتراضات المخلوق الصغير الضعيفة في بطنها المتضخم. ولو كان باستطاعتها تحمل مسافة السفر إلى دروغيدا لعادت إلى البيت، ولكن الدكتور سميث هز رأسه بحزم. ولو أخذت القطار لمدة أسبوع أو أكثر، حتى على حمالة، فذلك يعني نهاية الطفل الحتمية.

ورغم تعاستها وخيبة أملها، لن تتمكن ميغي وهي بكامل وعيها أن تقوم بأي شيء يؤذي الطفل. ومع مرور الوقت بدأت الحماسة تذوي في أعماقها، وكذلك الشوق الذي كانت تشعر به لكي يكون لها شيء منها تغدق عليه حبها. وتعلق الولد بها بثقل أكثر، وبحقد أكثر.

وتحدث الدكتور سميث عن ضرورة نقلها إلى كيرنز في وقت

مبكر ، وكان غير متأكد من إمكانية بقاء ميغي على قيد الحياة إذا ما وضعت الطفل في دنغلو التي لم تكن تملك إلا مستوصفاً بدائياً . كان ضغط ميغي لا يزال مرتفعاً ، والسوائل تتزايد في أنسجتها ، وتحدث الطبيب أيضاً عن تسمم الدم ، وعن التشنج أثناء الوضع ، كلمتان طيبتان طويلتان أرعبتا لودي وآن حتى وافقا على المستشفى رغم أنهما كانا يتلهفان على استقبال المولود في هيملهوتش . وفي آخر شهر أيار ، لم يعد أمامها إلا أربعة أسابيع ، أربعة أسابيع حتى تتخلص ميغي من هذا العبء الذي لا يطاق ، هذا الولد العاق . وقد تعلمت أن تكرهه ، هذا الكائن الذي كانت تتلهف إليه في البدء قبل أن تكتشف المشكلة التي سيسببها لها . لماذا فكرت أن لوك سيتشوق للولد بمجرد أن يعلم بوجوده الحقيقي؟ لا شيء في موقفه أو تصرفاته منذ زواجهما كان ينبىء بذلك .

وجاء اليوم الذي اعترفت به أن ذلك كان كارثة ، وتخلت عن عزة نفسها السخيفة وهي تحاول أن تنقذ ما يمكن إنقاذه . لقد تزوجا لأسباب خاطئة جداً : هو من أجل نقودها ، وهي لكي تهرب من رالف دو بريكاسار وتمسك به في الوقت نفسه . لم يكن

بينهما أي ادعاء بالحب ، وكان بإمكان الحب فقط مساعدتها ومساعدة لوك حتى يتغلبا على الصعوبات الجمة التي خلقها الاختلاف في أهدافهما ورغائبهما .

والشيء الغريب هو أنها لم تكن تبدو قادرة على كره لوك ، بينما وجدت نفسها تكره رالف دو بريكاسار أكثر وأكثر . ومع ذلك ، والآن وقد انتهى كل شيء ، فقد كان رالف أكثر لطفاً وعدلاً من لوك . لم يشجعها أبداً ، أبداً ، على أن تحلم به بأي شكل آخر إلاّ ككاهن وصديق ، لأنه في المرتين اللتين قبلها بهما ، كانت هي التي قامت بالمبادرة .

لماذا تغضب منه بهذا الشكل؟ لماذا تكره رالف وليس لوك ؟ إن عليها أن تلوم مخاوفها ونقصها هي والحقد العظيم والإهانة التي شعرت بها عندما رفضها بينما كانت تحبه وترغب فيه بشدة . عليها أن تلوم تلك النزوة الغبية التي دفعتها للزواج من لوك اونيل ، فخانت نفسها ، وخانت رالف . لا يهم إن عجزت عن الزواج منه ذات يوم ، والنوم معه ، وحمل أولاده . ولا يهم أنه لم يُردها . إنه لم يُردها . وتبقى الحقيقة أنه هو من أرادت ، ولم يكن عليها أن تقبل بأقل من ذلك .

ولكنها كانت تعلم أنه لا يمكن تصحيح الأخطاء . كانت

قد تزوجت من لوك أونيل، وهي تحمل ولد لوك اونيل، وكيف بإمكانها أن تكون سعيدة عند التفكير بابن لوك أونيل بينما هو نفسه لم يكن راغباً فيه؟ يا للمسكين الصغير. وعلى كل حال، وعندما يولد هذا الطفل، فسيكون انساناً بحد ذاته، وسيحصل على الحب لأنه انسان فقط. إنما... كانت ستضحي بكل شيء لو كان هذا ولد رالف دو بريكاسار. المستحيل، الذي لن يكون أبداً. كان رالف يخدم مؤسسة تصر على استملاكه بكامله، حتى ذلك الجزء منه الذي لا حاجة لها به. رجولته. كانت الأم الكنيسة تتطلب منه التضحية بذلك من أجل عظمة مؤسستها؛ وبهذا أضاعته، وسحقت كيانه في العدم، واطمأنت أنه عندما سيموت فهو سيموت ويمّحي تماماً دون أثر من بعده، إلى الأبد. ولكنها ذات يوم سوف تدفع ثمن جشعها. ذات يوم لن يكون هناك كهنة مثل رالف دو بريكاسار، لأنهم سوف يأخذون رجولتهم بعين الاعتبار، ويكتشفون أن ما تطلبه منهم الكنيسة تضحية فارغة، غير مجدية، لأنها لا تعني شيئاً... وفجأة توقفت وهرعت نحو غرفة الجلوس حيث كانت آن جالسة تقرأ نسخة مهربة من قصة نورمان ليندسي الممنوعة وهي تبدو شديدة الاستمتاع بالكتاب الممنوع:

ــ آن ، أظن أنك ستحصلين على ما تمنيت .

ونظرت إليها آن بشرود :

ــ ماذا يا عزيزتي ؟

ــ اتصلي بالدكتور سميث . إني سأضع هذا الولد البائس هنا وعلى التو .

ــ آه يا إلهي ! ادخلي إلى غرفة النوم واستلقي . لا ، ليس إلى غرفتك بل إلى غرفتنا .

وهرع الدكتور سميث وهو يلعن نزوات القدر وقرارات الأطفال العشوائية ، ووصل من دنغلو في سيارته المرتجفة ، وبصحبته « الداية » المحلية وقد جلست في مؤخرة السيارة ومعها كل ما يمكن نقله من المعدات من مستشفاه الصغير . لم يكن هناك أية فائدة من نقلها إلى هناك ، وباستطاعته أن يقوم بالشيء نفسه في هيملهوتش . ولكن كان عليها أن تذهب إلى مستشفى كيرنز .

ــ « هل أخبرت زوجها ؟ » سأل آن وهو يتسلق الدرج الأمامي وخلفه القابلة .

ــ لقد أرسلت برقية . إنها في غرفتي . لقد فكرت أنك ستحتاج لغرفة متسعة .

وتقدمتهما آن وهي تعرج، ودخلت غرفة نومها حيث كانت ميغي مستلقية على السرير، وعيناها مفتوحتان على سعتهما، ولم يكن يبدو عليها أي أثر للألم إلا عندما تنقبض يداها من وقت لآخر ويتقلص بدنها. وأدارت رأسها مبتسمة لآن، ولاحظت هذه أن عينيها كانتا مليئتين بالرعب.

ــ إنني مسرورة لأني لم أذهب إلى كيرنز، فأمي لم تذهب بحياتها إلى مستشفى لتضع أولادها، وقد ذكر والدي مرة أنها قد تعذبت جداً بولادة هال، ولكنها بقيت حية، وسأبقى أنا حية كذلك. إن من الصعب قتلنا نحن، نساء عائلة كليري.

ومرت ساعات قبل أن يلحق الدكتور سميث بآن على الشرفة:

ــ إن الأمر طويل وصعب جداً على المرأة الشابة. فالطفل البكر نادراً ما يأتي بسهولة، ويبدو أن هذا الطفل في وضع خاطىء، فهي تشد على نفسها دون أية نتيجة. لو كانت في كيرنز لاستطعنا إجراء عملية قيصرية، ولكن ذلك مستحيل هنا، وعليها أن تدفعه خارجاً بنفسها.

ــ هل هي واعية؟

ــ نعم . إنها شجاعة ، لا تصرخ ولا تشتكي . إن أفضلهن يتعذبن أكثر من الأخريات حسب رأيي . كانت تسألني طوال الوقت إذا كان رالف قد وصل ، ولقد كان علي أن أكذب عليها وأقول لها أن نهر « الجونستون » قد فاض ويتعذر عليه اجتيازه . كنت أظن أن زوجها يدعى لوك !

ــ وهو كذلك .

ــ هم ! حسناً . ربما هي لهذا السبب تسأل عن رالف ذاك ، أيا كان . فلوك لا فائدة منه ، أليس كذلك ؟

ــ إن لوك نذل .

وانحنت آن وهي تسند يديها على درابزين الشرفة . كان هناك سيارة أجرة تتقدم على طريق « دنّي » وقد استدارت وبدأت تتسلق المنحدر المؤدي إلى هيملهوتش . وميّزت عيناها الحادتان رأساً أسود الشعر في مؤخرة السيارة ، وصاحت بارتياح وفرح :

ــ إني لا أصدق ما أرى ، ولكنني اعتقد أن لوك قد تذكر أخيراً أن له زوجة .

ــ من الأفضل أن أعود لقربها وأتركك تتدبرين أمرك معه يا آن . ولن أخبرها بمجيئه ، ربما لم يكن هو القادم . وإن كان هو ،

فقدمي له فنجاناً من الشاي واتركي الأخبار السيئة إلى ما بعد.
إنه سيحتاج لفنجان من الشاي.

ووصلت السيارة، ورأت آن بدهشة أن السائق قد ترجل وذهب يفتح باب السيارة الخلفي للراكب. عجيب! إذ أن «جو كاستليوني»، سائق التاكسي في «دنّي» لا يتمتع بكل هذا التهذيب.

ـ «هذه هي هيملهوتش يا سيدنا». قال السائق وهو ينحني باحترام شديد.

وترجل من السيارة رجل برداء أسود طويل. وحين استدار ظنت آن للحظة قصيرة أن لوك أونيل كان يحاول ممازحتها بخدعة بارعة، ثم رأت أن هذا كان شخصاً آخر، أكبر من لوك أونيل بعشر سنوات على الأقل. يا إلهي! فكرت بينما الشاب الرشيق يصعد درجات السلم اثنتين اثنتين. إنه أجمل رجل رأته عيناي! إنه اسقف على الأقل! ولكن كيف يأتي اسقف كاثوليكي إلى بيت اثنين من أعرق البروتستنت هنا، أنا ولودي؟

ـ السيدة مولر؟ سأل وهو يبتسم لها بعينيه اللطيفتين الزرقاوين البعيدتين، كما لو أنه رأى الكثير ممّ لم يكن يريد أن يرى مهما

كان الثمن، وكما لو أنه قد توقف عن الإحساس منذ زمن بعيد.

ـ نعم أنا آن مولر.

ـ أنا الأسقف رالف دو بريكاسار، مبعوث قداسة البابا في استراليا. وأظن أن هناك سيدة تدعى السيدة أونيل تعيش هنا؟

ـ «نعم يا سيدي». رالف؟ رالف؟ أهذا هو رالف؟

ـ إنني صديق قديم لها. هل بإمكاني رؤيتها من فضلك؟

ـ حسناً، أظنها ستطير فرحاً يا حضرة الأسقف.

كلا، هذه ليست الطريقة الصحيحة في الكلام، لا يجب أن تناديه بـ «يا حضرة الأسقف»، كان عليها أن تقول «نيافتك» مثل جو كاستليوني.

ـ في ظروف أخرى كان بإمكانك رؤيتها حالاً، ولكن ميغي في هذه اللحظة تضع طفلها، هي في حالة صعبة جداً.

ورأت عندها أنه لم ينجح في التخلي عن إحساسه على الإطلاق، وإنما كان يسيطر عليه فقط كمن يسيطر على كلب خسيس، ويدفع ذلك الإحساس إلى مؤخرة عقله المفكر. كانت عيناه شديدتي الزرقة، وشعرت أنها تغرق بهما، وجعلها ما رأته في هاتين العينين تتساءل عما تعني له ميغي، وعما يعني هو لميغي.

ـــ كنت أعلم أن هناك شيئاً غير طبيعي ! كنت أشعر أن هناك شيئاً غير طبيعي منذ فترة طويلة. ولكن مخاوفي أصبحت في المدة الأخيرة هاجساً. وكان عليّ أن آتي وأتأكد بنفسي. أرجوك دعيني أرها. وإذا كنت تريدين تعليلاً لإلحاحي فأنا كاهن.

ولم يكن بنيّة آن أن تمنعه من رؤيتها، إطلاقاً.

ـــ تعال معي يا سيدنا، من هنا، من فضلك.

وبينما كانت تجر نفسها بين عكازيها كانت تفكر:

ـــ هل المنزل نظيف ومرتب؟ هل مسحت الغبار؟ هل تذكرنا يا ترى أن نرمي بقية فخذ الخروف المتعفنة، أو أن الرائحة لا تزال تملأ المكان؟ أي وقت اختار هذا الرجل الكبير ليأتي زائراً! لودي، هل سترفع قفاك الثقيل عن الجرّار وتأتي إلى البيت؟ لا بد أن الصبي قد عثر عليك حتى الآن!

وتجاوز رالف الدكتور سميث والقابلة كما لو أن لا وجود لهما، وارتمى على ركبتيه بقرب السرير ومد يديه إليها:

ـــ ميغي!

وشدت نفسها خارجة من الحلم الرهيب الذي كانت

تغرق فيه وقد كفت عن الاهتمام بما يجري، ورأت الوجه الحبيب قريباً من وجهها، والشعر الداكن الكثيف وقد بدأ جناحان أبيضان يلمعان في سوداه، بينما العينان الزرقاوان تنظران إلى عينيها بشوق ولهفة. كيف استطاعت أن تخلط بينه وبين لوك؟ ليس هناك انسان يشبهه، ولن يكون، ولقد خانت عواطفها نحوه. كان لوك الجهة القاتمة من المرآة، وأما رالف فقد كان متوهجاً كالشمس، وبعيداً مثلها. آه ما أحلى أن تراه.

وانهمر على يدها يقبلها بلهفة، ثم وضعها على خده:

ــ دائماً يا ميغي، وأنت تعلمين ذلك.

ــ صلّ من أجلي، ومن أجل الطفل. أنت الوحيد الذي بإمكانك انقاذنا. فأنت أقرب إلى الله منا. لا أحد يريدنا، لم يردنا أحد قط، حتى أنت.

ــ أين لوك؟

ــ لا أعلم، ولا يهمني أن أعلم.

وأغمضت عينيها، وأدارت رأسها على الوسادة، ولكن أصابعها كانت تشد بعنف على أصابعه وترفض إفلاتها.

ووضع الدكتور سميث يده على كتفه:

ـــ أظن أن عليك أن تخرج الآن يا سيدنا.
ـــ هل ستناديني إذا كانت حياتها في خطر؟
ـــ حتماً، وبأسرع ما يمكن.

كان لودي قد وصل أخيراً من حقل القصب وأخذ يدور في أنحاء البيت كالمسعور لأنه لم ير أحداً ولم يجرؤ على دخول غرفة النوم.

ـــ آن، هل هي بخير؟ سأل زوجته وهي تخرج من الغرفة برفقة الأسقف.
ـــ بقدر الإمكان. ليس بإمكان الطبيب أن يجزم، ولكني أظن أنه لم يفقد الأمل. لودي، إن لدينا زائراً. هذا هو الأسقف رالف دو بريكاسار، صديق قديم لميغي.

وإذا كان متضلعاً أكثر من زوجته فقد انزلق راكعاً وقبّل الخاتم في يد رالف.

ـــ تفضل بالجلوس يا سيدنا، وتحدث مع آن. إني ذاهب لأحضر بعض الشاي.
ـــ أنت رالف إذن.

قالت آن وهي تسند عكازتيها على الطاولة الخيزرانية، بينما

كان الكاهن يجلس في مقابلها وقد ترامت أطراف ردائه حوله، وبدت من تحتها بوضوح جزمة الركوب اللامعة السوداء، لأنه كان قد وضع ساقاً فوق ساق. كانت الحركة انثوية جداً لا تليق برجل، ولكنه هو كان كاهناً، ولا يهم الأمر؛ ومع ذلك فقد كان هناك هالة من الرجولة تشع حوله بقوة، أوضع ساقاً على ساق أم لم يضع. ولم يكن كبيراً في السن كما يبدو لأول وهلة، في أوائل الأربعينات ربما. يا لخسارة رجل رائع كهذا.

ـ نعم أنا رالف.

ـ منذ أن بدأت ميغي بالولادة وهي لا تكف عن السؤال عن أحد يدعى رالف. والواقع إني كنت محتارة، فلا أذكر أنها قد تحدثت عن رالف هذا من قبل.

ـ إنها لا تفعل ذلك.

ـ كيف تعرف ميغي يا سيدنا؟ ومنذ متى؟

وابتسم الكاهن بسخرية، وشبك يديه الدقيقتين الجميلتين:

ـ لقد عرفت ميغي منذ كانت في العاشرة من عمرها، وكانت قد وصلت لتوها على المركب من نيوزيلاندة. وتستطعين القول عن

حق أنني قد عرفت ميغي عبر الفيضانات والحرائق والجوع العاطفي، وعبر الموت والحياة. وكل ما كان علينا أن نتحمل. ميغي هي المرآة التي أرى من خلالها فنائي.

ــ إنك تحبها! قالت آن بدهشة.

ــ دائماً.

ــ إنها مأساة لكما انتما الاثنين.

ــ كنت آمل أن تكون مأساتي أنا لوحدي. حدثيني عنها. ماذا جرى لها منذ زواجها؟ لقد مرت سنوات دون أن أراها، ولكنني لم أكن سعيداً بخصوصها.

ــ سأخبرك ولكن فقط بعد أن تخبرني أنت عنها. آه، لا أقصد أشياء شخصية، وإنما فقط عن الحياة التي عاشتها قبل أن تأتي إلى هنا. إننا لا نعرف عنها شيئاً على الإطلاق، أنا ولودي، باستثناء أنها كانت تعيش في مكان ما قرب غيللانبون. ونحن نرغب في معرفة المزيد لأننا نحبها جداً. ولكنها لم تخبرنا عن أي شيء. وأظن ذلك بسبب عزة النفس.

وأتى لودي بصينية محملة بالشاي والطعام، وجلس بينما الكاهن يرسم لها باقتضاب خطوط حياة ميغي قبل زواجها من لوك.

ـــ لم يكن بإمكاني تصور هذا حتى بعد مليون سنة ! أن أفكر أن لوك أونيل قد تجرأ وأخذها من كل هذا ، ثم جعلها تعمل كخادمة ! وقد بلغت القحة به حداً أنه قرر أن يوضع أجرها كله في حسابه في المصرف ! هل تعلم أن المسكينة لم تكن تملك قرشاً واحداً في حقيبتها تنفقه على نفسها منذ وصلت إلى هنا ؟ لقد طلبت من لودي أن يعطيها مكافأة في عيد الميلاد الماضي ، ولكنها في ذلك الوقت كانت بحاجة لأشياء كثيرة فانفقت كل النقود في يوم واحد ، ولم تقبل أن تأخذ قرشاً واحداً آخر منا .

ـــ « لا تشعري بالأسى من أجل ميغي » قال الأسقف رالف بشيء من الحدة . « لا أظن أنها تشعر بالأسى من أجل نفسها . وليس بالتأكيد لقلة النقود . فالنقود لم تحمل لها إلا القليل القليل من الفرح ، أليس كذلك ؟ وهي تعلم أين عليها أن تذهب إذا لم تستطع التصرف بدون نقود . والذي اعتقده هو أن لا مبالاة لوك قد صدمتها أكثر بكثير من غياب النقود . مسكينة ميغي » .

وملأت آن ولودي الفراغات بين الخطوط في حياة ميغي ،

بينما جلس الأسقف رالف ويداه ما زالتا متشابكتين، وقد شردت عيناه على أوراق شجرة النخيل المروحية وهي تترنح تحت هبات الهواء في الخارج. ولم تتحرك عضلة من عضلات وجهه مرة واحدة، ولم يطرأ أي تغيير على نظرات عينيه الجميلتين البعيدتين. كان قد تعلم الكثير في خدمة فيتوريو سكاربانزا، كاردينال دي كونتيني فيركيزي. وحين أنهى القصة، تنهد ونظر إلى وجهيهما القلقين:

ـ «حسناً، يبدو أن علينا مساعدتها، طالما أن لوك لن يفعل هذا. إذا كان لوك لا يريدها فعلاً، فمن الأفضل أن تعود إلى دروغيدا. إني أعلم أنكما لا ترغبان في فقدانها، ولكني أرجوكما أن تحاولا إقناعها بالعودة إلى البيت، من أجل مصلحتها. سأرسل لكما شيكاً من سيدني، من أجلها، وهكذا نجنبها الإحراج وطلب النقود من أخيها. وعندما تصل إلى البيت، تستطيع أن تخبرهم ما تشاء». ورمى بنظرة صوب باب غرفة النوم بقلق واضح. «أيها الرب القدير، دع هذا الطفل يخرج».

ولكن الطفل لم يخرج إلا بعد أربع وعشرين ساعة، وكادت ميغي تموت من الإرهاق والألم. كان الدكتور سميث قد أعطاها

دفعات قوية من المسكنات، وكان هذا أفضل شيء حسب رأيه كطبيب من الطراز القديم. وكانت تتأرجح عبر كوابيس لولبية، مليئة بأشياء تقطعها وتمزقها من الداخل والخارج، وتنشب مخالبها فيها، ثم تبصقها، تصرخ، وتعول، وتزمجر. وأحياناً، كان وجه رالف يبدو لها لبرهة وجيزة، ثم يختفي ثانية على موجة ثقيلة من الألم، ولكن ذكراه كانت تلازمها. وبما أنه كان يحرسها، فقد علمت أنها لن تموت، ولن يموت الطفل.

وجلس الطبيب ليستريح قليلاً، تاركاً الداية تدبر الأمور بنفسها، وليتناول بعض الطعام وجرعة قوية من الروم، ولكي يتأكد أيضاً من أنّ لا أحد من زبائنه يفكر حالياً في الموت بدون أي تقدير لتعبه، بينما كان يصغي إلى لودي وآن يرويان له ما تسمح به الحكمة والعقل من قصة ميغي.

ــ أنت على حق يا آن، فركوب الخيل هو أحد أسباب مصاعبها الآن. فمنذ أن توارت عادة ركوب الخيل جانبياً، أصبحت هذه الرياضة مصدر متاعب للنساء اللواتي يركبن الخيل كثيراً، لأنها تنمي العضلات بطريقة خاطئة.

ــ لقد قيل لي أن هذه ترهات ترويها العجائز. قال الأب رالف

بلطف. ونظر إليه الدكتور سميث بمكر. لم يكن يحب الكهنة الكاثوليكيين، وكان يعتبرهم جماعة من المنافقين الحمقى.

ــ تستطيع أن تفكر كما تشاء، ولكن قل لي يا سيدنا، إذا كان عليك أن تختار بين حياة ميغي وحياة الطفل، فما الذي ينصح به ضميرك؟.

ــ «إن الكنيسة متصلبة جداً من هذه الناحية يا دكتور. فلا اختيار هنا. إذ لا يمكن قتل الطفل لإنقاذ الأم، كما لا يمكن قتل الأم من أجل إنقاذ الطفل». وابتسم للطبيب بمكر أيضاً. «ولكن لو كان علي الاختيار يا دكتور، فلن أتردد لحظة بأن أطلب منك إنقاذ ميغي، وليذهب الطفل إلى الجحيم».

وشهق الدكتور سميث، ثم قهقه وربت على ظهره:

ــ رائع، رائع! لا تقلق، فأنا لن أذيع أقوالك. ولكن الطفل حي، ولا أرى ضرورة لقتل أي منهما.

ولكن آن كانت تفكر: «إني لأتساءل ماذا كنت ستجيب لو كان الطفل ابنك أيها الأسقف!».

وبعد ذلك بحوالي الثلاث ساعات، وبينما كانت الشمس

تنحدر بحزن على صفحة السماء نحو جبل بارتل فرير المغطى بالضباب، خرج الدكتور سميث من غرفة النوم:

ـــ «حسناً، لقد انتهى الأمر» قال هذا ببعض الارتياح. «إن أمام ميغي طريق طويل، ولكنها ستكون بخير، بإذن الله. أما الولد فطفلة هزيلة نزقة، لا تزن أكثر من كيلوين، ولها رأس ضخم وطبع سيء يتلاءم تماماً مع الشعر الأحمر السام الذي لم أر مثله في حياتي على رأس مولود جديد. ليس بإمكانك قتل هذه العثة الصغيرة حتى لو بفأس، وأنا أعلم ما أقول، لأني حاولت ذلك».

ونزع لودي متهللاً سدادة زجاجة الشمبانيا التي كان قد خبأها للمناسبة، ووقف الخمسة يمسكون بكؤوسهم المترعة، الكاهن، والطبيب، والقابلة، والمزارع، والكسيحة، يشربون نخب صحة ورفاه الأم وطفلتها الصارخة النزقة. كان ذلك في أول حزيران، أول يوم الشتاء الاسترالي.

ووصلت ممرضة لتحل محل القابلة، وكان عليها أن تبقى حتى تتجاوز ميغي كل خطر. وغادر الطبيب والقابلة البيت بينما ذهب لودي والأسقف وآن لرؤية ميغي.

كانت تبدو ضئيلة ضائعة في السرير المزدوج العريض، وبهذا كان على الأب رالف أن يخزن في مؤخرة رأسه ألماً آخر، يخرجه فيما بعد ويتفحصه ويقاسيه. ميغي، يا حبيبتي الممزقة المغلوبة... سأحبك إلى الأبد، ولكن ليس بإمكاني أن أعطيك ما أعطاك إياه لوك أونيل رغم كونه بخيلاً.

أما تلك النتفة الصغيرة من الإنسانية، المسؤولة عن كل هذا، فقد كانت مستلقية في مهد هزاز على الحائط البعيد، غير مبالية باهتمامهم، وقد وقفوا حولها ينظرون إليها. وصرخت معترضة، وتابعت صراخها، وفي النهاية رفعتها الممرضة مع المهد ووضعتها في الغرفة المخصصة لها.

ــ «لا أظن أنها تحب الحياة كثيراً» قالت ميغي مبتسمة أيضاً. «كم يبدو مسناً! ما زال رشيقاً ومتناسقاً كما في السابق، ولكنه مسن أكثر بكثير».

وأدارت رأسها صوب آن ولودي، ومدت يدها الأخرى:
ــ «صديقاي العزيزين! ماذا كنت سأفعل بدونكما؟ هل سمعتما شيئاً عن لوك؟».

ـ لقد تلقيت برقية تقول أنه مشغول جداً، وليس بإمكانه المجيء، ولكنه يتمنى لك حظاً سعيداً.
ـ هذا رائع منه. قالت ميغي.

وانحنت آن بسرعة لتقبل خدها:
ـ سوف نتركك مع الأسقف يا عزيزتي. أظن أن هناك أشياء كثيرة تريدين أن تحكيها له.

وأضافت وهي تستند إلى لودي وتشير بإصبعها إلى الممرضة التي وقف مشدوهة أمام الكاهن، وتكاد لا تصدق عينيها:
ـ تعالي يا بنيتي، تعالي وتناولي فنجاناً من الشاي. نيافته سيناديك لو احتاجت ميغي لشيء.

وسألها بعد أن أغلق الباب ووجدا نفسيهما وحيدين:
ـ ماذا ستسمين ابنتك الصاخبة؟
ـ جوستين.
ـ إنه اسم جيد جداً. ولكن لماذا اخترته بالذات؟
ـ لقد قرأته في أحد الكتب فأعجبني.
ـ ألا تريدينها يا ميغي؟

كان وجهها مرهقاً، وكانت عيناها فقط تشعان فيه ناعمتين، مليئتين بنور رقيق، لا كره فيهما، ولا حب أيضاً.

ـ أظن أني أريدها. نعم، إني أريدها، ولقد خططت كثيراً حتى أحصل عليها. ولكني عندما كنت أحملها، لم أكن أشعر بأي شيء نحوها إلا أنها لم تكن تريدني. لا أظن أن جوستين ستكون لي أبداً، ولا للوك، ولا لأحد. واعتقد أنها ستكون دائماً ملك نفسها.

ـ إن علي الرحيل يا ميغي. قال بلطف.

وازدادت عيناها قسوة ولمعاناً، والتوى فمها بشكل قبيح:

ـ «كنت أتوقع هذا! عجيب. يبدو أن على جميع الرجال الذين يمرون في حياتي أن يتواروا».

وجفل رالف:

ـ لا تتحدثي بهذه المرارة يا ميغي. إني لا أطيق أن أتركك على هذه الصورة. لقد حافظت على رقتك رغم كل ما حدث لك في الماضي، وهذا أحب شيء وجدته عندك. لا تتغيري، ولا تقسي بسبب هذا. إني أعلم كم من الفظيع ألا يتعب لوك نفسه بالمجيء، ولكن لا تتغيري، وإلّا فلن تبقي ميغي التي أحب.

ولكنها كانت لا تزال تنظر إليه كما لو أنها تكرهه .

ـ أرجوك يا رالف ، أنا لست ميغي التي تحب ، ولم أكن أبداً . إنك رفضتني وأرسلتني إليه ، إلى لوك . ماذا تظنني ؟ قديسة ؟ أم راهبة ؟ حسناً ، إني لست قديسة ولا راهبة . أنا انسانة عادية ، ولقد حطمتَ حياتي ! كل تلك السنوات التي أحببتك فيها وأردت أن أنساك ، ثم تزوجت رجلاً ظننت أنه يشبهك قليلاً ، وهو الآخر يرفضني ولا يحتاجني . إن من المبالغة الشديدة أن تطلب من رجل أن يرغب فيك ويحتاج إليك .

وأخذت تنتحب ، ثم سيطرت على نفسها ، كان على وجهها خطوط ألم دقيقة لم يرها أبداً من قبْل ، وكان يعلم أنها ليست من النوع الذي يدوم وإنها ستختفي حين تستعيد صحتها .

ـ إن لوك ليس شريراً أو ثقيل الظل ، إنه مجرد رجل . أنتم جميعاً متشابهون ، إنكم فراشات ضخمة مشعرة تدور بغباء حول شعلة مصباح زجاجي شفاف جداً فلا تراه أعينكم . وحين تتوصلون إلى العثور على طريق إلى داخل المصباح الزجاجي ، ترمون أنفسكم في اللهب وتموتون محترقين . أما في الخارج ، وطوال ذلك الوقت ، فهناك الليل البارد المنعش ، والغذاء ،

والحب، وفراشات طفلة تنجبونها. ولكن هل ترون هذا؟ هل ترغبون به؟ كلا! إنكم تعودون إلى الشعلة ثانية وتضربـون أنفسكم بها حتى تحترقوا وتموتوا.

ولم يعلم بماذا يجيبها، لأنه لم يكن قد رآها هكذا أبداً من قبل. هل كانت دائماً كذلك، أم أنها تغيرت بسبب همها المرعب والإهمال الذي لحق بها؟ هل يمكن لميغي أن تتفوه بأشياء كهذه؟ ولم يسمع تماماً ما تقوله إذ كان مضطرباً من حديثها فلم يفطن إلى أن كلامها يأتي من وحدتها وشعورها بالذنب.

ـ «هل تذكرين الوردة التي أعطيتنيها ليلة غادرتُ دروغيدا؟» سألها برفق.

ـ نعم، إني أذكر.

وانسحبت الحياة من صوتها، والإشعاع القاسي من عينيها، ونظرت إليه كروح فقدت كل أمل، وقد توارى كل شعور من عينيها فأصبحتا زجاجتين كعيني أمها.

ـ إني لا أزال احتفظ بها، في كتاب الصلوات. وكل مرة أرى فيها وردة بهذا اللون، أفكر بك. ميغي، إني أحبك، أنت وردتي. أنت أجمل صورة بشرية وأجمل فكرة في حياتي.

وتدلت زاويتا فمها، والتمعت عيناها بذلك البريق المتوتر الوحشي، وقد بدا الكره واضحاً فيهما:

ــ صورة! فكرة! صورة بشرية وفكرة! نعم، هذا صحيح، هذا كل ما أعنيه بالنسبة لك! أنت لست إلّا أبله رومنطقياً حالماً، يا رالف دو بريكاسار. أنت كتلك الفراشة التي حدثتك عنها، ليس عندك أية فكرة عن معنى الحياة الحقيقي. لا عجب أنك أصبحت كاهناً! فليس بإمكانك أن تحيا مع أشياء الحياة العادية فيما لو كان عليك أن تحيا كرجل عادي، كما لن يتمكن لوك من ذلك. تقول أنك تحبني، ولكنك لا تعرف معنى الحب على الإطلاق، أنت تتشدق فقط بكلمات حفظتها عن ظهر قلب لأنك تظن أن لها رنيناً جميلاً! إني لا أستطيع أن أفهم لماذا لم تتدبروا أمركم، أنتم الرجال، بطريقة تستغنون فيها عنا، نحن النساء، نهائياً! وهذا ما تتمنون، أليس كذلك؟ كان عليكم أن تجدوا طريقة لتتزوجوا فيما بينكم، ولو فعلتم لكانت سعادتكم عظيمة.

ــ ميغي، أرجوك، لا تتكلمي هكذا.

ــ آه، اذهب من هنا! إني لا أريد أن أنظر إليك! ولقد نسيتَ

شيئاً عن وردتك الغالية، يا رالف، إن لها أشواكاً حادة، كريهة.

وغادر الغرفة دون أن يلتفت.

○

لم يكبد لوك نفسه مشقة الإجابة على البرقية التي تنبئه أن بإمكانه الاعتزاز بكونه أباً لطفلة صغيرة سُميت «جوستين». وتحسنت صحة ميغي ببطء، وبدأت الطفلة تنمو وتترعرع. ولو استطاعت ميغي إرضاعها لتمكنت ربما أن تتقرب أكثر من الطفلة الهزيلة، ذات الطبع السيء. ولكن لم يكن هناك نقطة حليب واحدة في الصدر العارم الذي أحبه لوك. يا لسخرية العدالة! وكانت ميغي تغير ثياب الطفلة ذات الوجه الأحمر والشعر الأحمر، وتحضر لها وجبات الحليب، كما يقضي الواجب، وهي تنتظر ولادة إحساس رائع، ولكن هذا الإحساس لم يأت. لم تكن تشعر بأية رغبة لتداعب الوجه الصغير بقبلاتها، أو لتعض الأصابع الصغيرة، أو للقيام بأي شيء من آلاف الأشياء الصغيرة التي تحب الأمهات أن يفعلنها مع الأطفال. لم تكن تشعر بأنها طفلتها، أو أن الطفلة بحاجة إليها، حتى إنها عندما تفكر بها، كانت تفكر

بها كشيء وليس كانسان . وكان لودي وآن متأكدين أن ميغي تعبد طفلتها ، ولم يخطر لهما قط أنها كانت تشعر حيالها بأقل ما كانت تشعر به حيال أطفال والدتها .

ولا تكاد جوستين تبدأ بالصراخ حتى تسارع ميغي إلى حملها والغناء لها ، وهدهدتها . ولم يحصل أي طفل على العناية والدلال اللذين حصلت عليهما جوستين . والغريب أن الطفلة لم تكن ترغب بأن يحملها أحد ، أو أن يغني لها ، وكانت تهدأ بسرعة أكبر عندما تترك لوحدها .

ومع مرور الأيام تحسن شكلها ، واختفى الاحمرار من بشرتها التي تحولت إلى تلك البشرة الشفافة التي نلاحظها عادة عند ذوي الشعر الأحمر . وامتلأ ذراعاها وساقاها ،وبدأ شعرها يتجعد ويكثف حتى أصبح مشابهاً تماماً لشعر جدها بادي . وكان الجميع ينتظرون بقلق ليروا ماذا سيصبح لون عينيها ، وكان لودي يراهن أنها ستكون زرقاء العينين مثل والدها ، أما آن فقد راهنت على لون عيني أمها الرمادي ، أما ميغي فلم تبد رأيها أبداً . وأخذت عينا جوستين لوناً خاصاً جداً ومحيّراً ، فعندما بلغت الستة الأسابيع أخذ لونهما يتغير ، وفي الأسبوع التاسع أخذتا لونهما وشكلهما

النهائي. لم يكن أحد قد رأى شيئاً مشابهاً من قبل، فقد كانت الحدقة شديدة الشحوب ولا يمكن القول أنها زرقاء أو رمادية، ومحاطة بإطار رمادي غامق جداً، وإذا حاولتَ وصف لونهما فلن تجدَ أفضل من الأبيض القاتم. كانت العينان نفاذتين مزعجتين، لا انسانيتين، تذكران بعيني أعمى، ولكن، شيئاً فشيئاً، بدا من الواضح أن جوستين تتمتع بنظر سليم. ومع أن الدكتور سميث لم يلمح شيء حين مولد جوستين، إلا أنه كان قلقاً بسبب حجم راسها، وظل يراقبها عن كثب حتى بلغت الشهر السادس، وكان يتساءل خاصة بعد رؤية عينيها الغريبتين، إذا لم يكن عندها ما كان يسميه «ماء في الدماغ»، وهذا ما تدعوه كتب الطب الحديثة بـ «استسقاء الرأس». ولكن جوستين، كما بدا، لم تكن تشكو من أي خلل أو تشويه في الدماغ، كل ما هنالك أن رأسها كان كبيراً جداً، وتبعه جسمها عندما أخذت تنمو. وبقي لوك بعيداً. وكتبت له ميغي مرات عدة ولكنه لم يجب، ولم يأت لرؤية طفلته. ولقد سرّها ذلك نوعاً ما، إذ أنها لم تكن تعلم ما ستقوله له، ولم تكن تعتقد أنه سيطير فرحاً لرؤية المخلوقة الصغيرة الغريبة التي كانت ابنته. ولو كانت جوستين صبياً قوياً وكبيراً، لربما كان قد لان قليلاً، ولكن ميغي كانت مسرورة جداً، لكونها ابنة وليس ولداً،

فهي البرهان الحي على أن لوك أونيل العظيم لم يكن كاملاً، لأنه لو كان كذلك لأنجب صبياناً بدل البنات.

وتحسنت حالة الطفلة بسرعة أكثر من ميغي، وتغلبت على امتحان الولادة، وحين بلغت شهرها الرابع، كفت عن البكاء وبدأت تسلي نفسها وهي مستلقية في مهدها، فتعبث بصف الطابات الملونة التي علقت على قرب في متناول يدها، وتحاول القبض عليها، ولكنها لم تبتسم لأحد.

وجاء موسم الأمطار مبكراً، في تشرين الأول، وكان رطباً جداً. وارتفعت درجة الرطوبة في الجو إلى مئة بالمئة واستقرت هناك، وكان المطر يهطل ساعات متواصلة يومياً وهو يزمجر ويخفق حول هيملهوتش، مذيباً التراب الأحمر، مغرقاً قصب السكر، ويملأ نهر «دنغلو ريفر» العميق ولكن دون التسبب في فيضان، فقد كان مجرى النهر قصيراً، وكان الماء يذهب مباشرة وبسرعة إلى البحر. وبينما كانت جوستين ممددة في مهدها تتأمل العالم من خلال عينيها الغريبتين، كانت ميغي تجلس بملل وهي تنظر إلى جبل بارتل فرير وهو يتلاشى خلف ستار المطر الكثيف ثم يظهر مجدداً.

وعندما كانت الشمس تطل، كان البخار يتصاعد من الأرض متلوياً يلف كالستائر، وكان قصب السكر يتوهج ويلمع مثل الماس، أما النهر فكان يبدو كأفعى ذهبية هائلة. ومن ثم كان قوس قزح يظهر مزدوجاً، معلقاً عبر قبة السماء، رائعاً في انحنائه، غنياً بألوانه على صفحة الغيوم الزرقاء الداكنة، حتى ليشحب أمامه ويتلاشى أي منظر طبيعي في أي مكان آخر غير كوينزلاند الشمالية. أما هناك فلا شيء يمكنه أن يبهت ألوان هذه المنطقة، حتى ولا قوس قزح بإشعاعه الأثيري. وفهمت ميغي لماذا كان ريف غيللانبون بنياً ورمادياً، فقد سرقت كوينزلاند الشمالية حصته من الألوان.

وفي أحد الأيام، في بداية كانون الأول، أتت آن إلى الشرفة وجلست بقرب ميغي تنظر إليها. آه، لقد كانت شديدة النحول، لا حياة فيها! وشعرها الذهبي الرائع نفسه أصبح باهتاً.

ـ ميغي، لست أدري إن كنت قد أخطأت فيما فعلت، ولكني فعلته على كل حال، وأريد منك أن تصغي إلي قبل أن تقولي لا.

واستدارت ميغي من قوس قزح وهي تبتسم:

ـــ إنك تبدين جادة يا آن . وما الذي يجب أن أصغي إليه ؟
ـــ أنا ولودي قلقان بشأنك . فصحتك لم تتحسن منذ ولادة جوستين ، والآن وقد أتى فصل الأمطار ، فأنت تبدين بحال أسوأ . كما أنك لا تأكلين ، ووزنك يتناقص . لم أصدق لحظة أن المناخ هنا يلائمك ، ولكنك استطعت احتماله مادام لم يحدث أي شيء يحط من قواك . أما الآن ، فأنت ضعيفة ، وإذا لم تتداركي الأمر بسرعة فإنك ستمرضين حقاً .

وسحبت نفساً عميقاً قبل أن تتابع :
ـــ منذ أسبوعين كتبت إلى أحد أصدقائي في مكتب سياحي ، وحجزت لك مكاناً لقضاء إجازة . ولا تبدأي بالاعتراض حول المصاريف فإنها لن تزعزع ثروة لوك ولا ثروتنا . لقد أرسل لنا الأسقف شيكاً بمبلغ كبير لك ، وأخوك أرسل شيكاً آخر لك وللطفلة ـــ أظن أنه قد لمّح إلى ضرورة ذهابك إلى البيت لفترة ـــ باسم جميع من في دروغيدا . وبعد أن ناقشنا الموضوع ، أنا ولودي ، قررنا أن أفضل شيء يمكنك القيام به هو إنفاق بعض هذه النقود في إجازة لك . ولا أظن أن ذهابك إلى دروغيدا هو أفضل طريقة لقضاء العطلة . لقد شعرت أنا

ولودي أن أكثر ما تحتاجين إليه حالياً هو الوقت الكافي للتفكير. بدون جوستين، وبدوننا، وبدون لوك ولا دروغيدا. هل كنت ذات يوم مستقلة يا ميغي؟ لقد حان الوقت لذلك. وهكذا فقد حجزنا لك بيتاً صغيراً في جزيرة «ماتلوك»، لمدة شهرين، من أول كانون الثاني وحتى أول آذار. وسنعتني بجوستين أنا ولودي. أنت تعلمين أنه لن يلحق بها أي أذى. ولكن إن كان هناك أصغر شيء يدعو للقلق فإني أقسم لك أن أعلمك بأسرع ما يمكن، فهناك هاتف في الجزيرة، ولن يستغرق الأمر طويلاً لإرجاعك إلى هنا إذا ما استدعى الأمر ذلك.

كان قوس القزح قد اختفى، وكذلك الشمس، وأوشك المطر أن يهطل ثانية:

ــ آن، لولاك ولولا لودي لكنت قد جننت خلال هذه السنوات الثلاث الماضية. وأنتما تعلمان ذلك. إنني استيقظ أحياناً في الليل واتساءل عما كان سيحل بي لو وضعني لوك عند أناس أقل لطفاً منكما! لقد اعتنيتما بي أكثر مما فعل لوك بكثير.

ــ هراء. لو كان لوك قد تركك عند أناس ثقيلين، لرجعت منذ

زمن طويل إلى دروغيدا، ومن يدري؟ ربما كان ذلك أفضل حل.

ــ كلا. لم تكن تجربتي مع لوك سائغة، ولكنه كان من الأفضل لي أن أبقى واحتمل.

كان المطر قد بدأ يشق طريقه عبر قصب السكر المعتم، فيحجب كل شيء وراءه. وتابعت ميغي:

ــ إنك على حق، فأنا لست على ما يرام، ولم أكن بخير منذ بدأ حملي بجوستين. لقد حاولت أن أمسك نفسي، ولكنني أعتقد أن الإنسان يصل إلى درجة لا يبقى معها عنده أية قوة على المقاومة. آه يا آن، إني تعبة جداً، وبائسة جداً. حتى إني لست أماً صالحة لجوستين وأنا مدينة لها بذلك. أنا التي تسببت في وجودها، فهي لم تطلب ذلك. ولكنني يائسة لأن لوك لم يعطني أقل فرصة حتى أسعده هو. لم يرغب في العيش معي حتى أصنع له بيتاً، كما أنه لم يرغب حتى في أن يكون لنا أطفال. إني لا أحبه، إني لم أحبه أبداً كما يجب على امرأة أن تحب الرجل الذي تتزوجه، وأظن أنه قد شعر بذلك منذ البدء. ولو أنني أحببته لتصرف بطريقة أخرى. فكيف ألومه إذن؟ اعتقد أن علي أن ألوم نفسي فقط.

ـ إنك تحبين الأسقف، أليس كذلك؟
ـ آه، منذ كنت طفلة صغيرة. لقد كنت قاسية معه حين أتى إلى هنا. مسكين رالف! لم يكن من حقي أن أقول له ما قلت، لأنه لم يشجعني أبداً. كم أود لو أنه استطاع حتى الآن أن يفهم إني كنت أتألم، وكنت ممزقة وتعيسة جداً. وكل ما استطعت التفكير به في ذلك الوقت هو أن الولد كان يجب أن يكون ولده. وهذا لن يحصل أبداً. هذا ظلم. إن القسس البروتستنت يستطيعون الزواج، لماذا لا يستطيع الكهنة الكاثوليكيون ذلك؟ لا تحاولي أن تقولي لي أن القسيس لا يعتني برعيته كما يفعل الكاهن، لأني لن أصدقك. لقد عرفت كهنة بدون قلب وقسساً رائعين. ولكنه كان علي بسبب عزوبية الكهنة أن ابتعد عن رالف، وأبني بيتي وحياتي مع شخص آخر، واحمل أطفال رجل آخر. هل تعلمين يا آن؟ إن هذا مقرف أكثر مما لو تخلى رالف عن نذوره، وربما أكثر. إني أحقد على الكنيسة لأنها تعتبر حبي لرالف أو حبه لي خطيئة.

ـ اذهبي بعيداً لبعض الوقت يا ميغي. استريحي، وكلي، ونامي، وكفّي عن تعذيب نفسك. وربما تستطيعين حين عودتك إقناع

لوك بأن يشتري تلك المزرعة بدلاً من الكلام عنها فقط. إني أعلم أنك لا تحبينه ولكني أظن أنه لو أعطاك فرصة ولو صغيرة، لاستطعت أن تكوني سعيدة معه.

كان لون عينيها الرمادي بلون المطر المتساقط كالستائر حول البيت. كان صوتهما قد ارتفع لحد الصراخ حتى يصبح مسموعاً فوق قرقعة المطر اللامعقولة على السطح المعدني.

ـ هذه هي المشكلة يا آن. فعندما ذهبت أنا ولوك إلى «آثرتون» تأكدت أخيراً أنه لن يترك أبداً قصب السكر طالما كان قادراً على قطعه. إنه يحب هذه الحياة فعلاً. إنه يحب وجوده مع رجال أقوياء ومستقلين مثله، ويحب التنقل من مكان لآخر، ولقد قضى حياته هائماً. إني فكرت بهذا الآن. أما بالنسبة لحاجته لامرأة، من أجل اللذة فقط، فذلك ليس ضمن إمكاناته لأن قصب السكر ينهك قواه. كيف استطيع أن أفسر لك؟ إن لوك هو من أولئك الرجال الذين لا يهمهم أن يتناولوا طعامهم من كيس ورقي، أو أن يناموا على الأرض. هل تفهمين؟ ولا يستطيع أحد أن يحاول اغراءه مثل أي شخص يحب الأشياء الجميلة، لأنه ليس كذلك. وأنا أفكر أحياناً أنه

يستنكر الأشياء الجميلة، لأنها ناعمة، رخوة، وسوف تتسبب في إرخائه. وفضلاً عن ذلك فأنا لا أملك أيا من المغريات القوية التي يمكن بها إبعاده عن طريقة حياته الحالية.

ونظرت بتذمر إلى سقف الشرفة وكأنها قد تعبت من الكلام بصوت مرتفع:

ــ لست أدري إن كنت أملك القوة الكافية لأتحمل الوحدة والغربة خلال العشر أو الخمس عشرة السنة القادمة يا آن، أو ربما أكثر، فهذا يتعلق بقوة لوك. إن الحياة معكما هنا رائعة، ولا أريد أن تفكرا إني ناكرة للجميل، ولكنني أريد منزلاً لي، أريد أن يكون لجوستين أخوة وأخوات، أريد أن أنظف الغبار عن أثاث بيتي أنا، أن أصنع ستائر لنوافذي أنا، أن أطبخ على فرني أنا. آه يا آن، أنا امرأة عادية جداً؛ لست طموحة، ولست ذكية ولا مثقفة، وأنت تعلمين ذلك. كل ما أريده هو زوج وأولاد ومنزل لي. وشيء من الحب من أحد ما.

وسحبت آن منديلها، ومسحت عينيها وهي تحاول أن تضحك:

ــ يا لحماقتنا نحن الأثنتين! ولكني أفهمك تماماً يا ميغي، حقاً.

لقد مضى على زواجي من لودي عشر سنوات، وهي السنوات السعيدة حقاً في حياتي كلها. لقد أصبت بشلل الأطفال منذ كنت في الخامسة، ومنذ ذلك الوقت وأنا على هذا الشكل.

كنت متأكدة من أن أحداً لن ينظر إلي. والله يعلم أن هذا ما جرى. وعندما التقيت بلودي كنت في الثلاثين، وكنت أكسب معيشتي كمدرّسة. كان أصغر مني بعشر سنوات، ولهذا لم آخذ كلامه على محمل الجد عندما قال لي أنه يحبني وإنه يريد الزواج مني. كم من البشع يا ميغي أن تحطمي حياة رجل في مقتبل العمر. وخلال خمس سنوات بكاملها، عاملته بأبشع طريقة يمكن أن تتصوريها، ولكنه كان دائماً يعود طالباً المزيد. وهكذا تزوجته ووجدت معه السعادة. ولودي يقول أنه سعيد، ولكني لست أكيدة من ذلك. لقد تخلى عن الكثير من أجلي، حتى عن الأطفال. وهو يبدو أكبر مني سناً هذه الأيام. مسكين.

ـ إنها الحياة هنا يا آن، والمناخ أيضاً.

وتوقف المطر كما بدأ، فجأة، وبرزت الشمس من وراء الغيوم، وبدا قوس القزح بكل جلاله على صفحة السماء المغطاة

بالأبخرة، وظهرت قمة جبل بارتل فرير ليلكية من بين الغيوم المتدافعة.

وتابعت ميغي كلامها:

ــ سوف اذهب. وإنني ممتنة جداً لأنكما فكرتما بذلك؛ وهذا ربما ما احتاجه. ولكن أمتأكدة أنت من أن جوستين لن تسبب لكما ازعاجاً؟

ــ أيها السيد الرب، كلا. لقد دبر لودي أمر كل شيء. إن لـ «آنا ماريا» التي كانت تعمل عندي قبل مجيئك، أختاً صغيرة، «انونسياتا»، وهي تريد أن تصبح ممرضة في «تاونسفيل». ولكنها لن تبلغ السادسة عشرة حتى شهر آذار، وستنهي مدرستها بعد أيام قليلة وتأتي إلى هنا خلال فترة غيابك. إنها أمّ صغيرة مثالية، ففي عائلتهم جيش من الأطفال.

ــ جزيرة ماتلوك. أين تقع هذه؟

ــ إنها بقرب «ويتسندي»، على الـ «غريت بارير ريف». إنها هادئة جداً ومنعزلة، ويقصدها على ما أظن من يريدون قضاء شهر العسل، وأنت تعرفين هذا النوع من الأمكنة. فهي

ليست فندقاً محصوراً في مبنى واحد ضخم، وإنما هي عبارة عن أكواخ انفرادية. ولن تضطري إلى تناول وجباتك في مطعم مكتظ، أو تبادل المجاملات مع أناس لا تريدين الكلام معهم. وهي مقفرة تقريباً في هذا الوقت من السنة بسبب أخطار الأعاصير الصيفية. إن المطر ليس مشكلة، ولكن لا أحد، على ما يبدو، يرغب في الذهاب إلى «ريف» في الصيف. ربما لأن أغلب الناس الذين يذهبون إليها هم من سيدني أو ملبورون، والصيف هناك رائع، ولا داعي للرحيل. أما بالنسبة لحزيران وتموز وآب، فالناس يحجزون أماكنهم هناك قبل موعدهم بثلاث سنوات.

الفصل الثالث عشر

في آخر يوم من عام ١٩٣٧، استقلت ميغي القطار إلى تاونسفيل. ورغم أن العطلة لم تكد تبدأ، فقد شعرت ميغي بأنها أحسن حالاً، لأنها تركت روائح دبس السكر خلفها في «دنّي». وكانت تاونسفيل، وهي أكبر مراكز كوينزلاند الشمالية، مدينة مزدهرة، يقطنها عدة آلاف من السكان في بيوت خشبية بيضاء مبنية فوق أعمدة. ولم تستطع ميغي زيارتها لأن الوقت كان ضيقاً جداً بين زمن وصول القطار وموعد مغادرة المركب الذي سيقلها إلى الجزيرة، ولكنها لم تتأسف لإسراعها إلى المرفأ دون أن تسنح لها الفرصة للتفكير، فبعد تلك السفرة الشنيعة عبر الـ «تاسمان» منذ ستة عشر عاماً لم تكن متشوقة لقضاء ست وثلاثين ساعة على مركب أصغر من «واهيني».

ولكن الأمر كان مختلفاً تماماً، وكانت السفينة تنزلق بلطف على صفحة الماء الصافية، وكان عمرها ستة وعشرين عاماً، وليس عشرة. كان الهواء من النوع الذي يهب بين أعصارين، والبحر تعباً، ومع أن النهار كان لا يزال في منتصفه، إلاّ أن ميغي استلقت ونامت بدون أحلام إلى أن أيقظها أحد المضيفين في الساعة السادسة من صباح اليوم التالي، وقدم لها فنجاناً من الشاي وطبقاً من البسكويت بالسكر. وعلى سطح السفينة، اكتشفت ميغي وجهاً جديداً لاستراليا لم تعرفه من قبل. كانت السماء عالية صافية، ناعمة الألوان، ومن الشرق، من طرف المحيط، ارتفع بريق وردي لؤلؤي، وظل يرتفع ببطء نحو قبة السماء إلى أن برزت الشمس فوق خط الأفق، وفقد الضوء احمراره الشروقي وأصبح نهاراً. كانت السفينة تشق طريقها بصمت عبر الماء الصافي الشفاف، ولو أنك نظرت من فوق حاجز السفينة، لاستطعت أن ترى بوضوح مغاور الأرجوان، وتلمح ألوان الأسماك الزاهية تلتمع في الأعماق. وفي البعد، كان لون البحر أخضراً مائلاً إلى الزرقة تلطخه هنا وهناك بقع خمرية اللون داكنة، حيث كانت النباتات البحرية والمرجان تغطي القعر. ومن كل جهة، كانت الجزر تبرز فجأة بشواطئها المغطاة بالرمل الأبيض اللامع وأشجار النخيل،

وكأنها قطع من الكريستال، جبلية أحياناً، مغطاة بالغابات، أو مسطحة، تكسوها الأعشاب القصيرة، وتكاد لا ترتفع عن مستوى سطح الماء.

ـ «إن الجزر المسطحة هي جزر المرجان الحقيقية» شرح لها أحد البحارة. «وعندما تكون دائرية، وفي وسطها بحيرة، فهي تدعى «حلقية». وأما الأخرى. فهي عبارة عن قطع ضخمة من الصخور تعلو سطح الماء. وتلك التي على شكل هضاب ما هي إلا قمم جبال مغمورة تحيط بها الصخور المرجانية، وتكثر فيها البحيرات.

ـ وأين جزيرة ماتلوك؟

ونظر إليها باستغراب. أتذهب امرأة وحيدة إلى جزيرة يقضي بها الناس عادة شهر العسل؟ يا للتناقض!

ـ إننا نجتاز الآن ممر «ويتسندي»، وبعد ذلك سوف نتجه إلى شاطىء الجزيرة من الجهة الهادئة. فالشاطىء من جهة المحيط معرض للأمواج العنيفة التي تصله مثل القطارات السريعة من مئات الأميال من أعماق المحيط الهادي، وتزمجر حتى أنك لا تسمعين صوتك. هل تتصورين نفسك وأنت تعبرين هذه

الأمواج على مئات الأميال ؟ » وتنهد . « سنصل إلى جزيرة ماتلوك عند غياب الشمس يا سيدتي » .

وقبل المغيب بساعتين ، شقت السفينة الصغيرة طريقها بتثاقل عبر الأمواج المتلاطمة وقد علاها الزبد وكأنها حائط ضبابي على صفحة السماء من جهة الشرق .

كان هناك رصيف متداع يمتد داخـل الماء على حوالي كيلومتر تقريباً فوق الصخور التي برزت بسبب انحسار البحر ، يرتفع خلفه شاطىء صخري لا يتلاءم أبداً مع تخيلات ميغي لروعة المناطق الاستوائية . وكان بانتظارها رجل مسن ساعدها على النزول من السفينة إلى الرصيف ، وتناول حقائبها من البحار .

ــ « أهلاً يا سيدة أونيل » . قال مرحبّاً ، « أنا روب والتر . وأرجو أن يتمكن زوجك من المجيء . ليس هناك الكثيرون على الجزيرة في هذا الوقت من السنة . إنها في الحقيقة محطة شتوية » .

وسارا سوية على الألواح الخشبية المزعجة ، والمرجان يبدو مصهوراً تحت أشعة الشمس المتلاشية ، بينما البحر الهائل يعكس لهباً هائجاً من الزبد القرمزي .

ــ « لقد انتهى المد ، ولولا ذلك لكانت رحلتكم قاسية . هل ترين

الضباب من جهة الشرق؟ إنها حدود الـ «غريت بارير ريف»، ونحن هنا في ماتلوك نتعلق به بأسناننا وأظافيرنا. سوف تشعرين بالجزيرة ترتجف وترتعش من الضربات التي تتلقاها من هنا».

وساعدها على الصعود إلى السيارة:

ـــ «إن هذه الجهة من ماتلوك معرضة للرياح، وتبدو موحشة ومنفرة، أليس كذلك؟ ولكن انتظري حتى ترين الجهة الأخرى، فهي شيء آخر!».

واندفعت بهما سيارة ماتلوك الوحيدة بسرعة متهورة على طريق ضيقة من التراب المرجاني، عبر أشجار النخيل والنباتات الكثيفة التي تغطي قمة هضبة تمتد على خمسة كيلومترات وتشكل العمود الفقري للجزيرة.

ـــ آه، يا لجمالها! قالت ميغي.

كانا قد وصلا إلى طريق آخر يلف حول شاطىء البحيرة الداخلية الرملي الهلالي الشكل. وفي البعيد، كان الرذاذ يرتفع أبيض حيث تتحطم أمواج المحيط مثل الدانتيل على أطراف البحيرة الصخرية. أما على مقربة من الصخور المرجانية فقد كان الماء هادئاً مثل مرآة فضية لامعة محاطة بالبرونز.

ـــ يبلغ طول الجزيرة أثني عشر كيلو متراً، وعرضها ستة كيلو مترات.

شرح لها دليلها بينما كانا يمران أمام بناء أبيض غير منتظم، له شرفة عريضة، وواجهة تشبه واجهة المخازن:

ـــ «إنه المخزن العام» قال باعتزاز الملاّك. «إنني أسكن هنا مع زوجتي، وهي ليست سعيدة بقدومك وحيدة هنا، استطيع أن أقول لك ذلك. وهي تظن أنك ستغويني... ولكن المكتب قال أنك تريدين الهدوء التام والسلام، ولقد أطمأنت زوجتي قليلاً عندما علمت أني وضعتك في أبعد مكان عن منزلنا، وليس هناك أي انسان على مقربة منك، والشخصان الوحيدان الموجودان على الجزيرة حالياً هم في الجهة المعاكسة. تستطيعين أن تتجولي عارية ولن يراك أحد. لن تتركني زوجتي ابتعد لحظة عن أنظارها ما دمت أنت هنا. عندما تحتاجين لأي شيء ما عليك إلا أن تتصلي بالهاتف، وسآتيك بما تريدين. فلا حاجة أن تمشي كل هذه المسافة. ورضيت زوجتي أم لم ترض، سأمر عليك يومياً عند غروب الشمس حتى أتأكد أن كل شيء على ما يرام. ومن الأفضل أن تكوني في البيت في تلك الساعة وترتدي شيئاً لائقاً، فلربما خطر على بال زوجتي أن ترافقني.

كان الكوخ مشيداً من طابق واحد وثلاث غرف، وكان له شاطىء خاص من الرمال البيضاء بين ذراعي هضبة متغلغلين في البحر، وهنا كان الطريق يتوقف.

كان داخل المسكن عادياً جداً وإنما مريحاً، وبما أن الجزيرة تولد طاقتها الكهربائية بنفسها، فقد كان هناك براد صغير وأنوار كهربائية، وهاتف ومذياع. أما المرحاض، فقد كان حديثاً والماء متدفق في الحمّام، أحدث بكثير مما في دروغيدا أو هيملهوتش. ـ فكرت ميغي باستغراب ـ ومن الواضح أن الزبائن كانوا غالباً من سيدني أو ملبورن، وقد اعتادوا على وسائل الرفاهية وليس بإمكانهم الاستغناء عنها.

وبعد عودة روب إلى زوجته الغيور، بقيت ميغي لوحدها، ففتحت حقائبها وأخذت تتفحص مسكنها. كان السرير المزدوج العريض مريحاً أكثر بكثير من سرير زواجها، وكان المكان جنة شهر عسل حقيقية. وهل يرغب الذين يأتون إلى هنا بأكثر من سرير لائق؟ أما زبائن المقصف في «دنّي» فقد كانوا عادة سكارى لدرجة أنهم لا يبالون بنوابض السرير التي تصر وتئن. كان البراد والخزانة مليئين بالطعام، وعلى المنضدة سلة كبيرة من الموز

والأناناس والمانغو. لم يكن هناك من سبب يمنعها من أن تنام جيداً وتأكل جيداً.

وفي الأسبوع الأول لم تفعل ميغي سوى الأكل والنوم، ولم تكن تعلم مدى تعبها، ولا مدى تأثير مناخ دنغلو الذي قتل شهيتها تماماً. وفي السرير الرائع، كانت تغفو حالما تضع رأسها على الوسادة، عشر أو اثنتا عشرة ساعة متواصلة، وكان الطعام يجذبها بشكل لم تعرفه منذ غادرت دروغيدا. وكان يبدو لها أنها لا تكف عن الأكل طالما بقيت مستيقظة، حتى إنها كانت تأخذ معها بعض ثمار المانغو عندما تذهب للسباحة. والحقيقة أن الشاطىء كان المكان المنطقي الوحيد لأكل المانغو، إذا لم ننس مغطس الحمّام، لأن الفاكهة كانت تسيل بالعصير. وبما أن شاطئها كان ضمن حدود البحيرة، فقد كان البحر هادئاً كالمرآة وبعيداً عن التيارات، وقليل العمق. وكان هذا يناسبها تماماً، لأنها لم تكن تعرف السباحة. ولكن المياه الشديدة الملوحة كانت تبدو وكأنها تحملها، وبدأت تحاول السباحة، وعندما كانت تطفو بضع ثوان، كانت تطير من الفرح. وجعلها الشعور بأنها حرة من الأربطة التي تقيدها إلى الأرض تتلهف لأن يكون باستطاعتها التحرك في الماء كالسمكة.

وهكذا فإن تذمرت من وحدتها فقد كان ذلك بسبب رغبتها بوجود شخص يعلمها السباحة، أما عدا ذلك فقد كانت تشعر بروعة الاستقلال. كانت آن على حق، فقد أمضت كل حياتها مع أشخاص آخرين في المنزل، وأعطاها وجودها لوحدها شعوراً بالارتياح يشبه السلام. لم تكن تشعر بالوحدة على الإطلاق، ولم تفتقد آن ولا لودي، ولا جوستين أو لوك. ولأول مرة منذ ثلاث سنوات لم تحنّ إلى دروغيدا.

أما العجوز «روب» فلم يعكر عليها وحدتها أبداً، بل كان يتقدم على الطريق كل يوم عند الغياب، ويتوقف على مسافة يستطيع منها أن يعرف أن تلويح يدها من الشرفة لا يعني أنها في خطر وإنما هي تحية، ثم يدير سيارته عائداً، برفقة زوجته الجميلة غالباً.

وذات يوم اتصل بها هاتفياً ليعلمها أنه سيأخذ النزيلين الآخرين في نزهة على قارب زجاجي القعر، ويسألها إذا كانت تود مرافقتهم.

وعندما نظرت ميغي خلال قعر الزورق الشفاف، بدا لها أنها قد حصلت على بطاقة دخول إلى عالم آخر جديد، عالم يعج

بمخلوقات رقيقة رائعة، ذات أشكال دقيقة تعوم وتنبض في الماء المحبب. واكتشفت أن المرجان الحي لم يكن صارخ اللون مثل القطع المعروضة في واجهة المخزن، وإنما كان وردياً ناعماً، أو قشدياً، أو أزرق مائلاً إلى الرمادي، وحول كل عقدة وغصن، كان هناك قوس قزح رائع من الألوان، مثل هالة ملموسة. أما أزهار الشقّار البحري فقد كانت ضخمة، تفتح أهدابها العريضة، زرقاء، وحمراء، وقرمزية وبرتقالية؛ والأصداف تتماوج كبيرة كالصخور، وتدعو المكتشفين المغامرين لإلقاء نظرة إلى داخلها، حيث مجموعات ومجموعات من الألوان تروح وتجيء بين شفاهها المكسوة بالريش. كان هناك مراوح من الدانتيل الأحمر تتأرجح تحت نبضات البحر، وشرائط الطحالب الخضراء ترقص بحرية، وتنجرف. وكان ركاب الزورق الأربعة يتوقعون أن تظهر أمامهم حورية تبرق حنجرتها المصقولة، ويلتمع ذيلها الملتوي، بينما ينتشر شعرها الطويل مثل غيمة ممزقة، ويشع وجهها بابتسامة تسحر الملاحين وتقتلهم.

والأسماك! كان منها آلاف وآلاف تسري بسرعة السهم مثل أحجار ثمينة حية، مستديرة كالمصابيح الصينية، حادة

كالسهم، مخططة بألوان براقة بالحياة، يزيد لمعانها انكسار الضوء في الماء؛ بعضها يشبه اللهب بحراشفها الذهبية والحمراء، والبعض الآخر أزرق فضي غض، والبعض أيضاً يخطط الماء كأشرعة ملونة بألوان صارخة أكثر من ألوان الببغاء. كان هناك أسماك ذات منقار مدبب كالأبرة، وأخرى ذات خشم مسطح، وأسماك الباراكودا ذات الأنياب الضخمة؛ وعلى فتحات المغاور كان المرو يمد رأسه فاغراً فاه على سعته، ومن وقت لآخر كان حوت رمادي يمر تحت الزورق ويبدو أن العمر سينتهي قبل أن يعبر بكامله.

ـــ «لا تخافوا» قال روب. «نحن بعيدون جداً إلى الجنوب ولا خشية من دبور البحر السام. إذا كان هناك شيء قاتل على هذه الصخور فهو على الأرجح الأسماك الصخرية، وانصحكم ألاّ تسيروا حفاة الأقدام على المرجان».

نعم، كانت ميغي مسرورة من نزهتها، ولكنها لم تكن متلهفة للقيام بها ثانية، أو لعقد صداقة مع الزوجين اللذين كانا مع روب. وكانت تكتفي بالتمدد تحت الماء، والسير، والاستلقاء في الشمس. والغريب أنها لم تكن تفتقد الكتب للمطالعة لأنها كانت تجد دوماً شيئاً ما يثير الاهتمام، ويستدعي التأمل.

كانت قد عملت بنصيحة روب وكفت عن ارتداء الملابس. في البدء، كانت تنزع إلى التصرف مثل الأرنب الذي يشم رائحة الكلب، يحملها له الهواء، فتسارع إلى الاختباء حين تسمع أقل صوت بين الأعشاب، أو حين تسقط جوزة هند عن غصنها مثل قذيفة مدفع، ولكنها بعد عدة أيام من العزلة الحقيقية، بدأت تشعر أن أحداً لن يأتي بالقرب منها، وإن المكان كان فعلاً كما أخبرها روب، ملكها الخاص. واختفى حياؤها. وحين كانت تمشي على الطريق، أو تستلقي على الرمال، أو تخبط في الماء المالح الدافىء، كانت تشعر بنفسها كحيوان ولد ونشأ في قفص ثم وجد نفسه فجأة حراً في عالم مضياف، واسع، مشمس ولطيف.

وعرفت ميغي معنى وقت الفراغ، بعيداً عن «في» وعن أخوتها، وعن لوك، وتلك العبودية اللاشعورية التي سيطرت على كل حياتها. وفي رأسها توالت مجموعة لا نهاية لها من الأفكار، تخط وتمحي رسوماً جديدة في رأسها. ولأول مرة في حياتها، لم تحاول أن تخبىء وجودها وكيانها الواعي بانشغالها في عمل ما. ولاحظت بدهشة أن النشاط الجسدي كان أفضل طريقة يمكن بها للإنسان أن يضع حاجزاً بينه وبين النشاط الفكري.

لسنوات عديدة خلت، سألها الأب رالف بماذا تفكر عادة، فأجابت: بوالدي وأمي، ببوب وجاك وهوغي وستوارت، وبالصغيرين وبفرانك، وبدروغيدا والبيت والعمل، والمطر. لم تقل له أنها تفكر به، ولكنه كان في أعلى القائمة، دوماً. والآن، أضف إلى من سبقوا جوستين ولودي وآن، والقصب، والحنين إلى البيت، والمطر، ودائماً بالطبع الانعتاق المنقذ الذي كانت توفره لها المطالعة. ولكن هذا كله كان قد أتى وذهب بطريقة معقدة، على شكل نتف وحلقات لا علاقة بينها، بدون أن تسنح لها الفرصة أو الخبرة للجلوس بهدوء والتفكير لتعرف ما هي ميغي كليري بالضبط، أو ميغي أونيل، ماذا تريد؟ ولماذا تظن أنها قد خُلقت على وجه الأرض؟

كانت حزينة لعدم خبرتها، لأن ذلك كان يشكل نقصاً لا يمكن تصحيحه ولو قضت زمناً طويلاً تفكر بذلك. ومع ذلك ها هي تملك الوقت والهدوء والارتخاء الجسدي الكسول الذي توفره الراحة، فيمكنها الاستلقاء على الرمال والتفكير.

حسناً، كان هناك رالف. وضحكت بيأس ضحكة متشنجة. إنها نقطة انطلاق سيئة. ولكن رالف كان إلهاً نوعاً ما،

كل شيء بدأ وانتهى معه. لقد وجد رالف منذ اليوم الذي ركع فيه في غبار الشمس المشرفة على الغياب في محطة غيللي، ليأخذها بين يديه. وإذا لم يُقَدَّر لها أن تراه ثانية طيلة ما تبقى من حياتها، فقد كان يبدو لها أنه سيكون هو آخر من تفكر به في الجهة الأخرى من القبر. كم من المرعب أن يعني لك انسان واحد كل هذا!

ما الذي قالته لآن؟ إن رغباتها وحاجاتها كانت عادية تماماً: رجل، وأطفال، ومنزل. ولكن كم من النساء اللواتي يملكن هذا كن سعيدات حقاً؟ وكانت ميغي تظن أنها ستكون سعيدة إن حصلت عليها، لأن هذه الأشياء كانت صعبة المنال بالنسبة إليها.

لا تنكري يا ميغي كليري، يا ميغي أونيل. إن الشخص الذي تريدينه هو رالف دو بريكاسار، ولا تستطيعين الحصول عليه. ولكنه يبدو كرجل حطمك ولم يترك منك شيئاً لرجل آخر. حسناً إذن، إنك لن تستطيعين الحصول على زوج في الشخص الذي تحبين. عليك أن تركزي حبك على الأولاد، وذلك الحب الذي تنتظرينه سيأتيك من الأولاد، وهذا يعني لوك، وأولاد لوك.

آه، أيها الرب العزيز، أيها الرب العزيز، كلا، ليس الرب العزيز! وما الذي فعله الرب من أجلي غير أنه حرمني من رالف؟

إننا لا نحب بعضنا كثيراً أنا والرب. وهل تعلم أيها الرب؟ إنك لا تخيفني كما كنت تفعل من قبل. آه كم كنت أخشاك، وأخشى عقابك! لقد سرت طوال حياتي على الدرب الوعرة المستقيمة خوفاً منك. وأين قادني هذا؟ لا فرق فيما لو كنت خالفت كل وصايا كتابك. أنت غشاش أيها الرب، أنت شيطان الخوف. إنك تعاملنا كالأطفال، وتلوح لنا بالعقاب. ولكنك لم تعد تخيفني. لأنني يجب ألاّ أكره رالف بل أنت. إنها غلطتك أنت وليست غلطة رالف المسكين. إنه يعيش في خوفك كما كنت أفعل أنا دائماً. وأما كيف يحبك؟ فهذا ما لا أستطيع فهمه. لست أدري ما الذي عندك كي يدفعه إلى حبك.

ومع هذا فكيف أمنع نفسي عن حب رجل يحب الله؟ يبدو لي أني عاجزة عن ذلك مهما حاولت. إنه القمر، وأنا أبكي لأني لا أستطيع الوصول إليه. حسناً، عليك أن تتوقفي عن البكاء من أجله يا ميغي أونيل، هذا كل ما هنالك. عليك أن تكتفي بلوك، وبأولاد لوك. سوف تخطفين لوك من القصب اللعين، مكرهاً أم راضياً، وتعيشين معه في مكان لا شجرة به. ستخبري مدير مصرف غيللي أن يحتفظ من الآن فصاعداً بنقودك

باسمك، وستستخدمين هذه النقود للحصول على وسائل الراحة والضروريات التي لا يفكر لوك في تأمينها لك، وفي بلدك العاري من الأشجار. ستستخدمين هذه النقود لتربية أولاد لوك تربية حسنة، وتتأكدين من أنهم لن يحتاجوا لشيء أبداً.

هذا كل ما في الأمر يا ميغي أونيل. أنا ميغي أونيل ولست ميغي دو بريكاسار. ميغي دو بريكاسار! كم يبدو الاسم مضحكاً أحمق. كان علي أن أصبح ميغان دو بريكاسار، وكنت دوماً أكره هذا الأسم، ميغان. آه، هل سأكف يوماً عن الأسف لأنهم ليسوا أولاد رالف؟ هذه هي المشكلة، أليس كذلك؟ قولي هذا لنفسك ورددیه ثانية وثالثة: حياتك ملكك يا ميغي أونيل ولن تضيعيها في الأحلام. في الحلم برجل وأولاد لن يصبحوا لك أبداً.

هذا هو الأمر، وهو شيء مفهوم! ولا فائدة من الرجوع إلى الماضي الذي يجب دفنه. إن المستقبل هو المهم، والمستقبل متعلق بلوك، وبأولاد لوك. إنه لا يخص رالف دو بريكاسار. رالف هو الماضي. واستدارت ميغي فوق الرمال وأخذت تنتحب كما لم تفعل منذ كانت في الثالثة من عمرها، وتشهق بصوت مرتفع فلا يسمع أساها إلا السراطين والأسماك.

كانت آن مولر قد اختارت جزيرة ماتلوك عمداً، وهي تنوي إرسال لوك إلى هناك حالما تسنح لها الفرصة. وفي اللحظة التي رحلت بها ميغي، أرسلت آن برقية للوك تخبره فيها أن ميغي بحاجة ماسة له، وترجوه المجيء. لم تكن طبيعتها تسمح لها بالتدخل في أمور الآخرين، ولكنها كانت تحب ميغي وتشفق عليها، وتعبد تلك الطفلة الصغيرة الصعبة، المتقلبة المزاج، التي أنجبها لوك وميغي. يجب أن يكون لجوستين منزل ووالدان. وسيؤلمها أن ترحل الصغيرة ولكن ذلك سيكون أفضل من الوضع الحالي.

ووصل لوك بعد ذلك بيومين، وكان في طريقه إلى مصفاة السكر في سيدني، فلم يأخذ ذلك الكثير من وقته. كان الوقت قد حان لكي يرى الطفلة، ولو كان المولود صبياً لكان قد أتى منذ ولادته، ولكن خبر مولد بنت خيب أمله كثيراً. وإن أصرت ميغي على انجاب الأطفال، فيجب أن يكونوا على الأقل قادرين على الاهتمام بالمزرعة في كينونا ذات يوم، فالبنات لا منفعة منهن على الإطلاق، إذ أنهن يمتصصن دم الرجال، وعندما يكبرن يرحلن ويعملن لشخص آخر بدلاً من البقاء في البيت كالصبيان ليساعدن والدهن في سنواته الأخيرة.

وسأل آن حين وصل إلى الشرفة :

ــ كيف حال ميغ ؟ أرجو ألاّ تكون مريضة .

ــ ترجو ! كلا ، إنها ليست مريضة . سأخبرك خلال ثوان . ولكن ادخل أولاً وانظر إلى ابنتك الجميلة .

ونظر إلى الطفلة باستغراب واهتمام ولكن دون أي أثـر للعاطفة ، فكرت آن .

ــ إن عينيها أغرب ما رأيت في حياتي ، وإني لأتساءل من أين أتت بهما !

ــ ميغي تقول أنهما لا تشبهان عيني أحد من عائلتها .

ــ ولا من عائلتي . لا بد أنها قد أخذتهما عن جد قديم . إنها طفلة غريبة ، وهي لا تبدو سعيدة ، إيه ؟

ــ « وكيف ستكون سعيدة ؟ » أجابت آن وهي تحاول أن تتمالك نفسها . « إنها لم تر والدها أبداً ، وليس لها منزل حقيقي ، ويبدو أنه لن يكون لها منزل قبل أن تكبر ، إذا تابعت حياتك بالطريقة نفسها .

ــ إني أدخر النقود يا آن .

ــ هراء ! إني أعلم المبلغ الذي تملكه ، أصدقائي من شارترز تاور

يرسلون لي الصحيفة المحلية من وقت لآخر، ولقد قرأت بها إعلانات عن أراضٍ في المنطقة الغربية، وهي أقرب وأكثر خصباً بكثير من كينونا. هناك أزمة اقتصادية يا لوك، ويمكنك أن تحصل على قطعة أرض ممتازة، ولن تكلفك إلاّ جزءاً بسيطاً مما تمتلك في المصرف، وأنت تعلم ذلك.

ــ هذه هي القصة، هناك أزمة اقتصادية، وفي الغرب يسود جفاف هائل يحطم كل شيء من «جوني» إلى «ايسا». وهذه هي السنة الثانية التي لا تسقط فيها قطرة واحدة من المطر. وإني أراهن أن دروغيدا تعاني من ذلك حالياً. فكيف تظنين الحال من جهة «ونتون» و «بلاكول»؟ كلا، اعتقد أن علي أن انتظر أيضاً.

ــ تنتظر حتى ترتفع أسعار الأراضي بعد موسم أمطار جيد؟ هيا، هيا يا لوك! هذا هو الوقت المناسب للشراء! إن باستطاعتك تحمل الجفاف سنتين، إذ أن هناك الألفي ليرة مضمونة لميغي سنوياً. ولا تشترِ أية ماشية حالياً. إن باستطاعتكم العيش على دخل ميغي حتى تعود الأمطار، وبعدها يمكنك شراء القطعان.

ــ «لست مستعداً حالياً أن أتخلى عن قطع قصب السكر»، قال بعناد، وهو لا يزاال يحدق بعيني ابنته الغريبتين.

ـ لقد قلت الحقيقة أخيراً، أليس كذلك؟ لماذا لا تقر بذلك يا لوك؟ إنك لا تريد أن تكون متزوجاً، إنك تفضل الحياة التي تحياها حالياً، حياة قاسية، برفقة رجال من فصيلتك، يعرقون دماً وماء، تماماً مثل نصف الرجال الاستراليين الذين عرفتهم. ما مرض هذا البلد اللعين الذي يدفع الرجال إلى تفضيل الحياة فيما بينهم على الحياة العائلية مع زوجاتهم وأولادهم؟ إذا كانت حياة العازب هي ما يفضلون، فلماذا يجربون الزواج بحق الشيطان؟ هل تعلم كم من زوجة مهجورة هنا في «دنّي» فقط، تتخبط لتكسب لقمة الخبز ولتربية أولاد لم يروا والدهم قط؟ آه، إنه في القصب، إنه سيعود، إنه سيعود بعد قليل. ها! وكلما مر ساعي البريد، يتعلقن على البوابة، وينتظرن رسالة، آملات أن يرسل لهن الوغد بضعة قروش. وغالباً لا يفعل، وأحياناً يرسل القليل القليل مما لا يسد رمقاً.

كانت ترتجف غضباً، وعيناها البنيتان الوادعتان عادة تقدحان بالشرر.

ـ هل تدري إني قرأت في جريدة «بريسبين ميل» إن استراليا تملك أعلى نسبة للزوجات المهجورات في العالم المتقدم؟ هذا هو

الشيء الوحيد الذي سبقنا به كل بلاد العالم الأخرى، وهو انتصار لا يدعو للفخر مطلقاً.

ــ اهدئي يا آن. إنني لم أهجر ميغ إنها في أمان ولن تموت جوعاً. ما الذي يجري لك؟

ــ إن طريقتك في معاملة زوجتك تمرضني. بحق السماء يا لوك، عليك أن تكبر وتتحمل مسؤولياتك لفترة من الزمن. إن لك زوجة وطفلاً! عليك أن تؤمن لهما بيتاً، وتكون زوجاً وأباً، وليس غريباً لعيناً.

ــ سأفعل، سأفعل، ولكني لا أستطيع الآن. علي أن أتابع قطع القصب لسنتين آخريين حتى أصبح واثقاً من إمكاناتي. إني لا أريد أن أقول إني أعيش على نقود ميغ، وهذا ما سأضطر لفعله إذا لم تتحسن الأوضاع.

ومطت آن شفتيها باحتقار:

ــ آه، كل هذا ليس إلا ثرثرة فارغة. لقد تزوجتها من أجل نقودها، أليس كذلك؟

وعلا الاحمرار وجهه الأسمر، ولم ينظر إليها.

ــ إني أعترف بأن النقود كان لها دور، ولكني تزوجتها لأني استلطفتها أكثر من غيرها.

ـــ استلطفتها ؟ وماذا عن حبها ؟
ـــ الحب ! وما الحب ؟ ليس إلا نسج مخيلات النساء ، هذا كل شيء .

واستدار مبتعداً عن المهد وعن العينين المربكتين ، وهو يفكر أنه يمكن لعينين مثل هاتين أن يفهما ما يقال أمامهما :
ـــ والآن ، إذا كنت قد انتهيت من إلقاء الدرس ، أين ميغ ؟
ـــ إنها لم تكن بصحة جيدة ، ولقد أرسلتها بعيداً لبعض الوقت .
آه ، لا ترتعب ، ليس على نفقتك . كنت آمل أن أقنعك باللحاق بها ولكني أرى أن ذلك مستحيل .
ـــ هذا مستحيل تماماً . فأنا وآرن في طريقنا إلى سيدني الليلة بالذات .
ـــ ماذا سأقول لميغي عندما تعود ؟

فهز كتفيه وهو متلهف للإسراع بالرحيل .
ـــ لا يهم . قولي لها أن تصبر قليلاً . والآن ، وبما أنها قد باشرت بالانجاب فلن أمانع في أن تصنع لي صبياً .

واستندت آن إلى الحائط ، وانحنت فوق المهد وتناولت

الطفلة، ثم جرّت نفسها إلى السرير وجلست. ولم يحاول لوك مساعدتها أو أخذ الطفلة منها، وكان يبدو مذعوراً من ابنته.

ــ اذهب يا لوك! إنك لا تستحق ما حصلت عليه. إنني مريضة من رؤيتك. اذهب إلى آرن اللعين وإلى قصب السكر، وإلى العمل الذي يقصم ظهرك.

وتوقف على الباب.

ــ وماذا سمتها؟ لقد نسيت اسمها.

ــ جوستين، جوستين، جوستين!

ــ يا للاسم اللعين السخيف.

قال هذا وهو يخرج.

ووضعت آن جوستين على السرير. وانفجرت بالبكاء. لعن الله كل الرجال ما عدا لودي، لعنهم الله! هل كان في لودي نفحة من النعومة والعاطفة شبه الأنثوية جعلته قادراً على الحب؟ هل كان لوك على حق؟ هل الحب ليس إلّا نسيج من صنع تخيلات النساء؟ أم أنه شيء لا يمس إلا النساء أو الرجال الذين يملكون شيئاً من المرأة في داخلهم؟ ليس هناك، ولم يكن هناك امرأة قادرة على إمساك لوك. ولن تستطيع امرأة أن تعطيه ما يريد.

وفي اليوم التالي كانت قد هدأت، ولم تعد تشعر أن محاولتها كانت عبثاً. فلقد وصلتها بطاقة من ميغي ذلك الصباح تشع وتفيض حماسة حول ماتلوك، والتحسن الذي طرأ عليها. لقد نتج شيء جيد من هذا، وشعرت ميغي بالتحسن. ستعود عندما تخف الأمطار الموسمية ويكون بمقدورتها مواجهة الحياة. ولكن آن قررت ألّا تخبرها عن لوك.

وحملت «نانسي»، كما كانوا ينادون انونسياتا، جوستين إلى الشرفة الأمامية، بينما كانت آن تجر نفسها حاملة لوازم الصغيرة في سلة بين أسنانها. فوطاً نظيفة، وعلبة بودرة، وألعاباً. وجلست في كرسي من الخيزران وتناولت الطفلة من نانسي وبدأت بإطعامها من زجاجة اللاكتوجين التي كانت نانسي قد سخنتها. كان ذلك مرضياً، وكانت الحياة مرضية جداً، لقد حاولت جهدها لكي يعود لوك إلى رشده، وإذا فشلت فذلك يعني على الأقل أن ميغي وجوستين ستبقيان في هيملهوتش بعض الوقت أيضاً. وعندها ستعود إلى دروغيدا. وكانت آن تخشى وصول ذلك اليوم.

وهدرت سيارة حمراء انجليزية وهي تغادر طريق «دنّـي» لتتسلق الطريق الصاعدة، كانت سيارة جديدة باهظة الثمن، وقد

طُوي سقفها الجلدي، وربط بأحزمة جلدية، بينما كانت مدخنتها الفضية وطلاؤها الأحمر يتوهجان تحت ضوء الشمس. ولفترة وجيزة لم تتعرف آن على الرجل المنحني فوق الباب المنخفض لأنه كان يرتدي لباس كوينزلاند الشمالية وهو عبارة عن بنطال قصير لا غير. يا رب، يا لوسامة هذا الشاب! فكرت آن وهي تنظر بإعجاب إليه، وقد عاودتها ذكرى مبهمة عندما رأته يصعد الدرج كل درجتين سوية. كم أتمنى أن يخفف لودي من الطعام، لو كان بإمكانه أن يشابه هذا الرجل ولو قليلاً! آه، ولكنه ليس صغير السن، انظري إلى الصدغين الفضيين الرائعين، إني لم أر في حياتي قاطع قصب بهذه الوسامة.

وعندما نظرت العينان البعيدتان الهادئتان في عينيها، عرفته.

ــ يا إلهي، صرخت وهي تترك الرضاعة من يدها.

والتقطها وناولها لها، وانحنى على درابزين الشرفة. مقابلاً لها:

ــ لا بأس، فالحلمة لم تمسّ الأرض، ويمكنك أن تطعميها بها.

كانت الطفلة قد بدأت تتململ وقد عضها الجوع. ووضعت آن الزجاجة بين شفتي جوستين وهي تستعيد أنفاسها لكي تستطيع الكلام.

ــ «حسناً، إنها مفاجأة يا سيدنا!» قالت وهي تنظر إليه نظرة ضاحكة. «إني أقر بأنك لا تبدو كالأساقفة. ولن تبدو مثلهم أبداً حتى ولو ارتديت ملابسهم. كنت أتصور أن الأساقفة شديدو السمنة مغرورون، مهما كان مذهبهم.

ــ حالياً لست أسقف، ولكنني كاهن فقط في إجازة مستحقة، وهكذا فبإمكانك أن تدعيني رالف. أهذه هي الشيء الصغير الذي كلف ميغي كل ذلك العذاب في آخر مرة كنت فيها هنا؟ هل أستطيع حملها؟ أظن أن بإمكاني أن أمسك الرضاعة كما يجب.

وجلس على كرسي بقرب آن، وتناول الطفلة والزجاجة وتابع إطعامها وقد وضع ساقاً على ساق بلا مبالاة.

ــ هل سمّتها ميغي جوستين؟

ــ نعم.

ــ إني أحب هذا الاسم. أيها السيد الرب! انظري إلى لون شعرها. إنه كشعر جدها بالتمام.

ــ هذا ما تقوله ميغي. أرجو ألّا يمتلىء وجه الطفلة المسكينة بملايين من بقع النمش فيما بعد. ولكن هذا ما سيحدث على ما اعتقد.

ـــ حسناً ، إن ميغي حمراء الشعر نوعاً ما ولكنها ليست منمشة . ومع ذلك فلون ميغي مختلف عن هذه ، وبشرتها ليست بهذه الشفافية .

ووضع الزجاجة الفارغة أرضاً ، وأجلس الطفلة على ركبتيه مستقيمة ، مواجهة له ، ثم أحناها صوبه وبدأ يفرك ظهرها بشدة :
ـــ إن أحد نشاطاتي فيما مضى كان زيارة دور الأيتام الكاثوليكية ، وأنا أعلم طريقة معاملة الأطفال . وتقول الأم « غونزاغا » في دار الأيتام الذي أفضله على غيره ، أن هذه أفضل طريقة لكي يتجشأ الطفل . فإذا اسندته إلى كتفك لن ينحني جسمه كفاية ، وهكذا لن يستطيع طرد الغاز بسهولة ، وإذا تمكن من ذلك فهو يراجع كمية من الحليب معه عادة . أما بهذه الطريقة ، فالطفل محني من وسطه ، وهذا يضغط على الحليب فيحفظه بينما يخرج الغاز .

وكبرهان على صدق كلامه ، انبعث من جوستين عدة تجشؤات رنانة ، ولم تظهر على شفتيها نقطة حليب واحدة . وضحك وهو يفرك ظهرها ثانية ، وعندما لم يحدث أي شيء ، أجلسها مسنداً إياها إلى طية ذراعه .

ـــ يا للعينين الرائعتين المذهلتين، أليس كذلك؟ لا يمكن لغير ميغي إنجاب أولاد غير اعتياديين.

ـــ دعني أتحدث في الموضوع نفسه، وأقول لك أنه كان بإمكانك أن تكون أباً مثالياً.

ـــ إني أحب الأطفال والأولاد، وكنت دائماً هكذا. ومن السهل علي أن أحب رفقتهم لأني غير ملزم بواجبات الآباء المزعجة.

ـــ كلا، ولكن ذلك لأنك مثل لودي، إن بك شيئاً من الأنثى.

ويبدو أن جوستين، وهي الانعزالية جداً، قد تجاوبت مع استلطافه لها، فأغفت. وغير رالف وضعها بشكل مريح أكثر، وسحب من جيبه علبة سغائر.

ـــ اعطني العلبة، سأشعل لك سيغارة.

ـــ «أين ميغي»؟ سألها وهو يتناول السيغارة المشعلة. «شكراً، اعذريني، تفضلي واشعلي واحدة لنفسك».

ـــ «إنها ليست هنا. والواقع أنها لم تتغلب على الصعوبة التي قابلتها وهي تضع جوستين، ويبدو أن موسم الأمطار لم يحسن الأمور، ولهذا فقد قررنا أنا ولودي أن نبعدها لمدة شهرين. وهي ستعود في أوائل شهر آذار. لا يزال أمامها سبعة أسابيع». إذن وفي

اللحظة التي بدأت آن كلامها، شعرت بتغير عنده، وكأن كل مشاريعه قد تبخرت فجأة، ومعها بهجة خاصة كان يتوقعها.

وتنفس بعمق:

ــ هذه هي المرة الثانية التي آتي فيها لأودّعها ولا أجدها... آثينا، ثم الآن. لقد كنت غائباً لمدة سنة، وكان من الممكن أن يطول غيابي لزمن أطول، ولم أكن أعلم بذلك عندها. لم تطأ قدماي دروغيدا منذ موت بادي وستو، وعندما حان وقت سفري، وجدت نفسي عاجزاً عن مغادرة استراليا دون أن أرى ميغي. ولكنها كانت قد تزوجت وسافرت. وأردت اللحاق بها ولكني كنت أعلم أن ذلك لن يكون عادلاً بالنسبة للوك. وهذه المرة أتيت لأني أعلم أني لن ألحق الضرر بما لا وجود له.

ــ إلى أين تذهب؟

ــ إلى روما، إلى الفاتيكان. لقد حلّ الكاردينال دي كونتيني فيركيزي محل الكاردينال مونتيفيردي الذي مات منذ مدة. ولقد طلب مني اللحاق به كما كنت أتوقع. إنه شرف كبير لي وأكثر من ذلك بكثير، وليس بإمكاني الرفض.

ــ وكم من الوقت سيطول غيابك؟

ـــ آه، طويلاً جداً على ما اعتقد. هناك إشاعات عن حرب في أوروبا، ولكنها تبدو بعيدة جداً هنا. والكنيسة في روما تحتاج إلى كل دبلوماسي من رجالها، وهي تعتبرني دبلوماسياً بفضل الكاردينال دي كونتيني فيركيزي. إن موسوليني متحالف مع هتلر، وهما عضوان من الفصيلة نفسها؛ وعلى الفاتيكان أن يحاول التوفيق ما بين مبدأيـــن متضاربين، الكاثوليكيـــة والفاشستية. ولن يكون الأمـر سهـلاً. إني أتكلـم الألمانيـة بطلاقة، ولقد تعلمت اليونانية خلال إقامتي في أثينا، وكذلك الإيطالية حين كنت في روما، وأنـا أيضاً أتكلـم الفرنسيـة والإسبانية بطلاقة. وتنهد، كنت دائماً موهوباً بالنسبة للغات، ولقد غذيت هذه الموهبة عمداً. وفي الظروف الراهنة، لا مفر لي من نقلي إلى روما.

ـــ حسناً يا سيدنا، إذا لم تكن مبحراً غداً بإمكانك رؤية ميغي.

انطلقت الكلمات من فمها قبل أن تتوقف لتفكر فيما تقوله. لماذا لا تراه ميغي مرة واحدة قبل أن يرحل، خاصة إذا كان راحلاً لفترة طويلة جداً على ما يبدو؟ واستدار نحوها. هاتان العينان الجميلتان البعيدتان كانتا شديدتي الذكاء، ومن الصعب

خداعهما. نعم، لقد ولد دبلوماسياً! كان يعلم بالضبط ما كانت تقصده، وكل سبب في أعماق رأسها. وكانت آن تنتظر جوابه وقد حبست أنفاسها، ولكنه سكت طويلاً، وجلس ينظر إلى البعيد، فوق قصب السكر الزمردي، نحو النهر المتضخم، وقد نسي الطفلة النائمة بين ذراعيه. ونظرت آن مسحورة إلى وجهه، تتأمل تقويس الحاجبين، والأنف المستقيم، والفم المتكتم، والذقن الحازمة. أية قوى كانت تتنازعه بينما كان يتأمل هذا المنظر؟ أية موازين معقدة من الحب والرغبة والواجب والفرصة السانحة وقوة الإرادة والشوق، كان يزن في رأسه؟ وماذا ضد ماذا؟.

ورفعت يده لفافة التبغ إلى شفتيه، ورأت آن أصابعه ترتجف، وتنفست بسكون. لم يكن غير مكترث إذن.

ولعشر دقائق تقريباً لم تقل شيئاً؛ وأشعلت له آن لفافة أخرى وناولتها له بدلاً من العقب الذي كان بيده. ودخن الثانية بهدوء كالأولى، ولم يرفع نظره مرة واحدة عن الجبال البعيدة، والغيوم الموسمية التي كانت تحجب السماء.

ـــ أين هي؟.

سألها عندئذ بصوت عادي جداً وهو يرمي بعقب السيغارة من فوق درابزين الشرفة .

وعلى جوابها يتعلق قراره ، كان عليها أن تفكر الآن . هل من حق الإنسان أن يدفع أناساً آخرين على طريق تقودهم إلى حيث لا يعلمون؟ كانت مخلصة لميغي ، ولميغي فقط ، لم يكن يهمها على الإطلاق ما سيحدث لهذا الرجل. فهو على طريقته، لم يكن أفضل من لوك . إنه هو أيضاً يجري وراء أشياء رجالية ولا يملك لا الوقت ولا الميل لكي يدع امرأة تعوقه عن طريقه، وهو يجري محاولاً أن يقبض على حلم لا يوجد على الأرجح إلا في خياله . لا وجود له أكثر من الدخان المتصاعد من المصفاة ، والذي يختفي في الهواء المثقل برائحة الدبس . ولكن هذا ما كان يرغب به ، وسوف يجاهد ويمضي حياته وهو يطارد حلمه .

إنه لم يفقد منطقه مهما كانت ميغي تمثل بالنسبة له . وكانت آن قد بدأت تعتقد أنه يحب ميغي أكثر من أي شيء آخر عدا عن مثاله الغريب . لن يضيع فرصة الوصول إلى هدفه والقبض عليه ذات يوم ، حتى من أجلها . حتى من أجلها . وهكذا فإن هي أجابته أن ميغي موجودة في أحد الفنادق المكتظة حيث يمكن

للناس أن يتعرفوا عليه، فلن يذهب إلى هناك، وهو يعلم أفضل من الجميع أنه لم يكن من النوع الذي يبقى مجهولاً بين الحشود.

وبللت شفتيها واستعادت صوتها:

ـــ إن ميغي في كوخ على جزيرة «ماتلوك».

ـــ جزيرة ماذا؟

ـــ جزيرة ماتلوك. إنها بالقرب من ويتسندي، وهي مصمَّمَة خصيصاً للعزلة. وفضلاً عن ذلك، ففي هذا الوقت من العام ليس هناك كائن بشري هناك.

ولم تستطع منع نفسها من الاستطراد قائلة:

ـــ لا تخف، لن يراك أحد.

ـــ هذا شيء مطمئن.

وبلطف شديد رفع الطفلة الراقدة من حضنه وناولها لآن.

ـــ شكراً.

قال وهو يتجه نحو الدرج، ثم استدار وفي عينيه نداء مؤثر:

ــ أنت على خطأ ، إني أريد رؤيتها فقط ، لا أكثر من ذلك . إني لن أورط ميغي أبداً في شيء يضع روحها الخالدة في خطر .

ــ ولا روحك أنت ، هيه ؟ في هذه الحالة ، اذهب إليها كما لو كنت لوك أونيل . إنهم يتوقعون مجيئه هناك . وهكذا تكون أكيداً أنك لن تتسبب بأية فضيحة ، لا لميغي ولا لنفسك .

ــ وماذا لو ذهب لوك إلى هناك ؟

ــ لا خطر من ذلك . لقد ذهب إلى سيدني ولن يعود قبل آذار . والطريقة الوحيدة لكي يعرف أين هي ميغي ، هي أن يسألني ، ولن أخبره يا سيدنا .

ــ هل تتوقع ميغي مجيء لوك ؟

وابتسمت آن ابتسامة متشنجة :

ــ كلا .

ــ « إني لن أؤذيها » ، قال بإصرار ، « بل أريد فقط رؤيتها لمدة قصيرة . هذا كل ما في الأمر » .

ــ إني أعلم ذلك يا سيدنا ، ولكنك بدون شك ستؤلمها أقل بكثير لو أردت أكثر من هذا .

○

عندما وصلت سيارة العجوز روب لاهثة على الطريق، كانت ميغي جالسة على شرفة كوخها. ورفعت يدها كعادتها كل مساء مشيرة إليه أن كل شيء على ما يرام، وإنها ليست بحاجة لشيء. وتوقف في مكانه المعهود حيث يدير سيارته عائداً، وقبل أن يفعل، قفز من السيارة رجل يرتدي بنطالاً قصيراً وقميصاً وصندلاً، ويمسك بيده حقيبة.

ــ هيه، السيد أونيل. صاح وهو ذاهب.

ولكن ميغي لن تخلط بينهما مرة ثانية أبداً. لوك أونيل ورالف دُو بريكاسار. لم يكن هذا لوك، ولم يخطىء ظنها حتى على تلك المسافة وفي الضوء المتلاشي بسرعة. ووقفت مشدوهة تنتظر بينما كان يتقدم نحوها على الطريق. رالف دو بريكاسار. لا بد أنه قرر أخيراً أنه يريدها. لا يمكن أن يكون هناك سبب آخر يدفعه للحاق بها في مكان كهذا، مدعياً أنه لوك أونيل.

وتجمد كل شيء فيها، ساقاها، وعقلها، وقلبها. ها هو رالف قد جاء يناديها، فلماذا فقدت إحساسها؟ لماذا لا تجري على الطريق وترتمي بين ذراعيه، مسرورة برؤيته حتى لا يبقى هناك أهمية لشيء آخر؟ هذا هو رالف، وهو كل ما رغبت في حياتها. ألم

تمض أسبوعاً كاملاً وهي تحاول أن تطرده من مخيلتها؟ لعنه الله، لعنه الله، لماذا قرر أن يأتي عندما بدأت أخيراً بطرده من أفكارها ومن قلبها؟ آه. كل شيء سيتكرر من جديد! ووقفت مذهولة غاضبة، والعرق يتصبب منها، تنتظره كخشبة جامدة، وتتأمل الشكل الرشيق وهو يكبر شيئاً فشيئاً.

ــ مرحبا يا رالف.

قالت من بين أسنانها المطبقة، ودون أن تنظر إليه.

ــ مرحباً يا ميغي.

ــ هات حقيبتك إلى الداخل. هل تريد فنجاناً من الشاي؟

وقادته إلى غرفة الجلوس وهي تتابع الكلام دون أن تنظر إليه.

ــ بطيبة خاطر.

قال وهو جامد مثلها تماماً.

وتبعها إلى المطبخ يراقبها وهي تشغّل السخانة الكهربائية، وتملأ وعاء الشاي من صنبور الماء الساخن فوق حوض المطبخ، وتشغل نفهسا بتناول الفناجين والصحون من الخزانة. وعندما مدت له علبة البسكويت الكبيرة، تناول منها حفنتين ووضعهما

في الطبق. وعندما غلى الماء، سكبته في إبريق الشاي، ثم وضعت به حفنة من الشاي، وملأت الوعاء بالماء الغالي. وبينما كانت تنقل الشاي وطبق البسكويت، لحق بها حاملاً الفناجين والصحون، عائدين إلى غرفة الجلوس.

كانت الغرف الثلاث قد بنيت على صف واحد، فغرفة النوم تفتح من جهة غرفة الجلوس، والمطبخ من الجهة الأخرى لها؛ ووراء المطبخ كان الحمّام. وهذا يعني أن للبيت شرفتين، الأولى تواجه الطريق، والثانية مقابلة للشاطىء. وهذا يعني أيضاً أنه كان باستطاعة ميغي ورالف أن ينظرا كل من جهة دون أن يضطرا إلى النظر لبعضهما. وكان الظلام قد هبط بسرعة كما يحدث عادة في المناطق الاستوائية، ولكن النسيم الذي كان يصل عبر الأبواب العريضة المشرعة، كان معبئاً بصوات الأمواج تلحس الشاطىء، وزمجرة التيارات البعيدة وهي تتحطم على الصخور، وهبات الهواء الدافىء الناعمة. وشربا الشاي بصمت، ولكن لم يستطع أحدهما أن يضع قطعة واحدة من البسكويت في فمه، وامتد الصمت بينهما بعد أن أنهيا الشاي، وأدار نظره إليها فيما كانت هي تحدق بأوراق شجرة نخيل طفلة تتلاعب بها النسمات أمام باب الشرفة المطلة على الطريق.

ـــ ما الأمر يا ميغي؟

سألها برقة وحنان، فوثب قلبها بذعر في صدرها حتى بدا لها أنها ستموت من الألم، وهي تسمع السؤال القديم نفسه، يطرحه الرجل الناضج على الفتاة الصغيرة. إنه لم يأت إلى ماتلوك ليقابل المرأة، ولكنه أتى ليرى الطفلة. كان يحب تلك الطفلة وليس هذه الامرأة. المرأة التي كرهها منذ خُلِقت.

واستدارت بعينيها ورفعتهما إلى وجهه بذهول، مجروحة غاضبة. حتى في هذه اللحظة! حتى في هذه اللحظة! وتوقف الزمن، وحدقت به، وحبس أنفاسه وهو يجد نفسه مجبراً أن يرى المرأة الناضجة في تلك العينين الباردتين كالزجاج، عيني ميغي. آه يا إلهي، عينا ميغي!

كان يقصد بالضبط ما قاله لآن مولر، كان يريد رؤيتها فقط، لا غير. ومع أنه كان يحبها فهو لم يأت ليكون عشيقها. فقط لرؤيتها، للتحدث إليها، لكي يكون صديقاً لها، وينام على الأريكة في غرفة الجلوس بينما يحاول ثانية أن ينتزع من جذوره هذا السحر الذي تسيطر به عليه، ظناً منه أنه لو قابله وجهاً لوجه فسيجد القوة الروحية الكافية لتحطيمه.

كان من الصعب عليه أن يتصور ميغي كأنثى، لها صدر وأرداف وخصر. ولكنه استطاع أن يتصور ذلك عندما نظر إلى عينيها فرأى ميغي منيرة كبحيرة من الضوء تحت أشعة مصباح قدسي. رأى عقلاً وروحاً ما استطاع أن يتحرر من جبروتهما منذ اللحظة الأولى التي رآها بها، ولم يتغيرا مع التغير المؤلم الذي طرأ على جسدها. ومع أنه رأى في عينيها البرهان على أن عقلها وروحها لم يتغير قط، فلم يكن باستطاعته تقبل الجسد الذي تحول، ولا التحكم في جاذبيته.

وعندما كان يعزو إليها برغباته وأحلامه، لم يكن ليخطر بباله أنها تفكر بالطريقة نفسها، حتى ذلك اليوم الذي هاجمته فيه كالقطة المتوحشة، يوم مولد جوستين. وحتى عندئذ، بعد أن تلاشى الجرح والغضب من نفسه، فقد فسر تصرفها على أنه ناتج من الألم الذي عانته، والذي كان روحياً أكثر منه جسدياً. والآن، وإذ يراها على حقيقتها، فباستطاعته أن يحدد بالدقيقة والثانية اللحظة التي غادرت فيها ميغي جلد الطفولة ولبست جلد المرأة، تلك اللحظة في دروغيدا، بعد حفلة عيد ميلاد ميري كارسون، عندما شرح لها لماذا لا يستطيع أن يعيرها اهتماماً خاصاً، لأن الناس كانوا سيتهمونه بأنه مهتم بها كرجل عادي. ولقد نظرت إليه

وقتها، وفي عينيها شيء لم يفهمه، ثم أشاحت بوجهها؛ وعندما نظرت إليه من جديد كان هذا الشيء قد اختفى. وفهم الآن أنها منذ ذلك اليوم كانت تنظر إليه بنظرة مختلفة، وهي عندما قبّلته لم تقبله في لحظة ضعف عابرة، لكي تعاود التفكير به بالطريقة القديمة نفسها، كما فعل هو. ولقد تابع هو أوهامه، وغذّاها، بينما كانت هي طوال ذلك الوقت تربي حبها له وتفرشه بأشياء انثوية.

لا يستطيع الإنكار أنه كان يرغب بها جسدياً منذ أول قبلة لهما، ولكن رغبته لم تعذبه كما عذبه حبه لها. وكان يراهما، الرغبة والحب، كشيئين مختلفين منفصلين الواحد عن الآخر، وليس كوجهين للعاطفة نفسها. أما هي، المخلوقة المسكينة، التي لم يفهمها أحد، فهي لم تستسلم لذلك الجنون.

وفي تلك اللحظة، ولو وجد أمامه وسيلة للرحيل عن جزيرة ماتلوك، لكان قد هرب منها كما فعل «اوريست» من آلهة الانتقام. ولكنه لم يكن قادراً على مغادرة الجزيرة، ومن الأفضل أن يجد الشجاعة الكافية لكي يبقى معها بدلاً من أن يهيم على وجهه. ماذا بإمكاني أن أفعل؟ كيف استطيع أن أصلح خطأي؟ إنني أحبها! وإذا كنت أحبها فعلي أن أحبها كما هي الآن، وليس

كذكرى شيء من الطفولة مر وانتهى. إنّ ما أحببته عندها دائماً كان المرأة فيها، وتحملها لعبثها. هكذا إذن يا رالف دو بريكاسار، انزع الغطاء عن عينيك، وانظر إليها كما هي حقيقة، وليس كما كانت منذ زمن بعيد، منذ ست عشرة سنة، ستة عشرة سنة..! غير معقول! إنني الآن في الرابعة والأربعين وهي في السادسة والعشرين، ولم نعد أطفالاً. ولكنني أقل نضجاً منها بالكثير الكثير. لقد كنتِ أكيدة من الأمر، منذ اللحظة التي ترجلتُ فيها من سيارة روب، أليس كذلك يا ميغي؟ لقد اعتقدتِ أني قد استسلمت أخيراً. وقبل أن يكون بإمكانك استعادة أنفاسك، كان علي أن أبرهن لك كم أنت مخطئة. ومزقتُ نسيج أوهامك كما لو كان خرقة قذرة قديمة. آه يا ميغي! ما الذي فعلته بك؟ كيف كنتُ أعمى إلى هذا الحد، فأغلقت نفسي على نفسي، فلم أر إلّا نفسي؟ إنني لم أفعل شيئاً بمجيئي لرؤيتك يا ميغي، إلّا تمزيقك إرباً. لقد أحببنا بعضنا خلال كل هذه السنوات عبر غطاء من سوء التفاهم.

كانت لا تزال تنظر في عينيه، وقد امتلأت عيناها بالخجل والذل؛ بينما التعابير تتلاحق على وجه رالف، حتى استقرت على

شفقة يائسة. وعندها فهمت ضخامة خطئها، وبشاعته. وأكثر من ذلك، فلقد فهمت أنه يعلم أنها أخطأت بتقديرها.

اجري يا ميغي! اجري بسرعة! اذهبي من هنا مع تلك النتفة من عزة النفس التي بقيت عندك!

وفي اللحظة التي مرت ببالها هذه الفكرة، نهضت عن كرسيها وركضت هاربة. وأمسكها قبل أن تصل إلى الشرفة، ولسرعتها، استدارت نحوه بقوة، فترنح. ولم يعد هناك أهمية لأي شيء، لا للمعركة الدائرة في داخله للمحافظة على نقاء روحه، ولا للضغط الطويل الذي مارسته إرادته على رغبته؛ وفي لحظات قصيرة، عاش أكثر من عمر. ولم تكن تلك القوة الراقدة الغافية بحاجة إلا للمسة صغيرة فجّرت الهيولى فخضع العقل للرغبة، وانطفأت إرادة العقل أمام صولجان الجسد.

ولفّت ذراعيها حول عنقه، ووضع ذارعيه وراء ظهرها، وأحنى رأسه يبحث عن فمها حتى وجده. ولم يعد فمها ذكرى مرفوضة، منبوذة، وإنما حقيقة واقعة، وذراعاها يشدانه وكأنها لا تستطيع احتمال البعد عنه، وشعرت أنها لم تعد تحس بعظم من عظامها. كانت مظلمة كالليل، مزيجاً من الذكريات والرغبات،

ذكريات منبوذة، ورغبات مرفوضة. وكل تلك السنوات التي كان يتوق فيها لما يجري الآن، يتوق لها هي، وينكر جبروتها، منعته من التفكير بها كامرأة.

هل حملها إلى السرير؟ أم هل ذهبا إليه سيراً؟ لا بد أنه قد حملها، ولكنه ليس أكيداً من ذلك. كل ما يذكره هو أنها كانت هناك، على السرير، وكان هو على السرير، وجسدها في متناول يديه، وجسده في متناول يديها. آه! يا إلهي، ميغي، يا حبيبتي! كيف استطاعوا أن يربونني منذ الطفولة على أن أعتبرك تدنيساً!

وكف الزمن عن النبض وأخذ يسيل كموجة تغرقه حتى فقد كل احساس إلا الاحساس بعمق هذه الأبعاد الحقيقية أكثر من الزمن الحقيقي. كان يحس بها، ولم يكن يحس بها ككيان آخر، ويريد أن يجعلها أخيراً وأبداً جزءاً من ذاته، برغماً لم يكن إلا هو نفسه، وليس كشيء متميز عنه. لن يجهل بعد الآن شيئاً من هذا الجسد العاصف. إنها حقاً قد خُلِقت له، لأنه هو الذي خلقها. ستة عشر عاماً وهو يصقلها ويهذبها، دون أن يعلم ما كان يفعل ولا لماذا. ونسي أنه قد تخلى عنها، وأن رجلاً آخر أراها نهاية ما بدأه هو لنفسه، لأنها كانت سقوطه، وكانت وردته،

وكانت خليقته. كانت حلماً لن يستيقظ منه ثانية، لن يستيقظ منه طالما بقي رجلاً، ويملك جسد رجل. آه أيها السيد الرب! إنني أعلم! إني أعلم! إني أعلم لماذا أردت الاحتفاظ بها كفكرة، وكطفلة في داخلي، حتى بعد أن كبرَتْ ولم تعد فكرة ولا طفلة. ولكن لماذا كان علي أن أعلم بهذه الطريقة؟

لأنه قد فهم أخيراً إنه لم يكن يصبو لأن يكون رجلاً، ليس رجلاً، أبداً، وإنما شيء آخر، أكبر بكثير، شيء يتجاوز قدر الرجل العادي. ومع ذلك فقدره كان هناك في متناول يديه، يرتجف ويشع بسببه هو، رجلها. انسان، انسان إلى الأبد. أيها الرب القدير، ألم يكن بإمكانك إبعاد هذه الكأس عني؟ إنني انسان، ولن أستطيع أبداً أن أصبح آلهاً. كان ذلك وهماً، تلك الحياة بحثاً عن الألوهية. هل نحن متشابهون جميعاً، نحن الكهنة الباحثون عن الله؟ ونحن نتنكر للعمل الوحيد الذي يبرهن بدون أي شك أننا بشر. وعقد ذراعيه حولها، ونظر وقد امتلأت عيناه بالدموع إلى وجهها الهادىء المشع بلطف، ونظر إلى الشفتين الورديتين تنفتحان وتشهقان بلذة مندهشة. كانت قد لفت ذراعيها وساقيها حوله، حبالاً حية تقيده إليها، كالحرير، وتعذبه بنعومة فائقة؛

ووضع ذقنه في تجويف كتفها، واسند خده إلى خدها الناعم، واستسلم إلى تلك الحاجة المجنونة التي تقود الإنسان وهو يصارع قدره. ودار عقله، وانزلق وأصبح مظلماً، ثم التمع ببريق خاطف؛ وللحظة كان يغرق في وهج الشمس، ثم يبهت الضوء ويصبح رمادياً، ويختفي. هذا هو الرجل. لن يستطيع أن يكون شيئاً آخر. ولكن ذلك لم يكن منبع الألم. كان الألم مستقراً في اللحظة الأخيرة، اللحظة الضئيلة، حيث الفراغ، والحزن، فاللذة لا تدوم.

لم يكن يريد أن يتركها الآن وقد امتلكها. لقد صنعها لنفسه. وهكذا تعلق بها كما يتعلق الغريق بقطعة خشب في بحر مقفر، وبعد قليل عاد يطفو خفيفاً على سطح الماء ويرتفع على موجة أصبحت مألوفة، فاستسلم، يحمله القدر الغامض الذي هو قدر الإنسان.

ما معنى النوم؟ تساءلت ميغي. أهو نعمة أم فترة راحة من الحياة؟ صدى الموت أم ازعاج ضروري؟ ومهما كان فقد سلم نفسه إليه وقد أحاطها بذراعيه ووضع رأسه بقرب كتفها، مستأثراً بها حتى في نومه. وكانت هي أيضاً متعبة ولكنها لم تترك نفسها تستسلم للنوم. وكانت تحس أنها لو أرخت قبضتها قليلاً عن

الوعي، فلن تجده حين تستيقظ من جديد. ستنام فيما بعد، بعد أن يستيقظ ويتفوه الفم الجميل المتكتم بأولى كلماته. ماذا سيقول لها؟ هل سيندم؟ هل تساوي اللذة التي أعطته إياها تلك التي تخلى عنها؟ لقد حاربها سنين طويلة وجعلها تحارب معه، ولا تستطيع أن تصدق أنه قد أرخى بذراعيه أخيراً، مستسلماً. ولكن الأشياء التي قالها خلال الليل، وفي وسط ألمه، محت تماماً تنكره لها.

كانت في سعادة فائقة، أسعد من أي وقت مضى في حياتها. فمنذ اللحظة التي أعادها بها عن الباب، تحول كل شيء إلى قصيدة، قصيدة كلماتها الجسد، وقوافيها أذرع وأيد ولذة. لقد خلقت له، وله فقط... ولهذا السبب لم تكن تشعر إلا بالقليـــل تجاه لوك! كانت قد تجاوزت حدود الصبر في بحر جسدها، ولم يعد بمقدورها التفكير إلا بشيء واحد، ألا وهو أنه من الضروري، وضروري أكثر من الحياة نفسها، أن تعطيه كل ما يمكنها إعطاءه. لا يجب عليه أن يندم على ما جرى، أبداً. آه، ألمه! لقد مرت بلحظات شعرت بها وكأنه ألمها هي. ولكن هذا زاد من سعادتها، كان هناك نوع من العدالة في ألمه.

واستيقظ. ونظرت في عينيه، ورأت في زرقتهما الحب نفسه الذي ادفأها، وجعل لحياتها هدفاً منذ طفولتها؛ وإلى جانب الحب إرهاق قاتم، عظيم. ليس إرهاقاً جسدياً، بل إرهاق الروح. كان يفكر أنه لم يستيقظ مرة واحدة خلال حياته كلها ليجد من يقاسمه الفراش، وكان ذلك شيئاً حميماً أكثر من العمل الجنسي نفسه، الذي سبقه، وكان برهاناً واضحاً على القيود العاطفية التي تربطه بها. وشعر بنفسه خفيفاً، فارغاً كالنسيم الذي يهب مليئاً برائحة البحر والأعشاب الغارقة في أشعة الشمس، فترك نفسه يسرح على أجنحة الحرية، حرية من نوع آخر، جديدة: الشعور بالارتياح الذي يولده الاستسلام بعد أن قاوم طويلاً، والسلام الذي يحس به المرء عندما يخسر حرباً دامية غير معقولة، ويكتشف أن الاستسلام أحلى بكثير من القتال. ولكني شننت عليك حرباً قاسية يا ميغي! ومع ذلك، ففي النهاية لن أجمع أشلاءك أنت بل أشلائي أنا.

لقد وُضعتِ في حياتي لكي أفهم مدى التزوير والادّعاء عند كاهن مغرور من نوعي، مثل «لوسيفر» كنت أطمح إلى ما يخص الله وحده فقط، ومثل «لوسيفر»، سقطت. لقد

مارست العفة والطاعة، واحتملت الفقر قبل أن أعرف ميري كارسون. ولكني حتى هذا الصباح لم أكن أعرف معنى التواضع. أيها الرب القدير، لو أنها لم تكن تعني شيئاً بالنسبة لي، لكان صليبي أخف حملاً علي، ولكني أحياناً أفكر بأني أحبها أكثر منك، وهذا أيضاً جزء من عقابك. وأنا لا أشك بها هي، أما أنت؟ فأنت مزحة. كيف بإمكاني أن أحب مزحة؟ ومع هذا فأنا أحب هذه المزحة.

ـــ لو كانت لي الشجاعة الكافية لذهبت أسبح قليلاً ثم أعود لأحضر الإفطار.

قال باحثاً عن شيء يقوله، وشعر بها تبتسم ووجهها على صدره.

ـــ اذهب للسباحة وأنا سأجهز الإفطار. ولا حاجة بك لارتداء أي شيء هنا، فلا أحد يأتي.

ـــ إنها الجنة حقاً! وانزل ساقيه عن السرير، وجلس يتمطمط.

ـــ إن هذا الصباح جميل، وإني لاتساءل أن لم يكن بُشرى خير.

وعاودها الشعور من جديد بالألم، ألم الفراق، لمجرد مغادرته للسرير.

واستلقت تراقبه وهو يتجه نحو الباب المطل على الشاطىء، ويخرج ثم يتوقف.

واستدار نحوها ماداً يده:

ـــ أتأتين معي؟ بإمكاننا أن نحضر الإفطار سوية.

كان البحر في مدّ، وقد غطت المياه الصخور، وشمس الصباح حارة، ولكن النسيم الصيفي كان بارداً، وكانت أوراق الأعشاب الحادة ترتعش في الرمال المتفتتة التي لا تشبه الرمال، بينما السراطين والحشرات تدور راقصة.

ـــ إنني أشعر وكأني لم أر العالم من قبل. قال وهو يتأمل المنظر أمام عينيه.

وشدت ميغي على يده وهي تحس بالضياع وتجد أن هذا الصباح المشمس غامض أكثر من حقيقة الليل الماضي الحالمة. واستقرت عيناها عليه بألم. وتوقف الزمن، وأصبح العالم مختلفاً.

وقالت:

ـــ ليس هذا العالم. وكيف تستطيع رؤيته؟ إنه عالمنا نحن، ما بقي.

ـــ ماذا يشبه لوك ؟ سألها خلال تناولهما طعام الإفطار .

ومالت برأسها مفكرة :

ـــ إنه لا يشبهك تماماً كما كنت أعتقد ، ففي تلك الأيام كنت أفتقدك كثيراً ، ولم أكن معتادة على التصرف بدونك . أظن أني تزوجته لأنه كان يذكرني بك . على كل حال ، كنت قد قررت أن أتزوج أي شخص ، ولقد لفت انتباهي أكثر من البقية . ولا أقصد بسبب قيمته أو لطفه أو أي شيء من الذي تتطلبه المرأة عادة ممن يرغب في الزواج منها . لكنه شيء لم أستطع تفسيره . ربما لأنه كان مثلك فهو أيضاً ليس بحاجة للنساء .

وتقلص وجهه :

ـــ أهكذا ترينني يا ميغي ؟

ـــ أتريد الحقيقة ؟ نعم . لن أفهم أبداً لماذا ، ولكنني أعتقد ذلك . إن بكما شيئاً يجعلكما تعتقدان أنّ الحاجة لامرأة هي ضعف . ولا أقصد بالحاجة علاقة جسدية بالمرأة ، وإنما الحاجة إليها ، الحاجة الحقيقية .

ـــ وأنت تريديننا رغم فهمك لذلك ؟

وهزت بكتفيها مبتسمة وقد غشى ابتسامتها شيء من الشفقة :

ــ آه يا رالف ، إني لا أدّعي أن هذا ليس مهماً ، ولقد سبب لي الكثير من التعاسة ، ولكن الأمر هكذا ، وسيكون من الجنون أن أحاول تغييره حين لا يمكن تغييره . إن أفضل ما بإمكاني فعله هو استغلال هذا الضعف وليس تجاهله . لأني أريدكما ، وأنا بحاجة إليكما أيضاً . ويبدو أني احتاج لأناس مثلك ومثل لوك ، وإلا لما كنت أضعت نفسي عليكما أنتما الاثنين كما فعلت ، ولكنت تزوجت من رجل بسيط ، طيب لطيف ، مثل والدي ، رجل يريدني ويحتاج إلي . إن في كل رجل شيئاً من شمشون على ما أظن ، ولكن هذا الشيء أشد وضوحاً عندك وعند لوك .

لم يبد عليه أنه شعر بالإهانة ، وكان يبتسم :

ــ يا ميغي الحكيمة !

ــ هذه ليست حكمة يا رالف . إنها المنطق . فأنا لست حكيمة على الإطلاق ، وأنت تعلم ذلك . ولكن انظر إلى أخوتي . إني لا أظن أن الكبار منهم سيتزوجون ، وليس لهم صديقات . إنهم شديدو الحياء ، وترعبهم فكرة السلطة التي يمكن لامرأة أن تمارسها عليهم ، وأمي مسيطرة عليهم تماماً .

وتوالت الأيام، وتعاقبت الليالي. وحتى أمطار الصيف الغزيرة كانت جميلة، يحلو بها السير عراة، والاصغاء إلى وقعها على السقف المعدني، دافئة، مليئة بالحنان كالشمس. وعندما كانت الشمس تغيب، كانا يسيران أيضاً، أو يستلقيان بكسل على الشاطىء، أو يسبحان. ذلك أنه كان يعلمها السباحة.

أحياناً، عندما لم يكن يعلم أنها تراقبه، كانت ميغي تنظر إليه وتحاول يائسة أن تطبع صورة وجهه في صميم عقلها، متذكرة كيف أن صورة فرانك قد أمّحت من ذاكرتها على مر السنين، رغم الحب الذي حملته له. كان هناك العينان، والأنف، والفم، وخطوط الشيب المذهلة في ذلك الشعر الأسود، والجسد الطويل الصلب الذي حافظ على رشاقة الشباب وعنفوانه، على الرغم من فقدانه لليونته. وكان يستدير ليجدها تنظر إليه وفي عينيه ألم أخرس ونظرة تشاؤم.

وكانت تفهم معنى الرسالة، أو تظن أنها تفهم. كان عليه الذهاب، العودة إلى الكنيسة وإلى واجباته. بروح مختلفة حتماً، وإلى الأبد ربما، وإنما أكثر قدرة على البذل. لأن من انزلق وسقط هو فقط الذي يعرف تقلبات الزمن.

وذات يوم، عندما كانت الشمس قد غابت منذ فترة، وتركت البحر مدمى، ولطخت الرمل المرجاني بالأصفر، استدار نحوها بينما كانا مستلقيين على الشاطىء:

ــ ميغي، إني لم أشعر طوال حياتي بهذه السعادة، ولا بهذه التعاسة.

ــ إني أعلم ذلك يا رالف.

ــ إني متأكد بأنك تعلمين. ألهذا السبب أحبك؟ أنت لست شيئاً خارقاً يا ميغي، ومع ذلك فلست عادية مطلقاً. هل إني حزرت ذلك منذ تلك السنين البعيدة؟ أظن ذلك. لم أكن أعلم إلى أين سيقودني ولعي بلون شعرك. إني أحبك يا ميغي.

ــ هل أنت راحل؟

ــ غداً. علي ذلك. إن السفينة تبحر إلى جنوة خلال أسبوع.

ــ جنوة؟

ــ روما، في الواقع. ولمدة طويلة، ربما طوال ما تبقى من حياتي. لست أدري.

ــ لا تقلق يا رالف. سأدعك تذهب دون أية مشاكل. لقد انتهت إجازتي أنا أيضاً تقريباً. إني سأترك لوك وأعود إلى دروغيدا.

ـــ آه يا ربي. ليس بسبب ما حصل، ليس بسببي؟

ـــ كلا. بالطبع لا. لقد فكرت كثيراً قبل أن تأتي أنت. لوك لا يريدني، وليس بحاجة إلي، وهو لن يفتقدني على الإطلاق. ولكنني بحاجة لبيت لي أنا، في مكان ما، واعتقد الآن أن دروغيدا ستكون ذلك البيت. ليس من العدالة بشيء أن تكبر جوستين في بيت أعمل به كخادمة، رغم يقيني بأن لودي وآن لا يعتبرانني كذلك. ولكني أعتبر نفسي هكذا، وهذا ما ستفكر به جوستين عندما تكبر وتصبح قادرة على الفهم أنها لا تعيش في بيت عادي. أظن أنها لن تحب ذلك، وعلي أن أفعل ما بوسعي من أجلها. ولهذا فأنا عائدة إلى دروغيدا.

ـــ سأكتب لك يا ميغي.

ـــ لا. لا تفعل. هل تظن إني بحاجة إلى الرسائل بعد هذا؟ لا أريد بيننا شيئاً يمكنه الإساءة إليك إذا ما وقع في أيدي أشخاص بلا ضمير. لا رسائل إذن. وإذا عدت إلى استراليا فمن الطبيعي أن تزور دروغيدا، ولكنني أنصحك يا رالف أن تفكر قبل أن تفعل. هناك بقعتان في العالم لي بهما عليك حقوق قبل الله، هنا في ماتلوك، وهناك في دروغيدا.

وضمها بين ذراعيه، وأبقاها هناك وهو يمسح شعرها:

ـ ميغي ، أتمنى من كل قلبي لو كان بإمكاني الزواج منك ، فلا افترق عنك أبداً . إني لا أريد أن أتركك ... وإني لن اعتق منك بعد اليوم . ليتني لم آت إلى ماتلوك . ولكننا لا نستطيع أن نغير ما نحن عليه ، وربما هكذا أفضل . إني أعلم عن نفسي أشياء ما كنت لأعلمها أو لأواجهها لو لم آت ، ومن الأفضل الرضى بما نعرف فهو أفضل من المجهول . إني أحبك ، ولقد أحببتك دائماً ، وسوف أحبك إلى النهاية . تذكري ذلك .

وفي اليوم التالي ، ظهر روب لأول مرة منذ قاد رالف إليها ، ووقف بصبر ينتظر أن ينتهيا من وداعهما . فمن الواضح أنهما ليسا عريسين ، لأنه أتى بعدها وها هو يغادر قبلها . وليسا عاشقين متخفين ، فقد كانا متزوجين ، كان ذلك جلياً عليهما . ولكنهما كانا يحبان بعضهما ، جداً بالفعل . مثله هو وزوجته ؛ فرق كبير في العمر ، وهذا ما يجعل الزواج ناجحاً .

ـ وداعاً يا ميغي .

ـ وداعاً يا رالف . اعتن بنفسك .

ـ سأفعل . وأنت أيضاً .

وانحنى ليقبلها . ورغم ما كانت قد قررت ، فقد تعلقت به ،

لكنه عندما رفع يديها عن عنقه وضعتهما وراء ظهرها بصلابة، وتركتهما هكذا.

وصعد إلى السيار وجلس بينما كان روب يديرها للعودة، ثم نظر أمامه عبر الزجاج دون أن يلتفت إليها، ولا مرة واحدة. من النادر أن يفعل رجل هذا، فكر روب، ولم يكن بحياته قد سمع عن «أورفيوس». وسارا بصمت عبر غابة المطر، ووصلا أخيراً إلى الشاطىء، وإلى الرصيف الطويل. وبينما كانا يشدان على يدي بعضهما، نظر روب إلى وجهه متسائلاً. لم ير أبداً عينين بهذه الإنسانية، ولا بهذا الحزن. لقد اختفى التحفظ من عيني الأسقف رالف دو بريكاسار، وإلى الأبد.

○

عندما عادت ميغي إلى هيملهوتش، فهمت آن على الفور أنها ستتركها. نعم، لقد كانت ميغي نفسها، ولكنها كانت شيئاً آخر، في الوقت نفسه. ومهما كان الأسقف رالف قد أخبر نفسه قبل أن يذهب إلى ماتلوك، فقد سارت الأمور هناك أخيراً كما أرادت ميغي، وليس كما أراد هو. وكان الوقت قد حان لذلك.

وأخذت جوستين بين ذراعيها وكأنها تفهم لأول مرة ماذا تعني جوستين بالنسبة لها، ووقفت تهدهد الشيء الصغير وهي تنظر حولها في الغرفة، وتبتسم. والتقت عيناها بعيني آن المليئتين بالحياة، تلمعان بالتأثر حتى شعرت آن بعينيها هي تمتلئان بالدموع، دموع الفرح الذي رأته في عيني ميغي.

ـ لن أستطيع أبداً أن أعبر لك عن شكري يا آن.

ـ هراء. ولماذا؟

ـ لأنك أرسلت رالف. أظن أنك كنت تعلمين إن هذا كان يعني أني سأترك لوك، ولهذا أشكرك أكثر، يا عزيزتي. أنت لا تدركين مدى تأثير ذلك علي. لقد كنت قد قررت أن أذهب وأعيش مع لوك، أما الآن فأنا عائدة إلى دروغيدا ولن أتركها أبداً بعد ذلك.

ـ إني أكره أن أراك ترحلين، وأكره خاصة رحيل جوستين، ولكنني مسرورة لأجلكما أنتما الاثنتين يا ميغي. فلوك لن يجلب لكما إلا التعاسة.

ـ هل تعلمين بمكانه؟

ـ لقد عاد من مصفاة السكر، وهو يقطع القصب الآن قرب «انغهام».

ــ على أن أذهب وأقابله ، اخبره هذا . وأن أمضي ليلة معه رغم أني أمقت مجرد التفكير بذلك .

ــ ماذا؟

وشعت عينا ميغي :

ــ لقد تأخرت أسبوعين وأنا لا أتأخر يوماً واحداً . والمرة الوحيدة التي حصل لي هذا كنت حاملاً بجوستين . إني حامل يا آن ، أنا أعلم ذلك .

ــ يا إلهي . شهقت آن كما لو ترها ميغي تفعل بحياتها ، وربما لم تفعل قط .

وبللت شفتيها وتمتمت :

ــ ربما كنتِ على خطأ .

ولكن ميغي هزت برأسها مؤكدة :

ــ كلا ، إني حامل . هذه أشياء تحس بها المرأة .

ــ إنها مشكلة كبيرة إذا كان كلامك صحيحاً .

ــ آه يا آن ، لا تكوني عمياء! ألا ترين ما يعني هذا؟ ليس بإمكاني الحصول على رالف أبداً ، كنت أعلم إني لن أحصل على رالف أبداً ، ولكني فعلت . لقد حصلت عليه!

وضحكت وهي تعصر الطفلة حتى خافت آن أن تصرخ، ولكنها لم تفعل مع غرابة ذلك.

ـ لقد حصلت من رالف على جزء لا تستطيع الكنيسة أبداً الحصول عليه، الجزء الذي ينتقل من جيل إلى جيل. ومن خلالي سيستمر حياً، لأني أعلم أني أحمل صبياً! وهذا الصبي سينجب صبياناً، وسيكون لهم بدورهم صبيان. لقد أحببت رالف منذ كنت في العاشرة، واعتقد أني سأحبه حتى لو عشت مئة سنة. ولكنه ليس ملكي، بينما سيكون ابنه ملكي. ملكي أنا يا آن، ملكي.

ـ آه يا ميغي. قالت آن بيأس.

وهمدت العواطف العاصفة والابتهاج، وعادت ميغي كما كانت، هادئة، ناعمة، يرافق ذلك خيط من الفولاذ، والقدرة على تحمل الكثير. وأخذت آن تتقدم بحذر متسائلة عن الذي فعلته بإرسالها رالف دو بريكاسار إلى جزيرة ماتلوك. هل يمكن للإنسان أن يتغير بهذا الشكل؟ لم تكن آن تعتقد ذلك. كان هذا الشيء موجوداً عند ميغي دائماً، ولكنه كان مخفياً بعناية فلم يشك أحد بوجوده. لم يكن في ميغي خيط رفيع فقط من الفولاذ، ولكنها كانت كلها من الفولاذ الصلب.

ـــ ميغي ، إذا كنت تحبينني ولو قليلاً ، فتذكري شيئاً واحداً ، من أجلي .

وتجعدت زاويتا عينيها وهي تجيب :

ـــ سأحاول .

ـــ لقد قرأت أغلب كتب لودي ، على مر الزمن ، عندما لم يبق عندي كتاب للمطالعة . خاصة تلك التي تحكي قصص الأغريق القديمة ، لأنها كانت تسحرني . ويقال أن الأغريق قد وجدوا اسماً لكل شيء ، وأنهم لم يعجزوا عن وصف أي موقف بشري .

ـــ أعلم ذلك ، فلقد قرأت بعض كتب لودي أيضاً .

ـــ ألا تذكرين إذن ؟ يقول الاغريق أن الانسان يرتكب خطيئة ضد الآلهة عندما يحب شيئاً بطريقة تتجاوز العقل . وهل تذكرين قولهم أنه عندما يكون انساناً محبوباً بهذا الشكل ، تغار الآلهة منه وتضربه فتقتله في ريعان شبابه ؟ هذا درس يا ميغي . إن الحب لهذه الدرجة تجديف .

ـــ تجديف يا آن ، هذه هي الكلمة الأساسية . لن أحب ابن رالف بطريقة دنسة ، وإنما بنقاوة السيدة العذراء نفسها .

وكانت عينا آن البنيتان حزينتين :

ــ وهل أحبت السيدة العذراء بنقاوة؟ إن من أحبت قد قتل في ريعان شبابه، أليس كذلك؟

ووضعت ميغي جوستين في مهدها :

ــ ما يجب أن يحدث سيحدث. رالف، لا أستطيع الحصول عليه، ولكني استطيع الحصول على ابنه. إنني أشعر... آه، كما لو كان هناك هدف لحياتي، بعد كل حساب! لقد كان هذا أسوأ شيء خلال هذه السنوات الثلاث الأخيرة، يا آن. وكنت قد بدأت اعتقد أن ليس لحياتي هدف.

وابتسمت فجأة بحزم :

ــ سأحمي هذا الطفل بكل قواي، ولا يهمني ما سيكلفني ذلك. وأول شيء هو أني لن أسمح لمخلوق، ولا حتى للوك أن يدعيّ أنه لا يحق لهذا الطفل أن يحمل الأسم الذي بمقدرتي أن أعطيه إياه. إن مجرد التفكير في الاتصال بلوك يمرضني، ولكني سأفعل، وسأنام مع الشيطان بنفسه إذا كان ذلك يضمن مستقبل هذا الطفل. إني عائدة إلى دروغيدا، وآمل ألّا أرى لوك ثانية.

واستدارت بعيداً عن المهد:

ـــ هل ستأتين ولودي لزيارتنا؟ إن في دروغيدا دائماً مكاناً للأصدقاء.

ـــ مرة كل سنة طالما حيينا. فأنا ولودي نريد رؤية جوستين وهي تنمو.

○

كان مجرد التفكير بطفل رالف يدفع ميغي للتمسك بشجاعتها المتداعية بينما كان القطار الصغير يترنح ويقفز على الأميال الطويلة المؤدية إلى انغهام. ولو لم يكن هناك تلك الحياة النامية في أحشائها لاعتبرت أن التقرب من لوك مرة ثانية هي أكبر خطيئة ترتكبها. ولكنها كانت قد عقدت اتفاقاً مع الشيطان من أجل ولد رالف.

ومن وجهة نظر عملية، لن يكون الأمر سهلاً، كانت تعلم ذلك. ولكنها كانت قد وضعت مخططها بعناية، وبمساعدة لودي، رغم غرابة ذلك. لم يكن من السهل إخفاء الكثير عنه، فقد كان حاد الذهن ويتمتع بثقة آن. ونظر إلى ميغي بحزن وهو

يهز رأسه، ثم أخذ يعطيها بعض النصائح الثمينة. ولم يلمّح أحدهما إلى الهدف من رحلتها الحالية بالطبع، ولكن لودي لم يكن ابن الأمس، وكان يعرف أن اثنين واثنين يصنعان أربعة.

ــ لا يجب أن تخبري لوك أنك ستتركينه، حين يكون مرهقاً بعد أن أمضي يوماً بكامله في القصب، ومن الأفضل أن تقبضي عليه وهو في مزاج حسن، أليس كذلك؟ وأفضل ما تفعلينه هو أن تقابليه مساء السبت أو الأحد، بعد أن يكون قد أمضى أسبوعاً كطاه في المطبخ. إن الإشاعات تقول أن لوك هو أفضل طباخ بين قاطعي القصب. ولقد تعلم الطبخ عندما كان يتعلم جز الصوف، والجزازون يعلقون أهمية كبرى على الطعام، أكثر من قاطعي القصب. وهذا يعني أن الطبخ لا يزعجه، ولا شك أنه يجد ذلك العمل أسهل من النهوض عن كرسي. هكذا إذن يجب أن تتصرفي يا ميغي، وسوف ترمين بالنبأ في وجهه عندما ترينه مرتاحاً بعد أن أمضى أسبوعاً في المطبخ.

وبدا لميغي فيما بعد أنها ابتعدت كثيراً عن الزمن الذي كانت تحمرّ فيه خجلاً لأقل شيء، ونظرت إلى لودي بثبات دون أن يتغير لون وجهها مطلقاً:

ـــ هل تستطيع أن تستعلم متى يكـون دور لوك في المطبـخ يا لودي؟ أو هل هناك طريقة استطيع بها أن أعلـم ذلك بنفسي؟

ـــ لا تقلقي، إن عندي من يخبرني، وسأعلم.

وفي وقت متأخر من بعد ظهر السبت، وصلت ميغي إلى انغهام وحجزت لنفسها مكاناً في الفندق ـــ الحانة الذي بدا لها أفضل ما في البلدة. وكانت مدن كوينزلاند الشمالية مشهورة بشيء واحد فقط، فقد كان بها حانات على كل زاوية شارع.

ووضعت حقيبتها الصغيرة في غرفتها، ثم عادت إلى ردهة الاستقبال تبحث عن هاتف. كان هناك فريـق «روكبـي» في المدينة، يقوم بمباراة تدريبية، وكانت ممرات الفندق مليئة بلاعبين نصف عراة، سكارى، قابلوا ظهورها بالترحاب وبضربات لطيفة على ظهرها وقفاها. وعندما استطاعت الـوصول إلى الهاتـف، كانت ترتجف رعباً. كان كل شيء في هذه المغامرة يبدو كامتحان صعب، ولكنها استطاعت رغم الصخب ووجوه السكارى التي كانت ترتسم أمامها، أن تتصل بمزرعة براون حيث كان لوك يقوم بقطع القصب، وتطلب منهم أن يخبروه أن زوجته موجودة في

انغهام ، وترغب برؤيته . وعندما رأى صاحب الفندق رعبها ، رافقها إلى غرفتها ، وانتظرها خارجاً حتى أقفلت الباب بالمفتاح .

واستندت ميغي إلى الباب وقد ارتخى ساقاها وذراعاها بعد أن أطمأنت . إنها لن تغامر بالذهاب إلى غرفة الطعام حتى ولو توجب عليها أن تبقى بدون طعام حتى تعود إلى دنّي . ولحسن حظها كان صاحب الفندق قد أنزلها بالقرب من حمّام السيدات ، وهكذا يمكنها أن تذهب إلى هناك عند الضرورة . وعندما شعرت أن باستطاعة ساقيها أن تحملانها ، مشت إلى السرير وجلست عليه وقد أحنت رأسها تنظر إلى يديها المرتعشتين .

كانت قد فكرت خلال كل رحلتها بأحسن طريقة للتصرف ، وكان كل شيء فيها يصرخ : اسرعي ، اسرعي ! وقبل أن تأتي إلى هيملهوتش ، لم تكن قد قرأت أبداً أي شيء ، عن طرق الإغراء ، ولكنها الآن أيضاً ، ورغم إطلاعها على الكثير من هذه الطرق ، لم تكن واثقة من قدرتها على التصرف بنفسها . ولكن ، كان يجب عليها أن تفعل هذا ، لأنها كانت تعلم أن كل شيء سينتهي عندما تبدأ بالحديث مع لوك . فإن لسانها يتشوق ليقذف

له بحقيقته في وجهه. ولكن كان هناك أكثر من ذلك، كان هناك الرغبة في الرجوع إلى دروغيدا بأمان مع ولد رالف، وكانت هذه الرغبة تنهشها نهشاً.

وارتعشت في الهواء المالح الحلو، ونزعت ملابسها، واستلقت على السرير وقد أغمضت عينيها وهي تحاول ألّا تفكر بشيء إلا بالحماية التي ستتضمنها لابن رالف. ولم يتضايق لوك من لاعبي الكرة عندما وصل لوحده إلى الحانة في الساعة التاسعة، فقد كان أغلبهم قد فقدوا كل شعور في ذلك الوقت، ومن منهم ما زال واقفاً على قدميه كان مطفأً من السكر ولا يرى أبعد من كأسه.

كان لودي على حق، فقد كان لوك مرتاحاً بعد أن أمضى أسبوعاً في المطبخ، وكان متشوقاً لبعض التغيير، ويفيض بالارادة الطيبة. وعندما نقل إليه ابن براون الصغير رسالة ميغي، كان لوك يغسل صحون العشاء ويخطط للذهاب على دراجته إلى انغهام ليحلق با رن وبقية الشبان كعادتهم كل مساء سبت.

وكان مجيء ميغي بديلاً جيداً، فمنذ تلك الإجازة التي أمضياها في آثرتون، وجد نفسه يشتهيها من حين لآخر رغم إرهاقه

الجسدي، ولم يردعه عن الذهاب إلى هيملهوتش عندما كان يعمل قريباً من دنّي إلّا خوفه من أن تعيد على سمعه الاسطوانة القديمة وتطالبه باكية بأن تؤمن لها بيتاً تستقر به. ولكنها الآن قد أتت إليه، ولم تكن فكرة قضاء ليلة معها في السرير لتزعجه. وهكذا فقد أنهى غسل الأطباق بسرعة، وحالفه الحظ، إذ صادف شاحنة نقلته إلى المدينة بعد أن قاد دراجته على بضعة مئات من الأمتار فقط. ولكنه بينما كان يقود الدراجة على الأمتار القليلة التي تفصله عن الفندق التي نزلت به ميغي، هبط حماسه. فقد كانت كل الصيدليات مقفلة، ولن يستطيع الحصول على «الرسائل الفرنسية». وتوقف ينظر إلى واجهة مليئة بالشوكولا الفاسدة الذائبة، وبالفراشات الميتة، ثم هز بكتفيه. لا بأس، سوف يقوم بمغامرة. هذه الليلة فقط. ولو نتج عن هذا طفل فسيكون صبياً هذه المرة.

وقفزت ميغي بعصبية عندما سمعت القرع على الباب، ونهضت من السرير واقتربت من الباب:

ــ من هناك؟

ــ لوك.

وأدارت المفتاح، وشقت الباب، ثم تنحت جانباً عندما دفعه لوك؛ وما أن دخل حتى خبطت الباب ووقفت تنظر إليه. ونظر إليها وإلى صدرها العارم الجذاب. لم يكن بحاجة للمثيرات. ومد ذراعيه يحملها وينقلها إلى السرير.

وعندما طلع الفجر لم تكن قد تفوهت بكلمة واحدة، رغم أن ملمس هذا الجسد الحريري جعله يشعر بنفسه محموماً لدرجة لم يعرفها من قبل. واستلقت الآن بعيداً عنه وكأنها قد طلقته.

وتمطمط بلذة وتثائب، ثم سعل:

ــ ما الذي أتى بك إلى انغهام يا ميغ؟

وأدارت رأسها تنظر إليه بعينيها الواسعتين المليئتين بالازدراء.

وردد سؤاله محتداً قليلاً:

ــ حسناً، ما الذي أتى بك؟

لا جواب. وظلت تركز عليه النظرات الثابتة اللاذعة نفسها كما لو أنها لا تبالي بالإجابة. وكان هذا مضحكاً بعد الذي جرى خلال الليل.

وانفرجت شفتاها عن ابتسامة :

ــ أتيت لأخبرك إني عائدة إلى دروغيدا .

ولم يصدقها لأول وهلة ، ثم نظر إلى وجهها بإمعان ، ورأى أنها كانت تعني تماماً ما قالته .

ــ لماذا ؟

ــ لقد أخبرتك بما سيحدث لو لم تأخذني معك إلى سيدني .

وكانت دهشته حقيقية :

ــ ولكن يا ميغي ، كان ذلك منذ ثمانية عشر شهراً ، ولقد أعطيتك إجازة ! أربعة أشهر لعينة باهظة الثمن قضيناها في آثرتون . ولم يكن بمقدوري أن آخذك إلى سيدني فوق كل هذا .

ــ لقد ذهبت إلى سيدني مرتين بعد ذلك ، وبدوني . قالت بعناد . بإمكاني أن أفهم المرة الأولى ، إذ أني كنت حاملاً بجوستين . ولكن الله يعلم إني كنت بحاجة لعطلة بعيداً عن فصل الأمطار في شهر كانون الثاني الماضي .

ــ أيها الرب !

ــ « كم أنت بخيل يا لوك » تابعت برقة . « لقد أخذت مني عشرين

ألف ليرة، وهذه النقود هي من حقي، ومع ذلك فإنك تضن علي ببضع ليرات تدفعها لكي أرافقك إلى سيدني! إنك تثير اشمئزازي أنت ونقودك!».

— «إنني لم أمسّ تلك النقود» قال بوهن. «إنها هنا، كل قرش منها، وأكثر، مع ما أضفته إليها».

— نعم، ذلك صحيح. لقد وضعت النقود في المصرف حيث ستبقى، فأنت لا تنوي مطلقاً إنفاقها، أليس كذلك؟ بل تريد أن تعبدها، مثل العجل الذهبي. لا تنكر ذلك يا لوك، إنك شحيح. وأنت غبي لا شفاء لك! إن تعامل زوجتك وابنتك بطريقة لا يمكن بها معاملة زوج من الكلاب! إن تتجاهل وجودهما وحاجاتهما! فذلك لا يطاق. إنك أناني، مغرور، قذر.

وشحب وجهه وأخذ يرتجف باحثاً عن الكلمات، كانت ميغي تنتصب ثائرة في وجهه بعد ليلة كهذ! وجعله هذا يشعر وكأنه يسقط ميتاً تحت لسعات فراشة. وكانت اتهاماتها الظالمة تروعه، ولكنه كان عاجزاً عن أن تجعلها تفهم حسن نواياه. فهي ككل النساء، لم تكن ترى إلّا القشور، ولم يكن بإمكانها رؤية الأهداف العظيمة وراء هذه القشور.

وهكذا أجابها بصوت تشوبه الدهشة واليأس والاستسلام :

ــ آه يا ميغ، إني لم أعاملك أبداً معاملة سيئة. كلا، لم أفعل ذلك أبداً. ليس بإمكان أحد أن يقول إني كنت قاسياً معك. لا أحد! لقد كان عندك ما يكفي من الطعام، وسقف فوق رأسك، والدفء...

ــ «آه نعم»، قاطعته. «هذا شيء أستطيع تأكيده لك. لم أشعر بدفء كهذا طيلة حياتي».

وهزت رأسها ضاحكة :

ــ ما نفع الكلام؟ إني أتحدث إليك وكما لو كنت أتحدث إلى حائط.

ــ أستطيع أن أقول لك الشيء نفسه.

ــ قل، لا تتردد. قالت ميغي ببرود وهي تنهض من السرير وتبدأ بارتداء ثيابها :

ــ إني لن أطلقك، ولا أريد الزواج ثانية. وإذا كنت تريد الطلاق فأنت تعلم مكاني. ومن الناحية القانونية، فأنا المخطئة، أليس كذلك؟ لأني أهجرك، أو هذا على الأقل ما ستدّعيه المحكمة في هذه البلاد. وباستطاعتك أن تبكي كما تشاء على كتف

قاضيك، وتشكيان سوية غدر النساء ونكرانهن للجميل، فلن يغير ذلك شيئاً.

ـــ إني لم أهجرك أبداً. قال ملحاً.

ـــ بإمكانك أن تحتفظ بالعشرين ألف ليرة يا لوك. ولكنك لن ترى قرشاً واحداً بعد اليوم مني. وسأستعمل دخلي في المستقبل لتربية جوستين، وربما ولد آخر، إذا كنت محظوظة.

ـــ هذا هو الأمر إذن! كنت تجرين وراء ولد آخر لعين، أليس كذلك؟ ولهذا السبب أتيت إلى هنا. أغنية البجعة، هدية صغيرة مني لك، تأخذينها معك إلى دروغيدا! ولد ملعون آخر، ولكن ليس أنا! إنك لم تريديني أبداً، أليس كذلك؟ أنا بالنسبة لك لم أكن سوى حيوان استيلاد! يا يسوع الرب، أية خدعة هذه!

ـــ «هذا ما يمثله أغلب الرجال بالنسبة لأغلب النساء». قالت بخبث. «لقد أظهرت أقبح ما عندي يا لوك، بطريقة لن تفهمها أبداً. كن عادلاً، لقد جعلتك تكسب أموالاً طائلة هذه السنوات الثلاث والنصف الأخيرة، أكثر بكثير مما كسبت من قصب السكر. وإذا أنا أنجبت طفلاً آخر فهذا لا

يخصك على الإطلاق. واعتباراً من هذه اللحظة، لا أريد أن أراك ثانية طالما حييت».

كانت قد انتهت من ارتداء ملابسها. فتناولت حقيبتها الصغيرة واستدارت قرب الباب وقد وضعت يدها على قبضته:
ــ دعني أقدم لك نصيحة صغيرة يا لوك، إذا صدف ووجدت لنفسك امرأة أخرى، عندما تصبح عجوزاً مرهقاً عاجزاً عن قطع القصب، فأعلم أنك تقبّل مثل القرد، وعندما تفتح فمك واسعاً، فباستطاعتك أن تبتلع امرأة بكاملها، مثل الأفعى. لا بأس بقليل من اللعاب، ولكن نهراً منه... ! ومسحت فمها بظهر يدها. أنت مقرف يا لوك أونيل، الـ «أنا» العظيم، أنت لا شيء.

وبعد أن ذهبت، جلس على حافة السرير ينظر إلى الباب الذي كان قد أغلق منذ مدة طويلة. ثم هز كتفيه وبدأ يرتدي ملابسه. عملية سريعة في كوينزلاند الشمالية، بنطال قصير. وإذا أسرع فبإمكانه العودة إلى المركز بالسيارة مع آرن وبقية الرجال. آرن الطيب. أيها الزميل العزيز. إن الرجل مجنون. الجنس شيء، ورفقة الرجال شيء آخر.

فهرس الجزء الثاني

الكتاب الثالث

بادي

١٩٢٩ ــ ١٩٣٢

الكتاب الرابع

لوك

١٩٣٣ ــ ١٩٣٨

انتهى الجزء الثاني
ويليه الجزء الثالث

طيور الشوك = The thorn birds / تأليف كولين مكلو ؛ ترجمة نضال حوّاط . ــ ط . ١ . ــ دمشق : دار طلاس ، ١٩٨٦ . ــ ٣ ج . (١٣٢٨ ص.) ؛ ١٨ سم .

١ ــ ٨٢٣ أ س م ك ل ط ٢ ــ العنوان ٣ ــ مكلو
٤ ــ حوّاط

رقم الإيداع ــ الجزء الثاني ٤١٦/٤/١٩٨٦

هـذا الكتـاب

«إنها ملحمة، يمكن لأي شيء، أي شيء أن يحدث فيها. هكـذا ببساطة. قصة رائعة... جميلة... مؤثرة... مشوقة... إنها من تلك الكتب التي خُلقت من أجلها الكلمة المتفجرة، وحيث يمسك القارئ أنفاسه حتى آخر كلمة من آخر مقطع».

بوسطون غلوب

«إن الحياة الحقيقية تبدو شاحبة بقربها...
إن طيور الشوك ملحمة تمزق القلب، ملحمة عنف، وحب، وشفقة، وعائلة، وهوى عاصف، وألم، وانتصار، ومأساة، وورود، وأشواك... وقلوب محطمة... تتدفق حبكتها بطريقة ساحرة حتى نهايتها المأساوية المنتصرة».

شيكاغو تريبون

«إنها قصة مشوقة تنبض بالحياة...
فهي تحكي الحب، والحرب، والموت، والشجاعة، والشفقة... إنه كتاب آسر».

سان فرانسيسكو ايكزامينر